مُسلماتٌ خالداتٌ حَولَ الرَّسولِ ﷺ

المجلدُ الثَّاني

إعـداد

محمد عمر الداعوق محمد علي القطب

الدَّارُ النَّموذجيَّةُ للطِّباعةِ والنَّشرِ

صَيدا - لبنان

شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: 11/8355
تلفاكس: 655015 - 632673 - 00961 1 659875
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
بوليفار د. نزيه البزري - ص.ب: 221
تلفاكس: 720624 - 729259 - 00961 7 729261
صيدا - لبنان

• المطبعة العصرية
كفر جرة - طريق عام صيدا - جزين
07 230195 - 00961 7 230841
تلفاكس: 655015 - 632673 - 00961 1 659875
صيدا - لبنان

الطبعة الأولى
2019م - 1440هـ

Copyright© all rights reserved
جميع الحقوق محفوظة للناشر
لا يجوز نشر، أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو، أو بأي طريقة، سواء كانت ألكترونية، أو بالتصوير، أو التسجيل، أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدمًا.

E. Mail: alassrya@terra.net.lb
alassrya@cyberia.net.lb
info@alassrya.com

موقعنا على الإنترنت
www.alassrya.com

المحتويات

صَفِيَّةُ 227

أُمُّ حَرَامٍ بِنْتُ مِلْحَانَ 241

رَيْحَانَةُ 253

أُمُّ المَسَاكِيْنِ 263

ضُبَاعَةُ القُشَيْرِيَّةُ 273

خَوْلَةُ بِنْتُ ثَعلَبَةَ 283

أُمُّ شَرِيْكٍ 297

أُمُّ رُوْمَانَ 309

أَمَةُ بِنْتُ خَالِدٍ 323

سَلْمَى 337

حَمْنَةُ 349

هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ 365

أُمَامَةُ 389

الخَنْسَاءُ 399

كُعَيْبَةُ الأَسْلَمِيَّةُ 409

المُمْتَحَنَةُ 421

أُمُّ الفَضْلِ 437

الشَّهِيْدَةُ 453

بسم الله الرحمن الرحيم

صَفِيَّةُ
(رَضِيَ اللهُ عَنْهَا)

نَسَبُهَا

هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيِّ بنِ أَخْطَبَ أَحَدِ زُعَمَاءِ يَهُوْدِ بَنِيْ النَّضِيْرِ فِي المَدِيْنَةِ المُنَوَّرَةِ.

وأَمَّا أُمُّهَا فَهِيَ: بَرَّةُ بِنْتُ سَمَوْأَلٍ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ.

كَانَ وَالِدُهَا مِنْ أَشَدِّ اليَهُودِ عَدَاوَةً لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وأَكْثَرِهِمْ حِقْدَاً عَلَى الإِسْلَامِ والمُسْلِمِيْنَ.

نَشْأَتُهَا

كَانَتْ صَفِيَّةُ رضي الله عنها فَتَاةً صَغِيْرَةً غَرِيْرَةً عِنْدَمَا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ مَعَ المُسْلِمِيْنَ إِلَى المَدِيْنَةِ مُهَاجِرِيْنَ، ولَمْ تَكُنْ فِي تِلْكَ السِّنِّ لِتُدْرِكَ أَبْعَادَ الأَحْدَاثِ والوَقَائِعِ.

ونَشَأَتْ فِي بَيْتِ زَعِيْمٍ مِنْ زُعَمَاءِ يَهُودَ، وسَرِيٍّ مِنْ سَرَاتِهِمْ، وكَبِيْرٍ مِنْ كُبَرَائِهِمُ.

وكَانَتْ عَلَى جَانِبٍ عَظِيْمٍ مِنَ الجَمَالِ، بَارِعَةً سَاحِرَةً، لَمْ يُعْرَفْ فِي يَثْرِبَ سَوَاءٌ بَيْنَ العَرَبِ أَوِ اليَهُودِ مَنْ هِيَ أَجْمَلُ مِنْهَا.

زَوَاجُهَا الأَوَّلُ

فَلَمَّا اسْتَدَارَ عُوْدُهَا وَنَمَا جِسْمُهَا، واكْتَمَلَتْ أُنُوْثَتُهَا، خَطَبَهَا أَحَدُ فِتْيَانِ يَهُودَ وكُبَرَائِهِم «سَلَّامُ بنُ مِشْكَمٍ» مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ، ثُمَّ فَارَقَهَا ولَمْ تَطُلْ عِشْرَتُهُ مَعَهَا.

الزَّوَاجُ الثَّانِيَ

ثُمَّ تَزَوَّجَهَا «كِنَانَةُ بنُ الرَّبِيْعِ بنِ أَبِي الحُقَيْقِ» مِنْ يَهُودِ بَنِي النَّضِيْرِ، ومَا أَكْثَرَ مَا تَهَافَتَ عَلَيْهَا الفِتْيَانُ والرِّجَالُ كُلٌّ يُرِيْدُ أَنْ تَكُوْنَ لَهُ الحُظْوَةُ عِنْدَهَا فَيَظْفَرَ بِهَا، إِلَّا أَنَّ أَبَاهَا «حُيَيُّ بنُ أَخْطَبَ» كَانَ لَا يُفَرِّطُ بِهَا فَلَا يُعْطِيْهَا إِلَّا لِمَنْ يَرَى فِيْهِ الكَفَاءَةَ المَالِيَّةَ والاجْتِمَاعِيَّةَ.

فِي خَيْبَرَ

بَعْدَ أَنْ أَجْلَى النَّبِيُّ ﷺ يَهُوْدَ المَدِيْنَةِ عَنْهَا، كُلَّ اليَهُوْدِ، بَنِي النَّضِيْرِ وبَنِي قُرَيْظَةَ بِسَبَبِ غَدْرِهِمُ وتَعَاقُّهِم ونُكُوصِهِم بِالعُهُودِ والمَوَاثِيْقِ التِي وَقَّعُوهَا مَع رَسُولِ اللهِ ﷺ وتَعَهَّدُوا فِيْهَا بِالتَعَايُشِ السِّلْمِيِّ، وعَدَمِ التَّعَرُّضِ لِلْمُسْلِمِيْنَ بِالأَذَى، إِلَّا أَنَّهُمْ غَدَرُوا وَنَقَضُوا فَحَارَبَهُمْ ﷺ وأَجْلَاهُمْ عَنْ دِيَارِهِمْ.

بَعْدَ هَذَا...

اِرْتَحَلَ حُيَيُّ بنُ أَخْطَبَ ومَعَهُ ابْنَتُهُ صَفِيَّةُ وَزَوْجُهَا كِنَانَةُ بنُ أَبِي الحُقَيقِ وعَشِيْرَتُهُمْ إِلَى خَيْبَرَ حَيْثُ لَاذُوا بِهَا، ولَكِنَّهُمْ مَا انْفَكُّوْا يُمْعِنُوْنَ فِي تَدْبِيْرِ المُؤَامَرَاتِ، وحِيَاكَةِ الدَّسَائِسِ وَرَسْمِ الخُطَطِ التِي تُؤْذِيْ وتَضُرُّ بِالإِسْلَامِ والمُسْلِمِيْنَ.

رُؤْيَا صَفِيَّةَ

كَانَتْ صَفِيَّةُ رضي الله عنها قَدْ نَضَجَتْ وتَفَتَّحَتْ عَلَى الحَيَاةِ ومُجْرَيَاتِهَا، ووَقَفَتْ عَلَى دَقَائِقِ الأُمُورِ، ورَأَتْ بِعَيْنِ الحَقِيْقَةِ والعَدْلِ والإِنْصَافِ مَا كَانَ يَفْعَلُهُ قَوْمُهَا، فَتَتَأَثَّرُ وتَشْمَئِزُّ بَيْنَهَا وبَيْنَ نَفْسِهَا، إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ تُبْدِيْ ذَلِكَ.

وذَاتَ صَبَاحٍ اِسْتَيْقَظَتْ صَفِيَّةُ عَلَى رُؤْيَا غَرِيْبَةٍ عَجِيْبَةٍ، حَدَّثَتْ بِهَا زَوْجَهَا، قَالَتْ:

ـ رَأَيْتُ كَأَنَّ القَمَرَ فِي لَيْلَةِ التَّمِّ هَبَطَ مِنَ السَّمَاءِ واسْتَقَرَّ فِي حِجْرِي.

فَاسْتَشَاطَ زَوْجُهَا غَضَبَاً، لَأَنَّهُ أَوَّلَ الرُّؤْيَا، ثُمَّ قَالَ لَهَا:

ـ أَوَ تُرِيْدِيْنَ أَنْ تَتَزَوَّجِي مِنْ مَلِكِ العَرَبِ؟

ـ ثُمَّ لَطَمَهَا عَلَى وَجْهِهَا، مَعَ أَنَّهُ كَانَ شَغُوْفَا بِهَا مُحِبَّاً لَهَا.

غَزْوَةُ خَيْبَرَ

مِنْ خَيْبَرَ البَعِيْدَةِ كَانَ حُيَيُّ بنُ أَخْطَبَ لَا يَنْفَكُّ يُعَادِيْ المُسْلِمِيْنَ، ويُدَبِّرُ المُؤَامَرَاتِ، فَتَحَالَفَ مَعَ بَعْضِ القَبَائِلِ العَرَبِيَّةِ عَلَى غَزْوِ المَدِيْنَةِ، ومُهَاجَمَةِ المُسْلِمِيْنَ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ، ومُفَاجَأَتِهِمْ والقَضَاءِ عَلَيْهِمْ والتَّخَلُّصِ مِنْهُمْ.

لَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَلَغَتْهُ أَنْبَاءُ ذَلِكَ التَّحَالُفِ، وتِلْكَ المُؤَامَرَةِ فَخَرَجَ مِنَ المَدِيْنَةِ عَلَى رَأْسِ قُوَّةٍ مِنَ المُسْلِمِيْنَ إِلَى خَيْبَرَ لِيُفَاجِأَ اليَهُوْدَ بِغَزْوِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوْهُ، ويَأْخُذُوْا أُهْبَتَهُمْ لِذَلِكْ.

المَعَارِكُ الرَّهِيبَةُ

وهُنَاكَ جَرَتْ بَيْنَ المُسْلِمِيْنَ واليَهُودِ عِدَّةُ مَعَارِكَ، لَمْ يَحْظَ المُسْلِمُونَ فِي بَادِئِهَا بِأَدْنَى نَجَاحٍ، ذَلِكَ أَنَّ خَيْبَرَ كَانَ بِهَا عِدَّةُ حُصُوْنٍ وقِلَاعٍ، وأَهْلُهَا أَصْحَابُ بَأْسٍ وقُوَّةٍ.

ولَقَدْ تَسَاقَطَ العَدِيْدُ مِنْ شُهَدَاءِ المُسْلِمِيْنَ فِي تِلْكَ المَعَارِكِ ، وأَخِيْرًا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ وانْتَصَرُوا عَلَى اليَهُوْدِ وَدَمَّرُوا حُصُوْنَهُمْ وقِلَاعَهُمْ، وقَتَلُوْا الكَثِيْرَ مِنْهُمْ، وعَلَى رَأْسِهِمْ حُيَيُّ بنَ أَخْطَبَ وَالِدِ صَفِيَّةَ وكِنَانَةَ زَوْجُهَا، ووَقَعَ أَكْثَرُ اليَهُوْدِ أَسْرَى فِي يَدِ المُسْلِمِيْنَ، وكَانَ مِنْ بَيْنِهِمْ صَفِيَّةُ.

صَفِيَّةُ ورَسُولُ اللهِ ﷺ

تَنَافَسَ بَعْضُ المُسْلِمِيْنَ عَلَى صَفِيَّةَ أَيُّهُمْ تَكُونُ لَهُ خَالِصَةً مِنْ دُوْنِ النَّاسِ، وكَادَ تَنَافُسُهُمْ يُؤَدِّي إِلَى قِتَالٍ وشِجَارٍ، لِأَنَّهَا رضي الله عنها كَانَتْ كَمَا عَلِمْتَ ذَاتَ جَمَالٍ سَاحِرٍ، وحُسْنٍ بَاهِرٍ .

سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ فَأَرَادَ أَنْ يَحْسِمَ الأَمْرَ حَتَّى لَا تَكُونَ «المَرْأَةُ» أَيَّةُ امْرَأَةٍ سَبَبًا مِنْ أَسْبَابِ النِّزَاعِ والضَّيَاعِ.

فَبَادَرَ إِلَى «دِحْيَةَ الكَلْبِيِّ» رضي الله عنه وأَعْطَاهُ مِنَ المَالِ مَا يُقْنِعُهُ ويُرْضِيهِ، ثُمَّ اِصْطَفَى صَفِيَّةَ لِنَفْسِهِ وحَسَمَ الخِلَافَ بِحِكْمَتِهِ.

إِسْلَامُهَا وزَوَاجُهَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ

وعَرَضَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ الإِسْلَامَ والعِتْقَ، وكَانَ مِمَّا قَالَهُ لَهَا:

ـ اِخْتَارِي...، فَإِنْ اِخْتَرْتِ الإِسْلَامَ أَمْسَكْتُكِ لِنَفْسِي، وإِنْ اخْتَرْتِ اليَهُودِيَّةَ، فَعَسَى أَنْ أُعْتِقَكِ، فَتَلْحَقِيْ بِقَوْمِكِ.

فَقَالَتْ رضي الله عنها:

ـ يَا رَسُولَ اللهِ... لَقَدْ هَوِيْتُ الإِسْلَامَ، وصَدَّقْتُ بِكَ قَبْلَ أَنْ تَدْعُونِي حَيْثُ صِرْتُ إِلَى رَحْلِكَ، ومَا لِيَ فِي اليَهُودِيَّةِ أَرَبٌ ومَا لِيَ فِيْهَا وَالِدٌ ولَا أَخٌ، وخَيَّرْتَنِيْ الكُفْرَ والإِسْلَامَ فاللهُ ورَسُوْلُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ العِتْقِ وأَنْ أَرْجِعَ إِلَى قَوْمِيْ.

فَأَسْلَمَتْ، فَأَعْتَقَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وجَعَلَ عِتْقَهَا مَهْرَهَا، ثُمَّ رَأَى بِوَجْهِهَا أَثَرَ خُضْرَةٍ قَرِيبًا مِنْ عَيْنِهَا فَقَالَ: مَا هَذَا ؟ فَقَصَّتْ عَلَيْهِ قِصَّةَ الرُّؤْيَا وضَرْبِ كِنَانَةَ زُوْجِهَا لَهَا.

المُحِبَّةُ الوَاعِيَةُ

خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ خَيْبَرَ باتِّجَاهِ المَدِيْنَةِ ولَمْ يُعَرِّسْ بِهَا، وقَدْ أَرْدَفَهَا وراءَهُ عَلَى بَعِيْرِهِ وشَدَّهَا بِثَوْبِهِ وجَعَلَهَا مِنْ خَاصَّةِ نِسَائِهِ.

فَلَمَّا صَارَ إِلَى مَنْزِلٍ يُقَالُ لَهُ «تَبَارُ» عَلَى سِتَّةِ أَمْيَالٍ مِنْ خَيْبَرَ مَالَ ﷺ يُرِيْدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا، فَأَبَتْ عَلَيْهِ، فَوَجِدَ فِي نَفْسِهِ.

فَلَمَّا كَانَ بِالصَّهْبَاءِ، بَعْدَ ذَلِكَ، قَالَ لِأُمِّ سُلَيْمٍ:

ـ عَلَيْكُنَّ صَاحِبَتَكُنَّ فَأَمْشِطْنَهَا.

قَالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ:

ـ ولَيسَ مَعَنَا فِسْطَاطٌ ولَا سُرَادِقَاتٌ، فَأَخَذْتُ كِسَائَيْنِ، فَسَتَرْتُ بَيْنَهُمَا إِلَى شَجَرَةٍ، فَمَشَّطْتُهَا وعَطَّرْتُهَا.

وكَانَتْ جَارِيَةً تَأْخُذُ الزِّيْنَةَ مِنْ أَوْضَأِ مَا يَكُونُ النِّسَاءُ، ومَا وُجِدَتْ رَائِحَةَ طِيْبٍ كَانَ أَطْيَبَ مِنْ لَيْلَتِئِذٍ.

وأَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَمْشِي إِلَيْهَا فَقَامَتْ إِلَيْهِ وبِذَلِكَ أَمرْنَاهَا فَخَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِمَا، وأَعْرَسَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ.

وسَأَلْتُهَا عَمَّا رَأَتْ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَذَكَرَتْ أَنَّهُ سُرَّ بِهَا، ولَمْ يَنَمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، ولَمْ يَزَلْ يَتَحَدَّثُ مَعَهَا وقَالَ لَهَا:

ـ مَا حَمَلَكِ عَلَى الذِي صَنَعْتِ حِيْنَ أَرَدْتُ أَنْ أَنْزِلَ المَنْزِلَ الأَوَّلَ وأَدْخُلَ بِكِ؟

فَقَالَتْ:

ـ خَشِيْتُ عَلَيْكَ قُرْبَ يَهُوْدَ.

فَزَادَهَا ذَلِكَ عَنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَحَبَّةً وتَقْدِيْرَاً.

لَقَدْ أَصْبَحَتْ صَفِيَّةُ رضي الله عنها فِي مُدَّةٍ وَجِيْزَةٍ، بَيْنَ عَشِيَّةٍ وضُحَاهَا مُؤْمِنَةً مُحِبَّةً.

تَغَلْغَلَ الإِيْمَانُ إِلَى أَعْمَاقِ قَلْبِهَا، وامْتَلَكَ حُبُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَاصِيَةَ فُؤَادِهَا ووِجْدَانِهَا.

فَبَاتَتْ تَخْشَى عَلَيْهِ، وعَلَى دَعْوَتِهِ ودِيْنِهِ مِنْ أَذَى قَومِهَا اليَهُوْدِ لِأَنَّهَا تَعْرِفُ مَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ نُفُوسُهُمْ مِنَ الغَدْرِ والغِيْلَةِ.

فِي الطَّرِيقِ إِلى المَدِيْنَةِ

حَدَّثَ أَنَسُ بنُ مَالِكٍ قَالَ:

أَقْبَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَا وَ أَبُو طَلْحَةَ وصَفِيَّةُ رضي الله عنها رَدِيْفَتُهُ عَلَى نَاقَتِهِ، فَبَيْنَمَا نَحْنُ نَسِيْرُ عَثَرَتْ نَاقَةُ رَسُولِ اللهِ، فَصُرِعَ وصُرِعَتِ المَرْأَةُ، فَاقْتَحَمَ أَبُو طَلْحَةَ عَنْ رَاحِلَتِهِ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ:

ـ يَا نَبِيَّ اللهِ هَلْ ضَارَّكَ شَيْءٌ؟

قَالَ: لَا... عَلَيْكَ بِالمَرْأَةِ.

فَأَلْقَى أَبُو طَلْحَةَ ثَوْبَهُ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ قَصَدَ المَرْأَةَ فَنَبَذَ الثَّوْبَ عَلَيْهَا، فَقَامَتْ، فَشَدَّهَا عَلَى رَاحِلَتِهِ فَرَكِبَ ورَكِبْنَا نَسِيْرُ حَتَّى إِذَا كُنَّا بِظَهْرِ المَدِيْنَةِ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

ـ آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُوْنَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ، فَلَمْ نَزَلْ نَقُوْلُهَا حَتَّى قَدِمْنَا المَدِيْنَةَ.

إِنَّهُ لَنَشِيْدٌ كَرِيْمٌ تَنْضَحُ عِبَارَاتُهُ القَلِيْلَةُ بِالمَعْنَى الكَبِيْرِ.

عَائِشَةُ الغَيُورَةُ

ويُرْوَى أَنَّهُ لَمَّا اجْتَلَى النَّبِيُّ ﷺ صَفِيَّةَ رَأَى عَائِشَةَ وَسَطَ النَّاسِ، وكَانَ

ذَلِكَ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ حَارِثَةَ بنِ النُّعْمَانِ الذِي احْتَشَدَ بِنِسَاءِ الأَنْصَارِ القَادِمِيْنَ لِرُؤْيَةِ صَفِيَّةَ وجَمَالِهَا وحُسْنِهَا الذِي طَبَّقَ الآفَاقَ.

فَقَالَ لِعَائِشَةَ:

ـ كَيفَ رَأَيْتِهَا يَا عَائِشَةُ؟

فَقَالَتْ:

ـ رَأَيْتُ يَهُوْدِيَّةً...

فَقَالَ ﷺ:

ـ لَا تَقُولِي هَذَا يَا عَائِشَةُ فَإِنَّهَا قَدْ أَسْلَمَتْ وحَسُنَ إِسْلَامُهَا.

ولَقَدْ حَدَثَ مِنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَكْثَرُ مِنْ حَادِثٍ يَدُلُّ عَلَى غَيْرَتِهَا الشَّدِيْدَةِ مِنْ صَفِيَّةَ.

مَكَانَتُهَا بِيْنَ أَزْوَاجِهِ ﷺ

وكَانَ مِنْ حُسْنِ أَخْلَاقِهِ، وعَظِيْمِ حِكْمَتِهِ ﷺ أَنْ أَنْزَلَ صَفِيَّةَ مِنْ قَلْبِهِ ونَفْسِهِ وأَهْلِهِ مَنْزِلَاً كَرِيْمَاً طَيِّبَاً، فَقَدْ كَانَتْ ابْنَةَ زَعِيْمِ قَوْمِهَا، وكَانَتْ رَضِيَّةَ الأَخْلَاقِ، كَرِيْمَةَ الصِّفَاتِ، وكَانَتْ ذَاتَ حُسْنٍ وبَهَاءٍ، وأَيْضَاً قَدْ أَسْلَمَتْ واخْتَارَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَالأَوْلَى أَنْ تُكَافَأَ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ، وتُقَدَّرَ مِنْ أَجْلِهِ.

كَانَ إِذَا خَرَجَ لِغَزْوَةٍ يَغْزُوهَا يُقْرِعُ بَيْنَ نِسَائِهِ، ومِنْهُنَّ صَفِيَّةُ وَيُسهِمُ لَهَا كَمَا يُسْهِمُ لَهُنَّ مِنَ الغَنِيْمَةِ، ويَقْسِمُ لَهَا كَمَا يَقْسِمُ لَهُنَّ.

ويُرْوَى أَنَّهُ أَقْسَمَ لَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ وأَطْعَمَهَا ثَمَانِيْنَ وَسْقَاً تَمْرَاً، وعِشْرِيْنَ وَسْقَاً شَعِيْرَاً أَوْ قَمْحَاً.

الصَّادِقَةُ فِي حُبِّهَا

حَدَّثَ زَيْدُ بنُ أَسْلَمَ قَالَ:

ـ إِنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ كَانَ فِي الوَجَعِ الذِي تُوُفِّيَ فِيْهِ، فَاجْتَمَعَ نِسَاؤُهُ، فَقَالَتْ صَفِيَّةُ:

ـ أَمَا واللهِ يَا نَبِيَّ اللهِ لَوَدِدْتُ أَنَّ الذِي بِكَ بِي.

فَغَمَزْنَهَا (أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ)، وأَبْصَرَهُنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَال لُهُنَّ:

ـ مَضْمِضْنَ...

فَقُلْنَ:

ـ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَا رَسُولَ اللهِ ؟

فَقَالَ:

ـ مِنْ تَغَامُزِكُنَّ بِصَاحِبَتِكُنَّ، واللَّهِ إِنَّهَا لَصَادِقَةٌ.

بَعْدَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ

أَقَامَتْ رضي الله عنها بَعْدَ لُحُوْقِ النَّبِيِّ الكَرِيْمِ بِالرَّفِيْقِ الأَعْلَى فِي خَاصَّةِ دَارِهَا، عَابِدَةً تُصَلِّيْ وتَصُومُ وتَقُومُ وتَفْعَلُ الخَيْرَ، وتَبْذُلُ مِنْ ذَاتِ يَدِهَا كُلَّ مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ.

وكَانَ صَحَابَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُقَدِّرُونَهَا وَفَاءً مِنْهُمْ لِنَبِيِّهِمْ ويَحْتَرِمُونَهَا إِخْلَاصاً مِنْهُمْ لِشُعُورِهِ ﷺ مِنْ حُبِّهِ لِصَفِيَّةَ التِي آمَنَتْ وأَسْلَمَتْ صَادِقَةً.

فَكَانُوا يَزُورُنَهَا فِي بَيْتِهَا، ويَسْأَلُوْنَهَا حَاجَتَهَا، ويُقَدِّمُونَ لَهَا كُلَّ مَا يَلْزَمُ، إِنِ احْتَاجَتْ لِأَمْرٍ أَو شَيْءٍ، مِنَ الشُّؤُونِ الدُّنْيَوِيَّةِ، ويُجِلُّونَهَا فِي رَأْيِهَا وَيَسْتَشِيرُونَهَا إِذَا مَا حَزَبَ أَمْرٌ.

الخَلِيْفَتَانِ الشَّيْخَانِ

وعَلَى الخُصُوصِ الخَلِيْفَتَيْنِ الشَيْخَيْنِ الصِدِّيْقُ والفَارُوقُ رُغْمَ أَنْ ابْنَتَيْهِمَا فِي حِزْبٍ مُنَاهِضٍ لِصَفِيَّةَ، لِأَنَّ حَقَّ الوَفَاءِ عَلَيْهِمَا لِنَبِيِّهِمَا أَغْلَى وأَعْلَى.

وهَذَا مُنْتَهَى التَجَرُّدِ مِنَ رَجُلَيْنِ كَرِيْمَيْنِ عَادِلَيْنِ، خَلَفَا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ، وأَوْلَى بِهِمَا أَنْ يُعْطِيَا المَثَلَ فِي خَاصَّتِهِمَا وأَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِمَا.

إِدِّعَاءٌ بَاطِلٌ

رَوَتْ أُمُّ سِنَانَ الأَسْلَمِيَّةَ قَالَتْ:

ـ لَمَّا نَزَلْنَا المَدِيْنَةَ (بَعْدَ القُدُومِ مِنْ خَيْبَرَ) لَمْ نَدْخُلْ مَنَازِلَنَا حَتَّى دَخَلْنَا مَعَ صَفِيَّةَ مَنْزِلَهَا.

وسَمِعَ بِهَا نِسَاءُ المُهَاجِرِيْنَ والأَنْصَارِ، فَدَخَلْنَ عَلَيْهَا مُتَنَكِّرَاتٍ فَرَأَيْتُ أَرْبَعَاً مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ مُتَنَقِّبَاتٍ: زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ وحَفْصَةُ بِنتُ عَمَرَ ابنِ الخَطَّابِ وعائِشَةُ بِنتُ أَبِي بكْرٍ الصِدِّيقُ وجُوَيْرِيَةُ بِنتُ الحَارِثِ.

فَأَسْمَعُ زَيْنَبَ تَقُولُ لِجُوَيْرِيَةَ:

ـ يَا بِنْتَ الحَارِثِ مَا أَرَى هَذِهِ الجَارِيَةَ إِلَا سَتَغْلِبُنَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَقَالَتْ جُوَيْرِيَةُ:

ـ كلَّا...إِنَّهَا مِنْ نِسَاءٍ قَلَّمَا يَحْظَيْنَ عِنْدَ الأَزْوَاجِ. فَهَلْ كَانَ قَوْلُ جُوَيْرِيَةَ رضي الله عنها صَحِيْحَاً ؟ وإِلَى أَيِّ مَدَى ؟

لَقَدْ مَرَّ بِنَا مِنَ المَوَاقِفِ والصُّوَرِ والمَشَاهِدِ والمَآثِرِ مَا يَجْعَلُ هَذَا القَوْلَ بَاطِلَاً مَرْدُودَاً.

وخُصُوْصَاً عِنْدَمَا كَانَ ﷺ فِي مَرَضِ مَوْتِهِ، وفِي أَيَّامِهِ الأَخِيْرَةِ، إِذْ شَهِدَ لِصَفِيَّةَ رضي الله عنها بِأَنَّهَا حَسَنَةُ الإِسْلَامِ والإِيْمَانِ، وطَلَبَ إِلَى المُتَغَامِزَاتِ مِنْ

نِسَائِهِ أَنْ يُمَضْمِضْنَ أَفْوَاهَهُنَّ لِأَنَّهُنَّ قَدْ قُلْنَ قَوْلاً فِيْهِ كَثِيْرٌ مِنَ البُهْتَانِ والاتِّهَامِ، فَعَلَيْهِنَّ أَنْ يُطَهِّرْنَ تِلْكَ الأَفْوَاهَ، ويُنَزِّهْنَهَا إِلَّا عَنْ قَوْلَةِ الحَقِّ والصِدْقِ.

لَقَدْ حَافَظَتْ صَفِيَّةُ رضي الله عنها بِصِدْقِ عَاطِفَتِهَا وصِدْقِ إِيْمَانِهَا عَلَى حُبِّ النَّبِيِّ العَظِيْمِ لَهَا، حَتَّى آخِرِ رَمَقٍ مِنْ حَيَاتِهِ ﷺ.

ونَحْنُ إِنَّمَا يَهُمُّنَا أَمْرَانِ:

ـ شَهَادَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي صِدْقِ إِيْمَانِ وإِسْلَامِ صَفِيَّةَ رضي الله عنها ولَا نُلْقِيْ بَالاً بَعْدَ ذَلِكَ لِمَا يَتَقَوَّلُ المُتَقَوِّلُونَ بِحُسْنِ نِيَّةٍ أَوْ سُوْءِ نِيَّةٍ.

والأَمْرُ الثَّانِي سُلُوكُهَا الحَيَاتِيُّ، فَقَدْ كَانَتْ مِثَالاً حَيًّا لِلمُؤْمِنَةِ التَّقِيَّةِ، والمُسْلِمَةِ الصَّادِقَةِ.

فَالدَّلِيْلَانِ قَدْ تَوَفَّرَا عَلَى سُمُوِّ اِسْتِقَامَةِ أُمِّ المُؤْمِنِيْنَ صَفِيَّةَ رضي الله عنها.

الوَصِيَّةُ والوَفَاةُ

رَوَى أَبُو سَلَمَةَ بنُ عَبْدِ الرحْمَنِ قَالَ:

ـ وَرَّثَتْ صَفِيَّةُ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ بِقِيْمَةِ أَرْضٍ وعَرضٍ، فَأَوْصَتْ لِابْنِ أُخْتِهَا وهُوَ يَهُودِيٌّ، بِثُلُثِهَا.

فَـأَبَوْا أَنْ يُعْطُوا ويُنَفِّذُوا وَصِيَّةَ صَفِيَّة، وكَانَتْ لَا تَزَالُ عَلَى قَيْدِ الحَيَاةِ، فَكَلَّمَتْ فِي ذَلِكَ عَائِشَةَ رضي الله عنها فَأَرْسَلَتْ إِلَى مَنْ يَعْنِيهِمُ الأَمْرُ تَقُولُ:

ـ اِتَّقُوْا اللهَ وأَعْطُوْهُ وَصِيَّتَهُ.

فَأَخَذَ ثُلُثَهَا، (أَي الوَصِيَّةَ) وكَانَتْ لَهَا دَارٌ تَصَدَّقَتْ بِهَا فِي حَيَاتِهَا.

ولَمَّا كَانَ العَامُ الثَّانِيْ والخَمْسُوْنَ مِنَ الهِجْرَةِ، وكَانَتْ صَفِيَّةُ رضي الله عنها قَدْ جَاوَزَتِ العَقْدَ السَّادِسَ مِنْ العُمْرِ اِعْتَلَّتْ، ثُمَّ وَهَنَتْ وعَانَتْ مِنْ أَعْرَاضِ المَرَضِ، ثُمَّ وَافَاهَا الأَجَلُ، وكَانَ ذَلِكَ فِي خِلَافَةِ مُعَاوِيَةَ بنِ أَبِي سُفْيَانَ، ودُفِنَتْ فِي البَقِيعِ.

رَضِيَ اللهُ عَنْ أُمِّ المُؤْمِنِيْنَ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيِّ بنِ أَخْطَبَ وتَقَبَّلَهَا بِقَبُوْلٍ حَسَنٍ، وبَوَّأَهَا مِنْ لَدُنْهُ أَسْمَى وأَرْفَعَ دَرَجَاتِ النَّعِيْمِ، وأَلْحَقَنَا بِهَا فِي الصَّالِحِيْنَ مِنْ عِبَادِهِ.

❊ ❊ ❊

أم حَرَامٌ بنت ملحانٌ
(رضي الله عنها)

قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّ�ٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (التَّوبَة:100).

وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

ـ إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يَقْبَلُ مِنَ العَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصاً، وابْتُغِيَ بِهِ وجْهُهُ.

نَسَبُهَا ونَشْأَتُهَا

هِيَ أُمُّ حَرَامٍ بِنْتُ مِلْحَانَ. وأُمُّهَا مَلِيْكَةُ بِنْتُ مَالِك.

فَهِيَ مِنْ نَاحِيَةِ الأَبِ ومِنْ نَاحِيَةِ الأُمِّ يَلْتَقِي نَسَبُهَا بِبَنِيْ النَّجَّارِ، أَخْوَالِ النَّبِيِّ ﷺ.

وهِيَ خَالَةُ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، فَهِيَ أُخْتُ أُمِّ سُلَيْم زَوْجِ أَبِيْ طَلْحَةَ، وصَاحِبَةُ الشَّأَنِ والذِّكْرِ، والمُقَدَّمَةُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وكَذَلِكَ كَانَتْ أُخْتُهَا أُمُّ حَرَامٍ.

خِطْبَتُهَا

شَبَّتْ أُمُّ حَرَام فِي ظِلِّ جَوٍّ كَرِيْم، طَيِّبَةَ المَحْتِدِ، كَرِيْمَةَ الأُصُولِ، ولَقِيَتْ مُنْذُ حَدَاثَتِهَا عِنَايَةً ورِعَايَةً، عُرِفَ بِهِمَا بَنُو النَّجَّارِ، حَتَّى بَلَغَتْ أَشُدَّهَا ونَضِجَتْ واسْتَوَتْ عَلَى سُوْقِهَا، فَتَاةً تَرْغَبُ الشُّبَّانُ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ فِي الاِقْتِرَانِ بِهَا، والعَيْشِ مَعَهَا.

وتَقَدَّمَ عُبَادَةُ بنُ الصَّامِتِ فَتَى عَمْرِو بنِ عَوْفٍ مِنَ الخَزْرَجِ لِخِطْبَتِهَا فَزَوَّجَهَا أَبُوهَا مِنْهُ، فَكَانَ نِعْمَ القَرِينُ.

ولَا يَفُوْتُنَا ونَحْنُ نُتَرْجِمُ لِأُمِّ حَرَام أَنْ نَذْكُرَ رَفِيقَ عُمْرِهَا «عُبَادَةُ» رضي الله عنه، فَهُوَ الذي إِذَا مَا ذُكِرَتْ ذُكِرَ مَعَهَا، لِفَضْلِهِ ومَكَانَتِهِ وسَبْقِهِ إِلَى الإِسْلَامِ والإِيْمَانِ.

فَقَدْ سَمِعَ رضي الله عنه بِظُهُورِ نَبِيٍّ فِي مَكَّةَ يُدْعَى مُحَمَّدٌ بنُ عَبْدِ اللهِ، يَدْعُو إِلَى نَبْذِ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ والأَصْنَامِ، والتَّوَجُّهِ إِلَى عِبَادَةِ الوَاحِدِ الدَّيَّانِ، وإِلَى تَرْكِ كُلِّ عَادَةٍ قَبِيْحَةٍ ذَمِيْمَةٍ دَرَجَ عَلَيْهَا مُجْتَمَعُ الجَاهِلِيَّةِ، وإِلَى عَدَمِ التَّفْرِيْقِ بَيْنَ خَلْقِ اللهِ، فَلَا أَحْسَابَ ولَا أَنْسَابَ، ولَا سَادَةَ ولَا عَبِيْدَ، إِلَّا مُؤْمِنِيْنَ أَوْ مُشْرِكِيْنَ، ولَا مِيْزَةَ لِإِنْسَانٍ إِلَّا بِالإِيْمَانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ.

فَأُعْجِبَ عُبَادَةُ بِذَلِكَ، وسَعَى إِلَى مَكَّةَ مَعَ السَّاعِيْنَ مِنْ أَبْنَاءِ الأَوْسِ

والخَزْرَجِ، خُصُوْصَاً الذِيْنَ تَأَثَّرُوا ودَخَلَ الإِيْمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ جَرَّاءِ مَا سَمِعُوا مِنْ إِخْوَانِهِمُ الذِيْنَ سَبَقُوْهُمْ فِي عَامٍ مَضَى.

وكَانَ عُبَادَةُ وَاحِداً مِنْ بَيْنِ وَفْدٍ كَبِيْرٍ تَجَاوَزَ السَّبْعِيْنَ مِنَ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ، فَبَايَعُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ بَيْعَةَ العَقَبَةِ الثَّانِيَةِ، كَمَا كَانَ وَاحِداً مِنَ النُّقَبَاءِ الذِيْنَ اخْتَارَهُمْ ﷺ، وكَانُوْا اِثْنَيْ عَشَرَ نَقِيْبَاً...

اللِقَاءُ

وعَادَ عُبَادَةُ إِلَى المَدِيْنَةِ، مُزَوَّدَاً بِالدِّيْنِ المَتِيْنِ، وبِقُوَّةِ اليَقِيْنِ، وبِإِخْلَاصِ القَلْبِ للهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ.

ونَفَحَ زَوْجَتَهُ أُمَّ حَرَامٍ مِنْ فَيْضِ مَا تَلَقَّاهُ مِنَ الحَبِيْبِ المُصْطَفَى ﷺ، وحَدَّثَهَا بِمَا شَاهَدَ ورَأَى وسَمِعَ، فَتَشَوَّفَتْ وتَشَوَّقَتْ لِلَقَاءِ النَّبِيِّ الكَرِيْمِ، فِي اليَوم المُنْتَظَرِ، يَوْمِ قُدُومِهِ إِلَى يَثْرِبَ مُهَاجِرَاً.

وظَلَّتْ رضي الله عنها فِي لَهْفَةٍ وحَرَارَةِ شَوْقٍ حَتَّى قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى يَثْرِبَ، وقَدْ سَبَقَهُ كَثِيْرٌ مِنْ إِخْوَانِهِ إِلَيْهَا.

ومُنْذُ وَطِئَتْ قَدَمَاهُ الشَّرِيفَتَانِ أَرْضَ يَثْرِبَ تَحَوَّلَ اِسْمُهَا عِنْدَ الجَمِيْعِ إِلَى «المَدِيْنَةِ المُنَوَّرَةِ».

ولَقَدْ كَانَ ـ كَمَا وَرَدَ فِي السِّيْرَةِ ـ أَوَّلُ نُزُولِهِ فِي قُبَاءَ، ﷺ، وكَانَتْ قُبَاءُ سَكَنَاً ومَقَامَاً لِبَنِيْ عَمْرو بنِ عَوْفٍ مِنْ أَهْلِ المَدِيْنَةِ، مِنْ هُنَا جَاءَتْ شُهْرَةُ هَؤُلَاءِ فِيْ اسْتِضَافَتِهِمْ لِلْمُسْلِمِيْنَ المُهَاجِرِيْنَ.

وكَانَ سَكَنُ أُمِّ حَرَامٍ هُنَاكَ مَعَ زَوْجِهَا عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ رضي الله عنهما.

ولَا تَسَلْ ـ قَارِئِي العَزِيْزَ ـ عَنْ فَرَحِ أُمِّ حَرَامٍ وسُرُورِهَا الشَّدِيْدَيْنِ، بِلِقَاءِ النَّبِيِّ ﷺ، إِذْ كَانَتْ بِحُكْمِ مَوْقِعِ مَنْزِلِهَا ، وبِدَافِعٍ مِنْ شَوْقِهَا مِنْ أَوَائِلِ الذَيْنَ اسْتَقْبَلُوهُ، واسْتَشْرَفُوْا طَلْعَتَهُ ونُورَهُ، وحَظُوْا بِبَرَكَتِهِ الشَّرِيْفَةِ.

ولَقَدْ عَرَفَ ﷺ لِأُمِّ حَرَامٍ فَضْلَهَا ومَكَانَتَهَا، وحِرْصَهَا عَلَى التَّفَقُّهِ والتَّعَلُّمِ، والتَّعَلُّقِ بِأَهْدَابِ الدِيْنِ، كَمَا عَرَفَ لَهَا جِهَادَهَا فِي سَبِيْلِ اللهِ.

ولَكَمْ خَرَجَتْ مَعَ بَعْضِ نِسَاءِ المُسْلِمِيْنَ فِي غَزَوَاتِ النَّبِيِّ ﷺ، أَوْ سَرَايَاهُ، مُشَارِكَةً بِمَا قُدِّرَ لَهَا مِنْ خِدْمَةِ الجُنُوْدِ والمُقَاتِلَةِ، تُسْعِفُ جَرْحَاهُمْ، وتَسْقِيْ عَطْشَاهُمْ، وتُدَاوِيْ مَرْضَاهُمْ، وتُشَجِّعُ فُرْسَانَهُمْ.

ولَقَدْ كَانَتْ كَالظِّلِّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى زَوْجِهَا عُبَادَةَ رضي الله عنهما لَا تُفَارِقُهُ أَبَدَاً، أَيْنَمَا ارْتَحَلَ أَوْ حَلَّ، فِي جِهَادٍ وغَزْوٍ.

مَنْزِلَتُهَا عِنْدَ النَّبِيِّ

ويُحَدِّثُنَا التَّارِيخُ أَنَّ «قُبَاءَ»، ضَاحِيَةُ المَدِيْنَةِ المُخْضَوْضِرَةِ الزَّاهِيَةِ، كَانَ لَهَا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَحَبَّةٌ، ومَقَامٌ كَرِيْمٌ، فَكَانَ يَأْتِيْهَا فِي أَيَّامٍ مُعَيَّنَةٍ، بَعْدَ العَصْرِ مُتَوَضِّئًا، ثُمَّ يُصَلِّيْ فِيْهَا المَغْرِبَ.

وكَانَ كَثِيْرًا مَا يَنْزِلُ فِي بُيُوتِ أَصْحَابِهِ وإِخْوَانِهِ، الذِيْنَ كَانُوْا يَتَسَابَقُوْنَ إِلَى الفَوْزِ بِهَذَا الشَّرَفِ، فَيُقِيْلُ عِنْدَهُمْ، أَوْ يُجَالِسُهُمْ فَيُحَدِّثُهُمْ، حَدِيْثَهُ العَذْبَ الطَّلِيَّ.

وكَانَ بَيْتُ أُمِّ حَرَامٍ رضي الله عنها مِنْ أَكْثَرِ البُيُوتِ فِي قُبَاءَ حُظْوَةً بِالرَسُولِ الأَمِيْنِ ﷺ.

رُكُوْبُ البَحْرِ

وفِيْ ذَاتِ يَوْمٍ، وبَعْدَ أَنْ نَالَ مِنْ طَعَامِ أُمِّ حَرَامٍ أَغْفَى قَلِيْلًا، فَمَدَّتْ يَدَهَا وهُوَ مُسْتَغْرِقٌ فِيْ قَيْلُولَتِهِ، إِلَى رَأْسِهِ تُفَلِّيْهِ.

ولَمْ يَمْضِ طَوِيْلُ وَقْتٍ حَتَّى اسْتَيْقَظَ ﷺ ضَاحِكًا، فَاسْتَغْرَبَتْ أُمُّ حَرَامٍ وقَالَتْ:

ـ يَا نَبِيَّ اللهِ، بِأَبِي أَنْتَ وأُمِّي، مِمَّ تَضْحَكُ؟

فَقَالَ:

ـ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِيْ يَرْكَبُوْنَ هَذَا البَحْرَ، كَالمُلُوكِ عَلَى الأَسِرَّةِ.

فَقَالَتْ:

ـ يَا رَسُولَ اللهِ... أُدْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِيْ مِنْهُمْ.

قَالَ:

ـ أَنْتِ مِنْهُمْ.

ثُمَّ غَلَبَهُ النَّومُ ثَانِيَةً، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ كَانَ كَالمَرَّةِ الأُولَى ضَاحِكَاً مُسْتَبْشِرَاً، فَأَعَادَتْ أُمُّ حَرَام السُّؤَالَ، وهِيَ تَظُنُّ شَيْئَاً جَدِيْدَاً، فَقَالَتْ:

ـ يَا رَسُولَ اللهِ... مِمَّ تَضْحَكُ؟

فَقَالَ:

ـ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي يَرْكَبُوْنَ هَذَا البَحْرَ كَالمُلُوكِ عَلَى الأَسِرَّةِ.

فَلَمَّا رَأَتْ أُمُّ حَرَام أَنَّ الجَوَابَ هُوَ نَفْسُهُ، أَرَادَتْ أَنْ تَسْتَزِيْدَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ:

ـ يَا رَسُولَ اللهِ، أُدْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِيْ مِنْهُم...

فَقَالَ ﷺ:

ـ أَنْتِ مِنَ الأَوَّلِيْنَ.

مَوَاقِفُهَا

ومَرَّتِ الأَيَّامُ...

أَيَّامُ الجِدِّ والمُجَالَدَة، ومُقَارَعَةِ المُشْرِكِيْنَ والكَافِرِيْنَ مِنَ العَرَبِ! مِنْ بَدْرٍ إِلَى أُحُدٍ إِلَى الخَنْدَقِ إِلَى الفَتْحِ، مُرُوْرَاً بِـ «الحُدَيْبِيَةِ، وحُنَيْنٍ، والطَّائِفَ»...

وفِيْ كُلٍّ مِنْهَا كَانَ لِعُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ وزَوْجَتِهِ أُمِّ حَرَامٍ مَوَاقِفَ ومَشَاهِدَ، وبُطُوْلَاتٍ وَذِكْرَيَاتٍ.

حَتَّى لَحِقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بالرَّفِيْقِ الأَعْلَى، وتَوَلَّى الصِّدِّيْقُ رضي الله عنه الخِلَافَةَ مِنْ بَعْدِهِ، فَأَدَّتْ أُمُّ حَرَامٍ نَحْوَ اللهِ ورَسُولِهِ والمُؤْمِنِيْنَ، وحَفِظَتْ عَهْدَ النَّبِيِّ ﷺ فِيْ كِتَابِهِ وسُنَّتِهِ، وسَاهَمَتْ مَعَ زَوْجِهَا رضي الله عنهما فِيْ حِفْظِ التُّرَاثِ النَّبَوِيِّ الشَرِيْفِ مِنَ الحَدِيْثِ والسُّنَّةِ.

فَكَانَتْ عِنْدَ عُرُوْضِ أَمْرٍ أَوْ حَادِثَةٍ تُذَكِّرُ بِمَا سَمِعَتْهُ ووَعَتْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

العَهْدُ

ثُمَّ مَضَى عَهْدُ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه، وعُبَادَةُ بنُ الصَّامِتِ، وزَوْجَتُهُ تَتَقَدَّمُ بِهِمَا الأَيَّامُ، ولَكِنَّهُمَا دَائِمَاً فِيْ حَيَوِيَّةِ المُؤْمِنِ وفُتُوَّةِ المُسْلِمِ لَا تَقْعُدُ بِهِمَا شَيْخُوْخَةٌ أَوْ كِبَرُ سِنٍّ عَنْ اِسْتِمْرَارِيَّةِ الجِهَادِ والكِفَاحِ.

حَتَّى كَانَ زَمَنُ وعَهْدُ الخَلِيْفَةِ الثَّالِثِ عُثْمَانَ بنِ عَفَّانَ رضي الله عنه، وكَانَ عُبَادَةُ وأُمُّ حَرَامٍ قَدْ اتَّخَذَا مِنْ دِمَشْقَ مَقَامَاً ومُسْتَقَرَّاً، فَلَمَّا طَلَبَ مُعَاوِيَةُ بنُ أَبِيْ سُفْيَانَ وَالِيْ دِمَشْقَ، مِنَ الخَلِيْفَةِ ذِيْ النُّورَيْنِ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ وللمُسْلِمِيْنَ فِي رُكُوبِ البَحْرِ وغَزْوِ جَزِيْرَةِ قُبْرُصَ، ثُمَّ أَذِنَ لَهُ الخَلِيْفَةُ، دَاعِيَاً إِيَّاهُ فِي كِتَابِهِ الحِرْصَ عَلَى المُسْلِمِيْنَ.

عَنْدَئِذٍ، تَذَكَّرَتْ أُمُّ حَرَامٍ نُبُوْءَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وتَاقَتْ نَفْسُهَا إِلَى رُكُوبِ البَحْرِ، تَحْقِيْقَاً لِلْعَهْدِ والوَعْدِ، رُغْمَ أَنَّهَا كَانَتْ قَدْ شَاخَتْ وأَسَنَّتْ وبَلَغَتْ مِنَ الكِبَرِ عِتِيَّاً.

لَا حُبًّا فِي نُزْهَةٍ وارْتِحَالٍ، أَوْ فُسْحَةً وسِيَاحَةً فِي أَرْضِ اللهِ تَعَالَى، ولَا طَلَبَاً لِمَغْنَمٍ أَوْ مَكْسَبٍ دُنْيَوِيٍّ، وأَنَّى لَهَا ذَلِكَ وَقَدْ دَنَتْ، أَوْ جَاوَزَتْ خَرِيْفَ العُمُرِ، بَلْ رَغْبَةً فِي الجِهَادِ فِي سَبِيْلِ اللهِ.

غَزْوُ قُبْرُصَ

وأَلَحَّتْ عَلَى زَوْجِهَا عُبَادَةَ فِي المُرَافَقَةِ، وكَذَلِكَ عَلَى الوَالِي مُعَاوِيَةَ فِي الصُّحْبَةِ، ولَمْ يَكُنْ أَحَدُهُمَا لِيَرْفُضَ طَلَبَ الصَّحَابِيَّةِ الجَلِيْلَةِ صَاحِبَةِ المَقَامِ الرَّفِيْعِ والمَنْزِلَةِ السَّامِيَةِ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وخَرَجَتْ مَعَ الجَيْشِ الإِسْلَامِيِّ الغَازِي، مِنْ دِمَشْقَ بِاتِّجَاهِ السَّاحِلِ الشَّامِيِّ حَيْثُ تَنْتَظِرُ السُّفُنُ، ومَرَّتْ فِي جِبَالِ لُبْنَانَ العَالِيَةِ الشَّاهِقَةِ ثُمَّ دَلَفَتْ إِلَى السَّاحِلِ، وشَاهَدَتِ البَحْرَ لِلْمَرَّةِ الأُوْلَى فِيْ حَيَاتِهَا.

ورَكِبَتْ مَعَ زَوْجِهَا إِحْدَى السُّفُنِ التِي انْطَلَقَتْ مَعَ الأُسْطُولِ الإِسْلَامِيِّ الأَوَّلِ تَشُقُّ عُبَابَ المَاءِ...

وكَثِيْرَاً مَا جَلَسَتْ أُمُّ حَرَامٍ رضي الله عنها عِنْدَ حَافَّةِ السَّفِيْنَةِ تَرْقُبُ الأَمْوَاجَ العَالِيَةَ وَزَبَدَهَا الذِي يَعْلُو كَالبَهَاءِ، وتَتَدَثَّرُ مِنَ الرِّيَاحِ البَارِدَةِ الرَّطِبَةِ التِي تَلْفَحُ الوَجْهَ والجِسْمَ...

وتَعُوْدُ بِهَا الذِّكْرَيَاتُ إِلَى حَدِيْثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ:

ـ «نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي يَرْكَبُونَ هَذَا البَحْرَ كَالمُلُوكِ عَلَى الأَسِرَّةِ...»

فَتَرَى فِيْ نَفْسِهَا وَاحِدَةً مِنَ النَّاسِ تَعْلُو بِهَا السَّفِيْنَةُ ثُمَّ تَنْخَفِضُ كَأَنَّهَا الأُرْجُوْحَةَ، أَوْ سَرِيْرَ المَلِكِ الذِيْ يَهْتَزُّ بِهِ ويُهَدْهِدُه، فَتُصَلِّي وتُسَلِّمُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ.

ثُمَّ تَنْظُرُ حَوْلَهَا فَتَرَى فِيْ نَفْسِهَا أَيْضاً أَنَّهَا مِنَ الأَوَائِلِ، أَوَائِلِ المُسْلِمِيْنَ، وذَلِكَ بِبَرَكَةِ دُعَائِهِ ﷺ.

عِنْدَئِذٍ تُغْمِضُ عَيْنَيْهَا، وتَمْسَحُ عَبَرَاتِهَا، وتَنْظُرُ مِنْ ثَمَّ إِلَى البَعِيْدِ حَيْثُ الشُّقَّةُ قَدْ طَالَتْ بَيْنَهَا وبَيْنَ قَبْرِ الحَبِيْبِ المُصْطَفَى ﷺ، ولَوْ تَحَدَّثَتْ لَقَالَتْ:

ـ هَا أَنَا ذَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ رَكِبْتُ البَحْرَ مَعَ نَفَرٍ مِنْ أُمَّتِكَ، وهَا نَحْنُ كَالمُلُوكِ عَلَى الأَسِرَّةِ، وهَا أَنَا ذَا يَا رَسُولَ اللهِ فِي الأَوَّلِيْنَ مِنْهُمْ، صَدَقْتَ يَا رَسُولَ اللهِ. ولَقَدْ كَانَ مِنْ دَوَاعِي غَزْوِ جَزِيْرَةِ قُبْرُصَ، واضْطِلَاعِ مُعَاوِيَةَ بنِ أَبِيْ سُفْيَانَ وَالِي دِمَشْقَ بِهَذِهِ المُهِمَّةِ، أَنَّ الرُّوْمَ بَعْدَ هَزِيْمَتِهِمْ فِي جَمِيْعِ أَنْحَاءِ سُورِيَّةَ وبِلَادِ الشَّامِ، قَدْ اتَّخَذُوْا مِنْ جَزِيْرَةِ قُبْرُصَ قَاعِدَةً لَهُمْ، يَخْرُجُوْنَ مِنْهَا بِسُفُنِهِمْ إِلَى السَّوَاحِلِ الشَّامِيَّةِ، فَيَغْزُونَ المُدُنَ والثُّغُورَ، ويَنْهَبُوْنَ الأَرْزَاقَ والأَقْوَاتَ، ويُغِيْرُونَ عَلَى الحَامِيَاتِ الإِسْلَامِيَّةِ المَوْجُوْدَةِ هُنَاكَ.

فَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ تَطْهِيْرِ هَذِهِ القَاعِدَةِ البَحْرِيَّةِ، وتَحْرِيْرِهَا مِنْ سَيْطَرَةِ الرُّوْمِ، كَيْ تَظَلَّ الثُّغُوْرُ والمُدُنُ السَّاحِلِيَّةُ الشَّامِيَّةُ فِيْ أَمْنٍ وسَلَامٍ وطُمَأْنِيْنَةٍ.

ولَقَدْ طَلَبَ مُعَاوِيَةُ رضي الله عنه مِنْ مَلَّاحِيْ المُدُنِ البَحْرِيَّةِ وصُنَّاعِ السُّفُنِ أَنْ يُجَهِّزُوا

لَهُ أُسْطُوْلاً مِنْ عِدَّةِ سُفُنٍ لِيَغْزُوا بِهَا جَزِيْرَةَ قُبْرُصَ فِيْ طَائِفَةٍ مِنَ المُسْلِمِيْنَ مِنْ قُبَاءَ إِلَى قُبْرُصَ...!

الجِهَادُ

مِنْ قُبَاءَ فِيْ جَوْفِ الصَّحْرَاءِ، وبَيْنَ ثَنَايَا جِبَالِ الحِجَازِ، اِنْطَلَقَتْ أُمُّ حَرَامٍ رضي الله عنها، غَايَتُهَا اللهُ ورَسُولُهُ، ورِضْوَانٌ مُقِيْمٌ فِيْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ، لَا تَبْتَغِيْ عَرَضَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا، بَلْ أَجْرَ الآخِرَةِ، فَهُوَ أَخْلَدُ وأَبْقَى...

وهُنَاكَ... ، فِي عُرْضِ البَحْرِ حَطَّتْ أُمُّ حَرَامٍ رِحَالَهَا إِلَى الأَبَدِ، بَعْدَ أَنْ وَخَطَ الشَّيْبُ شَعْرَهَا، وجَفَّتْ عُرُوْقُ الحَيَاةِ فِي بَدَنِهَا، وتَقَوَّسَ ظَهْرُهَا...

نَزَلَتْ عَنْ ظَهْرِ السَّفِيْنَةِ مَعَ النَّازِلِيْنَ مُسْتَفْتِحَةً بِاسْمِ اللهِ، مُتَوَكِّلَةً عَلَى اللهِ، لَا تَدْرِيْ مِنْ أَمْرِ الغَيْبِ شَيْئًا

﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ ﴾

(لُقْمَان: 34).

ثُمَّ اِصْطَفَّ الجُنُوْدُ وتَهَيَّأُوْا لِلجِهَادِ، بَعْدَ أَنْ رُسِمَتْ خُطَّةُ الغَزْوِ والقِتَالِ.

اِسْتِشْهَادُهَا

وجِيْءَ لِأُمِّ حَرَام بِرَكُوْبِهَا كَيْ تَمْتَطِيْه، فَلَمَّا حَاوَلَتْ الصُّعُوْدَ إِلَى ظَهْرِ الدَّابَّةِ زَلَّتْ قَدَمُهَا، إِذْ لَمْ يَقْوَ جِسْمُهَا عَلَى الإِرْتِقَاءِ، فَسَقَطَتْ أَرْضَاً...

فَأَسْرَعَ إِلَيْهَا عُبَادَةُ رضي الله عنه وغَيْرُهُ مِنْ كِبَارِ الصَّحَابَةِ يُسْعِفُوْنَهَا، ولَكِنَّهَا لَفَظَتْ أَنْفَاسَهَا، وقَضَتْ نَحْبَهَا، بَاسِمَةَ الثَّغْرِ، ضَاحِكَةَ السِّنِّ، وَضَّاءَةَ الوَجْهِ.

فَاسْتَرْجَعَ الجَمِيْعُ، وقَامَ بَعْضُ النِّسْوَةِ بِغَسْلِهَا وتَكْفِيْنِهَا وتَطْيِيْبِهَا ودَفْنِهَا.

وكَانَ ذَلِكَ فِي العَامِ السَّابِعِ والعِشْرِيْنَ مِنْ هِجْرَةِ المُصْطَفَى ﷺ.

رَضِيَ اللهُ عَنْ أُمِّ حَرَام بِنْتِ مِلْحَانَ، المُسْلِمَةِ المُؤْمِنَةِ المُبَايِعَةِ، الزَّوْجَةِ الوَفِيَّةِ الصَّادِقَةِ، الصَّابِرَةِ المُجَاهِدَةِ، الغَازِيَةِ الشَّهِيدَةِ.

❊ ❊ ❊

رَيحَانَةُ

"بِنْتُ زَيْدٍ" رضي الله عنها

أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَتَعَايَشَ المُسْلِمُونَ واليَهُوْدَ فِي سَلَامٍ وأَمْنٍ واطْمِئْنَانٍ، فَعَقَدَ مَعَهُمُ العُقُوْدَ، وأَمْضَى بَيْنَهُ وبَيْنَهُمْ العُهُودَ والمَوَاثِيْقَ.

لَكِنَّ الطَّبْعَ اليَهُوْدِيَّ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَظْهَرَ ويَطْفُوَ عَلَى السَّطْحِ، مِنْ غَدْرٍ ونِفَاقٍ وحِقْدٍ.

ولَقَدْ لَقِيَ بَنُو قَيْنُقَاعٍ وبَنُو النَّضِيْرِ جَزَاءَهُم وِفَاقَاً، وتَمَّ إِجْلَاؤُهُمْ عَنِ المَدِيْنَةِ، والتَّخَلُّصِ مِنْ آثَامِهِمْ وبَقِيَ بَنُو قُرَيْظَةَ... حَتَّى حَانَ حِيْنُهُمْ.

نَسَبُهَا

ولَقَدْ سَعَى سَاعِيَهمْ إِلَى مَكَّةَ يُؤَلِّبُ قُرَيْشَاً ويَحُثُّهَا عَلَى قِتَالِ مُحَمَّدٍ ﷺ والمُسْلِمِيْنَ، ويَعِدُهُمْ بِمُنَاصَرَتِهِمْ وتَأْيِيْدِهِمْ.

وكَانَتْ رَيْحَانَةُ بِنْتُ زَيْدٍ مِنْ بَنِيْ النَّضِيْرِ، لَمْ تَجْلُ مَعَهُمْ عَنِ المَدِيْنَةِ، ولَمْ تُغَادِرْهَا، وسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّهَا كَانَتْ مُتَزَوِّجَةً مِنْ أَحَدِ رِجَالِ بَنِي قُرَيْظَةَ الذِيْنَ اِسْتَمَرُّوا فِي المَدِيْنَةِ مُقِيْمِيْنَ، وكَانَ اِسْمُ زَوْجِهَا: «الحَكَمُ».

وكَانَتْ كَمَا هُوَ مَشْهُوْرٌ عَنْهَا ذَاتَ حُسْنٍ وجَمَالٍ وَوَضَاءَةٍ، مُحِبَّةً لِزَوْجِهَا وَفِيَّةً لَهُ، تُحْسِنُ مُعَامَلَتَهُ، وتُبَالِغُ فِي طَاعَتِهِ والإِخْلَاصِ لَهُ.

وسَارَتْ بِهَا عَجَلَةُ الزَّمَنِ، ودَارَ بِهَا دُولَابُ الحَيَاةِ، وهِيَ لَا تَدْرِيْ مَا يُخَبِّئُهُ لَهَا القَدَرُ مِنَ الشَّرَفِ العَظِيْمِ، والمَكَانَةِ الرَّفِيْعَةِ السَّامِيَةِ.

وجَاءَتْ قُرَيْشٌ والأَحْزَابُ إِلَى المَدِيْنَةِ تُرِيْدُ أَنْ تُطْفِئَ نُورَ اللهِ، ولَكِنَّهُمْ فُوْجِئُوْا بِالخَنْدَقِ الذِيْ أَشَارَ بِحَفْرِهِ سَلْمَانُ الفَارِسِيُّ رضي الله عنه والمُسْلِمِيْنَ وَرَاءَهُ مُتَأَهِّبِيْنَ ومُسْتَعِدِّيْنَ لِلْقِتَالِ.

ولَقَدْ عَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِخِيَانَةِ بَنِيْ قُرَيْظَةَ ونَقْضِهِمُ العَهْدَ، وذُعِرَ أَكْثَرُ المُسْلِمِيْنَ مِنْ وُقُوْعِهِمْ بَيْنَ عَدُوَّيْنِ، الأَحْزَابِ مِنْ أَمَامِهِمْ واليَهُوْدِ مِنْ وَرَائِهِمْ، لَكِنَّ رَحْمَةَ اللهِ تَعَالَى تَجَلَّتْ عَلَى عِبَادِهِ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ المَشْهُودِ، واسْتَطَاعَ فَرْدٌ مِنَ المُسْلِمِيْنَ بِتَوْجِيْهٍ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ودُعَائِهِ لَهُ أَنْ يَفُكَّ التَّحَالُفَ بَيْنَ الأَعْدَاءِ، ويَصْرِفَ عَنِ المُؤْمِنِيْنَ كَيْدَ الكَافِرِيْنَ والمُشْرِكِيْنَ مَعًا.

وعَادَتْ قُرَيْشٌ والأَحْزَابُ بِخُفَّيْ حُنَيْنٍ لَمْ يَنَالُوْا خَيْرًا، وعَادَ المُسْلِمُوْنَ إِلَى المَدِيْنَةِ، وقَدْ أَذْهَبَ اللهُ عَنْهُمُ اليَأْسَ والخَوْفَ والشِّدَّةَ.

لَكِنْ... هَلْ يَمُرُّ غَدْرُ بَنِيْ قُرَيْظَةَ دُوْنَ تَأْدِيْبٍ أَوْ عِقَابٍ صَارِمٍ، جَزَاءَ مَا أَسْلَفَتْ أَيْدِيْهِمْ مِنَ النِّفَاقِ والبَغْضَاءِ وسُوْءِ العَهْدِ ؟

كَلَّا... أَبَدًا....

الأَسِيْرَةُ

فَبَيْنَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي دَارِهِ يَغْتَسِلُ لِيُزِيْلَ عَنْهُ وَعْثَاءَ وغُبَارَ الأَيَّامِ السَّالِفَةِ، أَيَّامِ حِصَارِ الخَنْدَقِ، قُرِعَ بَابُ دَارِهِ، فَأَسْرَعَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها لِتَرَى مِنْ بِالبَابِ، فَإِذَا فَارِسٌ يَعْتَلِيْ صَهْوَةَ جَوَادِهِ، مُتَدَرِّعاً، وكَأَنَّهُ ذَاهِبٌ إِلَى قِتَالٍ، يَطْلُبُ مُقَابَلَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى عَجَلٍ.

فَخَرَجَ إِلَيْهِ ﷺ، وقَدْ غَسَلَ جَانِباً مِنْ جَسَدِهِ الشَّرِيْفِ، فَإِذَا جِبْرِيْلُ الأَمِيْنُ، يَطْلُبُ إِلى الرَّسُولِ الكَرِيْمِ، بِأَمْرٍ مِنَ اللهِ تَعَالَى، مُبَادَرَةَ بَنِيْ قُرَيْظَةَ وتَأْدِيْبِهِمْ عَلَى الفَوْرِ...

فَأَرْسَلَ ﷺ رَسُولاً يُؤَذِّنُ فِيْ المُسْلِمِيْنَ:

ـ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ ورَسُولِهِ واليَوْمِ الآخِرِ فَلَا يُصَلِّيَنَّ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِيْ قُرَيْظَةَ.

كَمَا طَلَبَ إِلَى عَلِيٍّ رضي الله عنه، أَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَى حُصُوْنِ العَدُوِّ عَلَى رَأْسِ فُرْسَانِ المُسْلِمِيْنَ، كَطَلِيْعَةٍ لَهُ ولإِخْوَانِهِ وأَصْحَابِهِ.

وضُرِبَ الحِصَارُ عَلَى القَوْمِ الكَافِرِيْنَ، أَيَّاماً ولَيَالِيَ، واسْتَمَرُّوْا هُمْ فِي تَشَاوُرٍ ومُرَاوَغَةٍ ومُمَاطَلَةٍ، واسْتَحْضَرُوْا أَبَا لُبَابَةَ رضي الله عنه، لِيَرُوا رَأْيَهُ، ثُمَّ فُوْجِئُوْا بِفُرْسَانِ المُسْلِمِيْنَ وقَدْ تَوَسَّطُوا سَاحَتَهُمْ، ودَخَلُوْا مِنْ ثَغْرَةٍ إِلَى

حُصُوْنِهِمْ، عِنْدَئِذٍ طَلَبُوْا الهُدْنَةَ ووَقْفَ القِتَالِ.

وارْتَضُوْا سَعْدَ بنَ مُعَاذٍ رضي الله عنه حَكَمَاً.

فَسُبِيَتْ الذُرِيَّةُ، وقُتِلَ المُقَاتِلَةُ والأَسْرَى الذِيْنَ بَلَغُوْا سَبْعَمِائَةٍ، وأُجْلِيَ البَاقُوْنَ عَنِ الدِّيَارِ، وتَنَظَّفَتِ المَدِيْنَةُ المُنَوَّرَةُ إِلَى الأَبَدِ مِنَ العُنْصُرِ اليَهُوْدِيِّ.

وكَانَتْ رَيْحَانَةُ قَدْ وَقَعَتْ أَسِيْرَةً فِي السَّبْيِ.

فَلَمَّا عُرِضَتْ عَلَيْهِ اِصْطَفَاهَا لِنَفْسِهِ، وكَانَ لَهُ مِنْ كُلِّ سَبْيٍ صَفِيٌّ يَخْتَارُهُ، فَاخْتَارَهَا رضي الله عنها، ثُمَّ أَرْسَلَ بِهَا إِلَى بَيْتِ أُمِّ المُنْذِرِ ـ سَلْمَى بِنْتِ قَيْسٍ ـ رضي الله عنها.

وقَالَ لِأُمِّ المُنْذِرِ: أَخْبِرِيْنِي إِنْ حَاضَتْ حَيْضَةً وَاحِدَةً.

اللِقَاءُ

ومَرَّتْ أَيَّامٌ عَلَى مُقَامِ رَيْحَانَةَ فِي بَيْتِ أُمِّ المُنْذِرِ حَتَّى حَاضَتْ، فَجَاءَتْ أُمُّ المُنْذِرِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ تُخْبِرُهُ، فَعَادَ مَعَهَا إِلَى دَارِهَا.

تَقُوْلُ رَيْحَانَةُ:

ـ دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَتَنَحَّيْتُ مِنْهُ حَيَاءً، فَدَعَانِي فَأَجْلَسَنِيْ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ:

ـ إِنِ اخْتَرْتِ اللهَ ورَسُوْلَهُ اِخْتَارَكِ رَسُولُ اللهِ لِنَفْسِهِ.

فَقُلْتُ:

ـ إِنِّيْ أَخْتَارُ اللهَ ورَسُوْلَهُ.

ثُمَّ قَالَ:

ـ إِنْ أَحْبَبْتِ أَنْ أُعْتِقَكِ وأَتَزَوَّجُكِ فَعَلْتُ، وإِنْ أَحْبَبْتِ أَنْ تَكُوْنِي فِيْ مِلْكِيَ فَعَلْتُ أَيْضَاً...

فَقَالَتْ:

ـ يَا رَسُولَ اللهِ أَكُوْنُ فِي مِلْكِكَ أَخَفُّ عَلَيَّ وعَلَيْكَ.

هَذِهِ رِوَايَةٌ، وهُنَاكَ رِوَايَةٌ أُخْرَى تَقُوْلُ بِأَنَّهُ ﷺ أَعْتَقَهَا وتَزَوَّجَهَا وأَصْدَقَهَا اِثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَوْقِيَةً ونَشًّا كَمَا كَانَ يُصْدِقُ نِسَاءَهُ.

وقَدْ أَعْرَسَ بِهَا فِي بَيْتِ أُمِّ المُنْذِرِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهَا بَيْتٌ (حُجْرَةٌ) كَمَا كَانَ لِبَقِيَّةِ نِسَائِهِ ﷺ فِي ذَلِكَ الحِيْنِ.

ورَيْحَانَةُ رضي الله عنها اِسْمٌ عَلَى مُسَمًّى، زَهْرَةٌ نَوَّارَةٌ نَاصِعَةُ البَيَاضِ، كَاللؤْلُؤِ المَنْضُوْدِ عَلَى غُصْنٍ أَخْضَرَ يَانِعٍ، زَكِيَّةُ الرَّائِحَةِ...

جَمِيْلَةُ القَسْمَاتِ، وضَّاءَةُ الوَجْهِ، نَاصِعَةُ البَشَرَةِ، فَتِيَّةٌ شَابَّةٌ.

وكَانَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ ـ كَمَا تَقُوْلُ الرِّوَايَاتُ ـ مُعْجَباً بِهَا، لَا يَرُدُّ لَهَا

طَلَبَاً، ولَا تَسْأَلُهُ شَيْئَاً إِلَّا أَجَابَهَا إِلَيْهِ...

فَقِيْلَ لَهَا بِهَذَا الشَّأْنِ:

ـ لَوْ كُنْتِ سَأَلْتِ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ فِي بَنِيْ قُرَيْظَةَ لَأَعْتَقَهُمْ.

فَقَالَتْ:

ـ لَمْ يَخْلُ بِي حَتَّى فَرَّقَ السَّبْيَ.

وكَانَ مِنْ شِدَّةِ حُبِّهِ ﷺ لِرَيْحَانَةَ أَنَّهُ كَانَ يَسْتَكْثِرُ مِنْهَا، طَلَبَاً لِلوَلَدِ والذُّرِّيَّةِ، وكَانَتْ أَكْثَرَ نِسَائِهِ اخْتِلَاءً بِهِ ﷺ.

طَلَاقُهَا

لَكِنَّ رَيْحَانَةَ رضي الله عنها كَانَتْ شَدِيْدَةَ الغَيْرَةِ، والغَيْرَةُ فِي النِّسَاءِ طَبْعٌ غَرِيْزِيٌّ، ولَكِنَّهَا كَانَتْ عِنْدَ رَيْحَانَةَ تَفُوْقُ الحَدَّ، وتَتَجَاوَزُ المَعْقُولَ.

ولَقَدْ حَدَثَ أَنْ أَظْهَرَتْ ذَلِكَ يَوْمَاً، وفِي لَهْجَةٍ قَاسِيَةٍ، وعِبَارَاتٍ جَافَّةٍ، وقَدْ يَكُوْنُ حُبُّ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ الزَّائِدِ لَهَا هُوَ الذِي جَعَلَهَا تَخْرُجُ عَنْ طَوْرِهَا واتِّزَانِهَا، ويُزَيِّنُ لَهَا غُرُوْرُ المَرْأَةِ أَنَّهَا تَلْعَبُ بِالرِّجَالِ وأَقْدَارِهِمْ، فَمَا كَانَ مِنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ، إِلَّا أَنْ طَلَّقَهَا تَطْلِيْقَةً...

تَوْبَتُهَا

وغَادَرَ الدَّارَ، دَارَ أُمِّ المُنْذِرِ... ، فَنَدِمَتْ رَيْحَانَةُ عَلَى مَا بَدَرَ مِنْهَا، وسَاءَهَا أَنْ أَفْرَطَتْ فِي غَيْرَتِهَا، فَبَكَتْ بُكَاءً مُرًّا، وشَقَّ عَلَيْهَا فِرَاقُ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ لَهَا.

وخَرَجَتْ أُمُّ المُنْذِرِ تُنبِئُ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ بِمَا حَدَثَ لِرَيْحَانَةَ بَعْدَ خُرُوجِهِ، ونَدَمِهَا الشَّدِيْدِ عَلَى مَا فَعَلَتْ، واِسْتَرْحَمَتْهُ فِي العَطْفِ عَلَى رَيْحَانَةَ كَيْ يُرَاجِعَهَا.

فَعَادَ صَاحِبُ القَلْبِ الكَبِيْرِ ﷺ إِلَى حَيْثُ هِيْ، فَوَجَدَهَا عَلَى أَسْوَأِ حَالٍ مِنَ الحُزْنِ واليَأْسِ، فَرَاجَعَهَا، وأَحْسَنَ إِلَيْهَا...، فَفَرِحَتْ، وكَادَتْ تَنْزِلُ عَلَى يَدَيْهِ تُقَبِّلُهُمَا وتَغْمُرُهُمَا بِالدُّمُوْعِ.

ومُنْذُ ذَلِكَ اليَوْمِ أَصْبَحَتْ رَيْحَانَةُ رضي الله عنها أَطْوَعَ لَهُ مِنْ ظِلِّهِ ﷺ لَا تُغْضِبُهُ ولَا تُحْزِنُهُ، ولَا تُؤْذِيْهِ فِي قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ.

وتُؤَدِّي لَهُ وَاجِبَ الزَّوْجِيَّةِ عَلَى أَحَبِّ مَا يَشْتَهِيْ ويُرِيْدُ ويَتَمَنَّى، واسْتَمَرَّتْ كَذَلِكَ لَا تَتَبَدَّلُ ولَا تَتَغَيَّرُ.

فَكَانَ يَقْسِمُ لَهَا كَمَا كَانَ يَقْسِمُ لِنِسَائِهِ الأُخْرَيَاتِ، مِنْ كُلِّ فَيْءٍ وعَطَاءٍ، لَا يَنْقُصَهَا حَقَّهَا، ولَا يُضَيِّعُ عَلَيْهَا نَصِيْبَهَا.

ولَقَدْ كَانَ زَوَاجُهُ ﷺ مِنْ رَيْحَانَةَ فِي العَامِ السَّادِسِ مِنَ الهِجْرَةِ، فَمَكَثَتْ عِنْدَهُ طِوَالَ أَرْبَعِ سَنَوَاتٍ، كَانَتْ حَافِلَةً بِالأَحْدَاثِ الجِسَامِ، مِنْهَا فَتْحُ خَيْبَرَ وصُلْحُ الحُدَيْبِيَةِ وعُمْرَةُ القَضَاءِ ثُمَّ فَتْحُ مَكَّةَ وغَزْوَتَا حُنَيْنٍ والطَّائِفَ.

مَرَضُهَا

فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ حَجَّةِ الوَدَاعِ التِي أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِيْهَا قَوْلَهُ:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (ٱلْمَائِدَةُ: 3).

وخَطَبَ فِيْهَا ﷺ خُطْبَتَهُ الشَّهِيْرَةَ التِي تَضَمَّنَتْ تَقْرِيْرَاتٍ ومَبَادِئَ، كَثِيْرَةً وعَظِيْمَةً.

عَادَ ﷺ مِنْ مَكَّةَ فَإِذَا رَيْحَانَةُ مَرِيْضَةٌ تُعَانِيْ مِنَ الآلَامِ والأَسْقَامِ والأَوْجَاعِ.

ولَقَدْ كَانَ شَاقًّا ومُؤْلِمًا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنْ يَرَى رَيْحَانَةَ تَذْوِي وتَذْبُلُ كَالزَّهْرَةِ اليَانِعَةِ التِي كَانَتْ تَمْلَأُ جَوَّ الحَيَاةِ أَرِيْجًا وبَهَاءً، ثُمَّ تَصْفَرُّ وتَتَسَاقَطُ وُرَيْقَاتُهَا وَاحِدَةً بَعْدَ الأُخْرَى إِيْذَانًا بِالفَنَاءِ.

مَوْتُهَا

ولَمْ تَمْضِ سِوَى أَيَّامٌ قَلَائِلُ حَتَّى فَارَقَتْ رَيْحَانَةُ الدُّنْيَا وهِيَ فِي عِزِّ الصِّبَا ورَوْنَقِ الحَيَاةِ، فَبَكَاهَا ﷺ وحَزِنَ لِفِرَاقِهَا، وقَامَ بَعْضُ النِّسْوَةِ اللَّوَاتِي يَثِقُ بِهِنَّ ﷺ أَمْثَالَ أُمِّ المُنْذِرِ بِنْتِ قَيْسٍ عَلَى تَدْبِيْرِ شُؤُونِ ودَفْنِ رَيْحَانَةَ.

فَغُسِّلَتْ وكُفِّنَتْ وطُيِّبَتْ، ثُمَّ حُمِلَتْ إِلَى البَقِيعِ، ومَشَى ﷺ فِيْ جَنَازَتِهَا يَحُفُّ بِهِ كِبَارُ إِخْوَانِهِ وأَصْحَابِهِ. حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى المَدَافِنِ وهُنَاكَ ووريَتْ رَيْحَانَةُ الثَّرَى، ودَعَا لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَدْعِيَةً مُبَارَكَةً، وسَأَلَ اللهَ تَعَالَى لَهَا المَغْفِرَةَ وحُسْنَ الثَّوَابِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى بَيْتِهِ، وقَدْ فَارَقَ بَضْعَةً مِنْهُ، كَانَتْ مِنْ أَعَزِّ نِسائِهِ عِنْدَهُ، ومِنْ أَحبِّهِنَّ إِلَيْهِ، وأَكْرَمِهِنَّ عِندَهُ.

❊ ❊ ❊

أُمُّ المَسَاكِينِ

زَيْنَبُ بِنْتُ خُزَيْمَةَ رضي الله عنها

نَسَبُهَا ونَشْأَتُهَا

هِيَ: زَيْنَبُ بِنْتُ خُزَيْمَةَ الهِلَالِيَّةُ.

فَهِيَ قُرَشِيَّةٌ هِلَالِيَّةٌ مَكِّيَّةٌ.

فَتَحَتْ زَيْنَبُ عَيْنَيْهَا فِي مَكَّةَ عَلَى مُجْتَمَعٍ يَمُوْجُ بِفِتْنَةِ الوَثَنِيَّةِ، والانْكِبَابِ عَلَى عِبَادَةِ الأَصْنَامِ وتَقْدِيْسِهَا، واسْتِغْرَاقٍ فِي شُرْبِ الخَمْرِ، والزِّنَا، ووَأْدِ البَنَاتِ...

و نَجَتْ مِنَ الوَأْدِ لِأَنَّهَا مِنْ بَيْتٍ عَرِيْقٍ فِي السِّيَادَةِ والثَّرَاءِ، ودَرَجَتْ فِي أَحْضَانِ وَالِدَيْهَا تَنْهَلُ مِنْ عَطْفِهِمَا وحُبِّهِمَا.

لَكِنَّهَا نَضَجَتْ وأَدْرَكَتْ ثُمَّ أَصْغَتْ بِكَثِيْرٍ مِنَ اللَّهْفَةِ والشَّوْقِ والتَّأَثُّرِ لِأَحْدَاثٍ هَامَّةٍ جَرَتْ فِي مَكَّةَ، وكَانَ مِحْوَرَهَا مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللهِ ﷺ.

ولَقَدْ هَزَّهَا ذَاتَ يَوْمٍ رُؤْيَةُ سَيِّدٍ مِنْ سَادَاتِ قُرَيْشٍ يَنْهَالُ عَلَى أَحَدِ عَبِيْدِهِ بِعَصَاً غَلِيْظَةٍ يُؤَدِّبُهُ عَلَى حَدِّ زَعْمِهِ بِهَا؛ وانْكَسَرَتِ العَصَا...، فَتَنَاوَلَ السَّيِّدُ سَوْطَاً مُتَشَعِّبَ الرُّؤُوْسِ ورَاحَ يَضْرِبُ بِهِ جَسَدَ ذَلِكَ المِسْكِيْنِ، وأَخَذَ الدَّمُ يَسِيْلُ بِغَزَارَةٍ والجِرَاحُ تَنْفَرِجُ عَنِ اللَّحْمِ الأَحْمَرِ الذِيْ بَدَأَ يَتَنَاثَرُ فِي

أَطْرَافِ المَكَانِ، حَتَّى خَفَتَ صَوْتُ المِسْكِيْنِ وتَلَاشَى ولَمْ تَعُدْ تُسْمَعُ مِنْهُ سِوَى أَنْفَاسٍ تَتَرَدَّدُ مَعَ الأَنَّاتِ.

ولَشَدَّ مَا تَأَلَّمَتْ زَيْنَبُ عِنْدَمَا عَرَفَتِ السَّبَبَ...

لَقَدْ جَاعَ العَبْدُ المِسْكِيْنُ بَعْدَ عَمَلٍ شَاقٍّ مُتَوَاصِلٍ، مِنَ الفَجْرِ إِلَى الغُرُوْبِ، فَأَكَلَ دُوْنَ إِذْنِ سَيِّدِهِ، فَكَانَ جَزَاؤُهُ مَا رَأَتْ وشَاهَدَتْ. كُلُّ ذَلِكَ ـ عَزِيْزِي القَارِئَ ـ كَانَ مِنْ أَبْرَزِ العَنَاصِرِ التِي كَوَّنَتْ شَخْصِيَّةَ زَيْنَبَ رضي الله عنها فِي حَاضِرِهَا ومُسْتَقْبَلِهَا.

فَعِنْدَمَا بَزَغَ فِجْرُ الإِسْلَامِ عَلَى مَكَّةَ وشَعَّتْ أَنْوَارُهُ فَوْقَ رُبُوْعِهَا، ودَعَا مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللهِ ﷺ النَّاسَ إِلَى التَّوْحِيْدِ ونَبْذِ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ، والإِقْلَاعِ عَنْ المَفَاسِدِ والعُيُوبِ الاجْتِمَاعِيةِ، وإِزَالَةِ الفَوارِقِ بَيْنَ النَّاسِ، فَالكُلُّ فِي الإِنْسَانِيَّةِ سَوْاءٌ، وأَكْرَمُ الخَلْقِ أَتْقَاهُمْ، لَا أَغْنَاهُمْ ولَا أَقْوَاهُمْ...

عِنْدَئِذٍ تَعَلَّقَ قَلْبُ زَيْنَبَ بِالدَّعْوَةِ الجَدِيْدَةِ، بَعْدَ أَنْ كَانَ إِعْجَابُهَا فِي السَّابِقِ يَنْحَصِرُ ضِمْنَ إِطَارِ شَخْصِيَّةِ المُصْطَفَى ﷺ.

كَانَتْ زَيْنَبُ تَمِيْلُ إِلَى حُبِّ المَسَاكِيْنِ والعَطْفِ عَلَيْهِمْ، ومَا مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ رُؤْيَتَهَا رضي الله عنها لِلْمِسْكِيْنِ الذِي عُذِّبَ بِسَبَبِ عَدَمِ اسْتِئْذَانِ سَيِّدِهِ فِي تَنَاوُلِ الطَّعَامِ، وقَدْ أَمَضَّهُ الجُوْعُ وأَضْنَاهُ، كَانَ لَهَا أَثَرٌ عَمِيقٌ فِيْ قَلْبِهَا الطَّيِّبِ، وفُؤَادِهَا الرَّحِيْمِ، ونَزْعَتِهَا الإِنْسَانِيَّةِ.

فَكَانَتْ ﵂ تَدَّخِرُ قُوْتَهَا، ومَا تَحْصُلُ عَلَيْهِ مِنْ مَالٍ أَو مَصْرُوفٍ، ثُمَّ تُنْفِقُهُ عَلَى المَسَاكِيْنِ والمُحْتَاجِينَ، حَتَّى عَرَفَ بِذَلِكَ القَاصِي والدَّانِي مِنَ النَّاسِ، وشَاعَ خَبَرُهَا لَدَى أَهْلِ مَكَّةَ جَمِيْعَاً.

تُرى كَمْ كَانَ سِنُّ زَيْنَبَ فِي ذَلِكَ الحِيْنِ؟

إِنَّ العُرْفَ المَشْهُوْرَ بِيْنَ النَّاسِ أَنَّ هَذِهِ الفِعَالَ أَوْ تِلْكَ الخِصَالَ إِنَّمَا هِيَ لِذَوِيْ الأَعْمَارِ الكَبِيْرَةِ، مِمَّنْ تَجَاوَزُوا سِنَّ النُّضُوْجِ، عِنْدَ الرِجَالِ أَوْ عِنْدَ النِّسَاءِ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ...

غَيْرَ أَنَّ زَيْنَبَ ﵂ مَزَّقَتْ هَذِهِ العَادَةَ، وحَطَّمَتْ هَذِهِ القَاعِدَةَ، وغَيَّرَتْ هَذَا المَفْهُوْمَ، لِأَنَّ عَمَلَ الخَيْرِ لَا يَعْرِفُ سِنَّاً مُعَيَّنَةً أَوْ عُمْرَاً بِذَاتِهِ.

لَقَدْ كَانَتْ ﵂ فِي سِنِّ السَادِسَةِ عَشَرَةَ تَقْرِيْبَاً، ولَمْ تَكُنْ بَعْدُ قَدْ دَخَلَتْ فِي حِمَى الإِسْلَامِ، وحَوْزَةِ الإِيْمَانِ.

وإِذَا مَا ذُكِرَ لَقَبُ أُمِّ المَسَاكِيْنَ لَدَى المَكِّيِّيْنَ عَرَفُوا جَمِيْعَاً صَاحِبَتَهُ، زَيْنَبَ بِنتَ خُزَيْمَةَ.

زَوَاجُهَا

وفِيْ سِنِّ السَّادِسَةِ عَشَرَةَ اِكْتَمَلَتْ زَيْنَبُ أُنُوْثَةً واسْتَدَارَتْ وأَصْبَحَتْ عَلَى أَبْوَابِ الزَّوَاجِ.

وهُنَا يَخْتَلِفُ المُؤَرِّخُوْنَ، وتَتَبَايَنُ رِوَايَاتُ التَّارِيخَ حَوْلَ زَوَاجِهَا الأَوَّلِ، فمِنْهُمْ مِنْ يَقُوْلُ بِأَنَّهَا كَانَتْ مُتَزَوِّجَةً مِنْ عَبْدِ اللهِ بنِ جَحْشٍ ابْنَ عَمَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، وقَدْ مَاتَ شَهِيْدَاً يَوْمَ أُحُدٍ، ومِنْهُمْ مَنْ يقُوْلُ كَانَتْ مُتَزَوِّجَةً مِنَ الطَفَيْلِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ فَهَلَكَ عَنْهَا فَتَزَوَّجَهَا أَخُوْهُ عُبَيْدَةُ بنُ الحَارِثِ الذِي مَاتَ شَهِيْدَاً إِثْرَ غَزْوَةِ بَدْرٍ، وهُوَ ابْنُ عَمِّ النَّبِيِّ ﷺ.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ فَإِنَّ الرِّوَايَتَيْنِ تَتَّفِقَانِ عَلَى أَنَّ زَوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ بَعْدَ زَوَاجِهِ مِنْ حَفْصَةَ رضي الله عنها.

ومِنْ هُنَا نَسْتَدِلُّ عَلَى أَنَّ الرِّوَايَةَ الثَّانِيَةَ هِيَ الأَرْجَحُ، لأَنَّ زَوَاجَهَ ﷺ مِنْ حَفْصَةَ كَانَ بَعْدَ غَزْوَةِ بَدْرٍ، واِسْتِشْهَادِ عُبَيْدَةَ بنِ الحَارِثِ.

عَذَابُهَا

مَضَتْ أَيَّامُ الحَيَاةِ بِزَيْنَبَ فِي مَكَّةَ بَعْدَ زَوَاجِهَا وإِسْلَامِهَا قَاسِيَةً شَدِيْدَةً، مِثْلُهَا مِثْلُ المُسْلِمِيْنَ الأَوَائِلِ الذِيْنَ تَحَمَّلُوا عِبْءَ الصُّمُوْدِ فِي وَجْهِ طُغْيَانِ قُرَيْشٍ واِسْتِبْدَادِهَا وظُلْمِهَا.

عَاشَتْ أَيَّامَ الحِرْمَانِ والعَذَابِ والاِضْطِهَادِ، وتَحَمَّلَتْ بِجَلَدٍ قُوَّةَ القَطِيْعَةِ الاقْتِصَادِيَّةِ والاجْتِمَاعِيَّةِ التِي فَرَضَتْهَا طُغْمَةُ الجَاهِلِيِّيْنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وجَمَاعَةِ المُسْلِمِيْنَ.

وقَضَتْ ﵂ سَنَواتِ الشِّعْبِ الثَّلَاثِ فِي ضَنْكٍ وجُوْعٍ وأَلَمٍ، ولَكِنَّهَا كَانَتْ تَتَزَوَّدُ مِنْ إِيْمَانِهَا العَظِيْمِ لِآمَالِهَا فِي المُسْتَقْبَلِ، وثِقَتِهَا العُظْمَى التِي لا حَدَّ لَهَا بِاللهِ سُبْحَانهُ وتَعَالَى، وأَنَّ مَا تَمُرُّ بِهِ مَعَ إِخْوَانِهَا وأَخَوَاتِهَا إِنَّمَا هُوَ ابْتِلَاءٌ وامْتِحَانٌ، لَا يُضَاهِيْهِ إِلَّا الصَبْرُ عَلَيْهِ.

ثُمَّ كَانَتْ الهِجْرَةُ...

الهِجْرَةُ

فَمَرَّتْ ﵂ فِي تَجْرِبَةٍ جَدِيْدَةٍ، قَاسِيَةٍ ومَرِيْرَةٍ، مِنْ نَتَائِجِهَا البُعْدُ عَنْ الأَهْلِ والوَطَنِ، واتِّسَاعُ الشُقَّةِ بَيْنَ الفَرْدِ ومَرْتَعِ صِبَاهُ ومَلْعَبِ شَبَابِهِ، وانْقِطَاعِهِ عَنْ الأَمَاكِنِ التِي شَهِدَتْ طُفُوْلَتَهُ وشَبَابَهُ.

وهِيَ لَا شَكَّ جُزْءٌ مِنْ حَيَاتِهِ، وعَلَى الأَصَحِّ جُزْءٌ مِنْ حَيَاةِ زَيْنَبَ ﵂.

لَكِنْهَا ﵂ كَغَيْرِهَا مِنَ المُسْلِمَاتِ والمُسْلِمِيْنَ تَأَقْلَمَتْ فِي الجَوِّ الجَدِيْدِ وانْتَظَمَتْ فِي سِلْكِ المُجْتَمَعِ الإِسْلَامِيِّ الجَدِيْدَ، الذِي بُنِيَ أَوَّلَ مَا بُنِيَ عَلَى الأُخُوَّةِ فِي اللهِ...

فَأَنْسَاهَا ذَلِكَ بَعْضَ هُمُوْمِهَا مِنَ البُعْدِ عَنِ الأَهْلِ والوَطَنِ، وكَانَتْ مَعَ زَوْجِهَا عُبَيْدَةَ بنِ الحَارِثِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ مَثَلاً طَيِّباً وكَرِيْمَاً فِي أُصُولِ وقَوَاعِدِ البَيْتِ الإِسْلَامِيِّ المَنْشُوْدِ، تَعَاوُنَاً ومَحَبَّةً واحْتِرَامَاً. ولَيْسَ مِنْ شَكٍّ

فِي أَنَّ شَخْصِيَّةَ زَيْنَبَ رضي الله عنها كَانَتْ مِحْوَرَ ذَلِكَ البَيْتِ الكَرِيْمَ، بِمَا حَبَاهَا اللهُ مِنْ نُضُوْجٍ عَقْلِيٍّ وسَمَاحَةٍ نَفْسِيَّةٍ، وبَسَاطَةٍ فِي الحَيَاةِ، ورِضَىً وقَنَاعَةً.

حَتَّى كَانَ اليَوْمُ العَظِيْمُ، يَوْمُ الفُرْقَانِ، يَوْمُ بَدْرٍ...ولَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى إِعَادَةِ تَفَاصِيْلِ المُقَدِّمَاتِ والظُّرُوْفِ التِيْ سَبَقَتْ ورَافَقَتْ غَزْوَةَ بَدْرٍ...

فالذي يَهُمُّنَا بِالنِسْبَةِ إِلَى الحَدِيثِ عَنْ زَيْنَبَ رضي الله عنها هُوَ اسْتِشْهَادُ زَوْجِهَا عُبَيْدَةَ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ، لِأَنَّهُ كَانَ نُقْطَةَ تَحَوُّلٍ كُبْرَى فِيْ حَيَاتِهَا، ودُخُوْلِهَا إِطَارَ «أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِيْنَ».

فَلَقَدْ كَانَتْ العَادَةُ فِي حُرُوْبِ تِلْكَ الأَيَّامِ أَنْ تَبْتَدِئَ بِالمُبَارَزَةِ، وكَانَتْ قُرَيْشٌ فِيْ ذَلِكَ اليَوْمِ هِيَ المُصِرَّةُ عَلَى القِتَالِ، فَبَعْدَ أَنْ حَجَزَ المُسْلِمُوْنَ المَاءَ عَنْ قُرَيْشٍ، وتَصَدَّوا لَهَا، بَرَزَ مِنْ صُفُوْفِ قُرَيْشٍ ثَلَاثَةُ فُرْسَانٍ يَطْلُبُوْنَ إِلَى رَسُوْلِ اللهِ ﷺ أَنْ يُبْرِزَ لَهُمْ أَنْدَادَهُمْ مِنَ المُسْلِمِيْنَ.

فَنَزَلَ بَعْضُ الأَنْصَارِ ، حُبًّا فِي الجِهَادِ، وإِثْبَاتًا لِلعُهُوْدِ والوُعُوْدِ التِي قَطَعُوْهَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وتَأْكِيْدًا لِلْبَيْعَةِ، فَرَدَّهُمْ فُرْسَانُ قُرَيْشٍ وقَالُوْا إِنَّمَا نُرِيْدُ أَكْفَاءَنَا مِنْ أَقْرِبَائِنَا الذِيْنَ فَارَقُوْا دِيْنَنَا وأَثَارُوا العَدَاوَةَ والبَغْضَاءَ بَيْنَنَا وبَيْنَهُمْ.

فَنَزَلَ بِنَاءً عَلَى أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ ثَلَاثَةٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وخَاصَّتِهِ هُمْ: عَمُّهُ حَمْزَةُ

ابنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ وابْنُ عَمِّهِ عَلَيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ وأَيْضاً ابْنُ عَمِّهِ عُبَيْدَةُ بنُ الحَارِثِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ زَوْجُ زَيْنَبَ رضي الله عنهم فَتَصَاوَلُوْا وتَجَاوَلُوْا، وأَثَارُوا تُرَابَ الأَرْضِ بِحَوَافِرِ خُيُوْلِهِم حَتَّى غَطَّى النَّقْعُ أَشْخَاصَهُمْ...

ثُمَّ مَا لَبِثَ حَمْزَةُ أَنْ قَضَى عَلَى خَصْمِهِ، وكَذَلِكَ عَلِيٌّ رضي الله عنهما، أَمَّا عُبَيْدَةُ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِضَرْبَةٍ مِنَ الخَصْمِ أَصَابَتْهُ فِي سَاقِهِ، وأَدَّتْ إِلَى جُرْحٍ بَالِغٍ...

لَكِنَّ حَمْزَةَ و عَلِيًّا أَعَانَاهُ عَلَى الخَصْمِ واسْتَنْقَذَاهُ، وقَتَلَا عَدُوَّهُ، ثُمَّ عَادَا بِعُبَيْدَةَ إِلَى مُعَسْكَرِ المُسْلِمِيْنَ يَئِنُّ مِنْ شِدَّةِ الجُرْحِ، ونَزْفِ الدِّمَاءِ.

وانْتَهَتْ مَعْرَكَةُ بَدْرٍ بِانْتِصَارٍ ظَافِرٍ مُؤَزَّرٍ لِلْمُسْلِمِيْنَ، وهَزِيْمَةٍ سَاحِقَةٍ لَحِقَتْ بِالمُشْرِكِيْنَ ...

وعَادَ مَوْكِبُ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ إِلَى المَدِيْنَةِ بَيْنَ تَهْلِيْلٍ وتَكْبِيْرٍ، وفَرْحَةٍ غَامِرَةٍ، وعَاشَتْ المَدِيْنَةُ أَيَّامَاً جَمِيْلَةً وكَأَنَّهَا فِي عُرْسٍ وبَهَاءٍ.

إِلا بَيْتَاً وَاحِداً ...

هُوَ بَيْتُ زَيْنَبَ رضي الله عنها فَقَدْ كَانَتْ فِي حُزْنٍ شَدِيْدٍ عَلَى زَوْجِهَا وحَبِيْبِهَا الجَرِيْحِ المُسَجَّى عَلَى الفِرَاشِ، الحَبِيبِ الذِي قَضَتْ مَعَهُ أَجْمَلَ أَيَّامِ حَيَاتِهَا، وأَهْنَأَ فَتَرَاتِ عُمْرِهَا، وأَطْيَبَ أَزْمَانِ المُشَارَكَةِ.

كَانَتْ تَرْعَاهُ وتَعْتَنِيْ بِهِ، وتُقَدِّمُ لَهُ كُلَّ مَا يُمْكِنُهَا مِنْ إِسْعَافٍ رَجَاءَ أَنْ يُشْفَى وتَعُوْدَ إِلَيْهِ عَافِيَتُهُ.

وكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وبَعْضُ الصَّحابَةِ يَزُورُونَهُ فِي البَيْتِ لَيَطْمَئِنُّوا عَلَيْهِ، ويُوَاسُوْنَهُ فِي مَرَضِهِ، ويُشَجِّعُوْنَهُ، ويَبْعَثُوْنَ فِي نَفْسِهِ وفِيْ قَلْبِهِ الأَمَلَ ...

لَكِنَّ القَدَرَ اصْطَفَى عُبَيْدَةَ شَهِيْدَاً ...

واخْتَارَهُ اللهُ تَعَالَى إِلَى جِوَارِهِ، فَبَكَتْهُ زَيْنَبُ بِدَمْعٍ هَتُوْنٍ، لَكِنْ بُكَاءَ الصَّابِرَةِ المُؤْمِنَةِ، مُتَذَكِّرَةً أَيَّامَ هَنَائِهَا مَعَهُ، ومُتْعَتِهَا إِلَى جِوَارِهِ، ثُمَّ احْتَسَبَتْهُ عَنْدَ اللهِ تَعَالَى دَاعِيَةً لَهُ بِحُسْنِ الثَّوابِ.

وكَانَ مِنْ عَادَةِ العَرَبِ أَنْ يُكَرِّمُوْا أَحِبَّاءَهُمْ وأَقْرِبَاءَهُمْ وعُظَمَاءَهُمْ بِالزَّوَاجِ مِنْ نِسَائِهِمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ.

الزَّوَاجُ

ومَنْ أَوْلَى مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمُوَاسَاةِ زَيْنَبَ ؟

ومَنْ أَوْلَى مِنْ مُحَمَّدٍ بنَ عَبْدِ اللهِ أَنْ يَكُوْنَ السَّبَّاقَ إِلَى كُلِّ مَكْرُمَةٍ ؟

وهُوَ قُدْوَةُ المُتَّقِيْنَ وإِمَامُ المُؤْمِنِيْنَ وسَيِّدُ الخَلْقِ أَجْمَعِيْنَ، وأُسْوَةُ المُسْلِمِيْنَ فِي كُلِّ حِيْنٍ...

فَسَعَى إِلَى زَيْنَبَ وَقَدْ انْقَضَتْ عِدَّتُهَا، فَخَطَبَهَا لِنَفْسِهِ، فَأَجَابَتْ عَلَى اسْتِحْيَاءٍ، وقَدْ حَالَتِ الدُّمُوْعُ فِي عَيْنَيْهَا، لِأَنَّ ذِكْرَى عُبَيْدَةَ مَا تَزَالُ قَرِيْبَةَ العَهْدِ...

أَجَابَتْ بَأَنْ جَعَلَتْ أَمْرَهَا إِلَى رَسُوْلِ اللهِ ﷺ... ، فَبَنَى بِهَا وأَدْخَلَهَا بُيُوتَ أَزْوَاجِهِ، واتَّخَذَ لَهَا حُجْرَةً خَاصَّةً بِهَا.

أُمُّ المَسَاكِيْنِ

وظَلَّتْ زَيْنَبُ رضي الله عنها تَحْتَفِظُ بِلَقَبِ أُمِّ المَسَاكِيْنِ، مُنْذُ أَنْ كَانَتْ فَتَاةً صَغِيْرَةً، لَمْ تُسْلِمْ بَعْدُ، إِلَى أَنْ لَحِقَتْ بِالرَّفِيْقِ الأَعْلَى...

ولَقَدْ كَانَتْ مُدَّةُ إِقَامَتِهَا فِي بَيْتِ النُّبُوَّةِ قَصِيْرَةً جِدًّا لَمْ تَتَجَاوزْ بِضْعَةَ أَشْهُرٍ...

إِلَّا أَنْ حُجْرَتَهَا كَانَتْ مَقْصِدَ المَسَاكِيْنِ والفُقَرَاءَ والمُحْتَاجِيْنَ، والجَائِعِيْنَ المَحْرُوْمِيْنَ، تَقْتَصِدُ مِنْ مَالِهَا وطَعَامِهَا ونَصِيْبِهَا ثُمَّ تَمْنَحُهُ لِهَذِهِ الطَّائِفَةِ مِنَ النَّاسِ، حُبًّا بِاللهِ وتَقَرُّبًا إِلَيْهِ، وسَعْيًا إِلَى رِضَاهُ.

الوَفَاةُ

كَانَتْ رضي الله عنها قَدْ أَتَمَّتْ الثَّلَاثِيْنَ مِنْ عُمْرِهَا، حِيْنَ دَاهَمَهَا المَوْتُ، فِي عِزِّ الشَّبَابِ، ومَيْعَةِ الصِّبَا، وعُنْوَانِ الفُتُوَّةِ.

ولَقَدْ كَانَ يَوْمُ وَفَاتِهَا يَوْمًا حَزِيْنًا، إِذْ تَرَكَتْ عَلَى رُغْمِ قِصَرِ مُدَّةِ العِشْرَةِ مَعَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ أَطْيَبَ الأَثَرِ وأَعْمَقَهُ فِي قَلْبِ المُصْطَفَى.

فَقَدْ مَرَّتْ أَيَّامُ العِشْرَةِ هَيِّنَةً لَيِّنَةً طَيِّبَةً، لَا صَخَبَ فِيْهَا ولَا نَصَبَ ولا

وَصَبَ، ولَا مَشَقَّةَ ولَا عُسْرَ...

حُلُمٌ جَمِيْلٌ، ونُزْهَةٌ مُمْتِعَةٌ فِي ظِلِّ دَوْحَةٍ كَثِيْرَةِ الأَفْيَاءِ والظِلَالِ، وشَرْبَةٍ مِنْ مَاءٍ قُرَاحٍ سَلْسَبِيْلٍ.

غُسِّلَتْ، وطُيِّبَتْ، وكُفِّنَتْ، وصَلَّى عَلَيْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ دُفِنَتْ فِي البَقِيْعِ، ولَقَدْ نَزَلَ إِلَى حُفْرَتِهَا اثْنَانِ مِنْ أَقْرِبَائِهَا.

وبَعْدَ أَنْ وُوْرِيَتْ الثَّرَى، عَادَ الجَمِيْعُ وفِيْ مُقَدِّمَتِهِم رَسُوْلُ اللهِ ﷺ يَسْتَرْجِعُوْنَ، ويَدْعُوْنَ لِأُمِّ المَسَاكِينِ بِحُسْنِ المَآبِ وعَظِيْمِ الثَّوَابِ.

قَالَ: اللهُ تَعَالَى

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾

العظيم (ٱلشَّرْح: 1 - 8).

ـ وسُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ المَرْأَةِ الصَّالِحَةِ فَقَالْ:

ـ هِيَ التِي إِنْ نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ، وإِنْ غَابَ عَنْهَا حَفِظَتْهُ فِي مَالِهِ وعِرْضِهَا.

وصدق رسوله الكريم

❊ ❊ ❊

ضُبَاعَةُ القُشَيْرِيَّةُ

نَسَبُهَا ونَشْأَتُهَا

هِيَ: ضُبَاعَةُ بِنْتُ عَامِرِ بنِ قُرْطٍ.

والنَّسَبُ الذِي يَنْتَهِي إِلَى عَامِرِ بنِ صَعْصَعَةَ عَنْدَ العَرَبِ، يَنْتَهِي إِلَى أَرُوْمَةِ المَجْدِ، ودَوْحَةِ الشَّرَفِ والسُّؤْدَدِ، والمَكَانَةِ العَالِيَةِ.

فِي هَذَا البَيْتِ الكَرِيْمِ وُلِدَتْ ضُبَاعَةُ، وفِي أَفْيَائِهِ وظِلَالِهِ رَتَعَتْ، وتَحْتَ سَقْفِهِ تَلَقَّتْ مَبَادِئَ المَعْرِفَةِ، بَلَاغَةً وفَصَاحَةً وبَيَانَاً.

وكَانَتْ إِلَى جَانِبِ هَذَا جَمِيْلَةً بَارِعَةَ الجَمَالِ، ذَاتَ قَامَةٍ مَمْشُوْقَةٍ، وهَامَةٍ عَالِيَةٍ، ووجْهٍ يُقَارِعُ البَدْرَ جَمَالَاً ووَضَاءَةً، وبَشَرَةٍ بَيْضَاءَ نَاصِعَةٍ، وشَعْرٍ فَاحِمٍ يُحَاكِي اللَّيْلَ سَوَادَاً، غَزِيْرَاً طَوِيْلَاً.

مَا سَمِعَ بِهَا أَحَدٌ مِنْ شُبَّانِ العَرَبِ وفِتْيَانِهِمْ إِلَّا وتَمَنَّى أَنْ تَكُوْنَ لَهُ زَوْجَةً وأَلِيْفَةً.

خِطْبَتُهَا

وجَاءَ إِلَى أَبِيْهَا «عَامِرِ بنِ قُرْطٍ»، «هَوْذَةُ بنُ عَلِيٍّ الجَعْفِيِّ» خَاطِبَاً، فَقَبِلَ بِهِ وزَوَّجَهَا مِنْهُ...

ولَكِنَّ حَيَاتَهُمَا الزَّوْجِيَّةِ لَمْ تَدُمْ طَوِيْلَاً، فَقَدْ تُوُفِّيَ عَنْهَا هَوْذَةُ وهِيَ لَا تَزَالُ فِي مَيْعَةِ الصِّبَا، وكَانَ غَنِيَّاً وَاسِعَ الثَّرْوَةِ، كَثِيْرَ المَالِ، فَوَرِثَتْ عَنْهُ ضُبَاعَةُ مَالَاً وَافِرَاً، وعَقَارَاً...

وعَادَتْ إِلَى بَيْتِ أَبِيْهَا وفِي حَلْقِهَا غُصَّةٌ، وفِي قَلْبِهَا حَسْرَةٌ، وفِي عَيْنِهَا عَبْرَةٌ، حَيْثُ صُدِمَتْ فِي زَوَاجِهَا الأَوَّلِ ولَمْ تَكُنْ قَدْ اِسْتَمْتَعَتْ طَوِيْلَاً، وتَأَيَّمَتْ شَابَّةً فَتِيَّةً لَمْ تَتَعَدَّ العَقْدَ الثَّانِي مِنْ عُمْرِهَا.

أَقَامَتْ فِي بَيْتِ أَبِيْهَا وهِيَ تُعَانِي مِنْ أَلَمِ المُصَابِ والصَّدْمَةِ المُبَكِّرَةِ، وكَانَ لَهَا ابنُ عَمٍّ يُحِبُّهَا ويَرْغَبُ فِي الزَّوَاجِ مِنْهَا يَأْلَفُ عِشْرَتَهَا، ولَكِنَّهُ كَانَ رَقِيْقَ الحَالِ قَلِيْلَ المَالِ، وكَانَت هِيَ مِنْ نَاحِيَتِهَا تَرْغَبُ فِي ابنِ العَمِّ هَذَا وتُحِبُّهُ وتَتَمَنَّاهُ، لَكِنَّهَا كَانَتْ خَاضِعَةً لِرَأْيِ أَبِيْهَا عَامِرِ بنِ قُرْطٍ لَا تُبْرِمُ أَمْرَاً دُوْنَهُ، ولَا تَقْطَعُ بِرَأْيٍ دُوْنَ مَشُوْرَتِهِ، حَتَّى لَوْ كَانَ الشَّأْنُ يَتَعَلَّقُ بِصَمِيْمِ حَيَاتِهَا، وخُصُوْصِيَّاتِهَا.

أَضِفْ إِلَى ابْنِ عَمِّهَا هَذَا، الذِي لَمْ يَذْكُرْ لَنَا التَّارِيخُ اِسْمَهُ بَلِ اكْتَفَى بِإِيْرَادِ صِفَتِهِ ورَغْبَتِهِ وحُبِّهِ، أَضِفْ إِلَيْهِ «هِشَامَ بنَ المُغِيْرَةِ» السَّيِّدَ القُرَشِيَّ والرَجُلَ البَارِزَ فِي عَشِيْرَتِهِ، فَقَدْ كَانَ هُوَ الآَخَرُ مُغْرَمَا بِـ ضُبَاعَةَ مَفْتُوْنَاً بِسِحْرِ جَمَالِهَا، وحُلْوِ مَنْطِقِهَا، وعَذْبِ حَدِيْثِهَا، وفِتْنَةِ بَهَائِهَا.

لكِنَّ أَبَاهَا عَامِرَ بنَ قُرْطٍ أَعْرَضَ عَنْ هَذَيْنِ وزَوَّجَهَا الزَوَاجَ الثَانِيَ مِنْ رَجُلٍ لَا يَقِلُّ شُهْرَةً ولَا مَالَاً ولَا مَكَانَةً عَنْ هِشَامٍ، هَذَا الرَّجُلُ هُوَ «عَبْدُ اللهِ ابنُ جُدْعَانَ»...

والذِي جَعَلَ وَالِدَهَا يَقْبَلُهُ ويُرَحِّبُ بِهِ ويُسْرِعُ فِي تَزْوِيْجِهَا مِنْه، كَثْرَةُ مَالِ عَبْدِ اللهِ، وغِنَاهُ العَرِيضُ، الذِي طَبَّقَتْ شُهْرَتَهُ الآَفَاقَ، وعَظِيْمُ شُهْرَتِهِ التِي كَانَتْ لَا تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الحَضَرِ والمَدَرِ.

عَبْدُ اللهِ بنُ جُدْعَان... كَانَ عَلَى مُسْتَوَى الرُّؤَسَاءِ والزُّعَمَاءِ مِنَ العَرَبِ قَاطِبَةً، لَيْسَ فِي قَبِيْلَتِهِ وحْدَهَا، بَلْ فِي كُلِّ البُطُوْنِ والعَشَائِرِ.

طَلَبُ الطَّلَاقِ

ومَاتَ وَالِدُهَا عَامِرُ بنُ قُرْطٍ...

فَأَتَاهَا فِي غَفْلَةٍ مِنْ زَوْجِهَا عَبْدُ اللهِ بنُ جُدْعَان ـ هِشَامُ بنُ المُغِيْرَةِ ـ

الذِي كَانَ يُحِبُّهَا حَتَّى العِبَادَةِ، وكَانَ مِنْ رِجَالِ قُرَيْشٍ المَعْدُوْدِيْنَ، ومِنْ رُؤُوسِ الأَسْيَادِ والأَشْرَافِ فِي قُرَيْشٍ، فَهَمَسَ لَهَا فِي أُذُنَيْهَا، وأَيْقَظَ مَا كَانَ غَافِلاً مِنْ حُبِّهِمَا وقَالَ:

ـ أَرَضِيْتِ يَا ضُبَاعَةُ لِجَمَالِكِ وهَيْئَتِكِ بِهَذَا الشَّيْخِ اللئِيْمِ (أَي عَبْدُ اللهِ ابنُ جُدْعَان)، سَلِيْهِ الطَّلَاقَ حَتَّى أَتَزَوَّجَكِ.

وكَانَ والِدُ ضُبَاعَةَ فِي ذَلِكَ الحِيْنِ قَدْ تُوُفِّيَ، فَأَصْبَحَتْ فِي وَضْعٍ يُمَكِّنُهَا مِنَ التَّحَرُّكِ بِإِرَادَةٍ مُطْلَقَةٍ، ودُوْنَ ضَغْطٍ.

وفِي ذَاتِ يَوْمٍ قَالَتْ لِزَوْجِهَا عَبْدِ اللهِ بنِ جُدْعَان:

ـ أُرِيْدُكَ أَنْ تُطَلِّقَنِي يَا عَبْدَ اللهِ فَقَدْ كَرِهْتُ العَيْشَ مَعَكَ.

شُرُوْطُ زَوَاجِهَا

ولَمْ يُفَاجَأ ابنُ جُدْعَانَ بَالطَّلَبِ، فَقَد كَانَ عَارِفَاً ومُدْرِكَاً لِمَاضِيْهَا، وإِحْسَاسِهَا بِالكَرَاهِيَةِ لَهُ، فَقَالَ لَهَا:

ـ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ هِشَامَ بنَ المُغِيْرَةِ قَدْ رَغِبَ فِيْكِ، ولَسْتُ مُطَلِّقَاً لَكِ، حَتَّى تَحْلِفِي لِي أَنَّكِ إِنْ تَزَوَّجْتِ مِنْ هِشَامٍ، أَنْ تَنْحَرِيْ مِائَةَ نَاقَةٍ سُوْدَ

الحَدَقِ، بَيْنَ «إِسَافٍ ونَائِلَةٍ»[1]، وأَنْ تَغْزِلِيْ خَيْطَاً يُمَدُّ بيْنَ أَخْشَبَيْ[2] مَكَّةَ، وأَنْ تَطُوْفِي بِالبَيْتِ عُرْيَانَةً...

كَانَتْ شُرُوْطُ ابنِ جُدْعَانٍ قَاسِيَةً صَعْبَةً، وكَأَنَّهَا نَوْعٌ مِنَ التَّعْجِيْزِ، حَتَّى لَا تَتَمَكَّنَ ضُبَاعَةُ مِنَ التَّنْفِيْذِ، وتَبْقَى فِي مِلْكِهِ وبَيْتِهِ وبَينَ يَدَيْهِ.

إِلَّا أَنَّ رَغْبَتَهَا فِي الخَلَاصِ مِنْ ابنِ جُدْعَانَ كَانَتْ أَشَدَّ وأَقْوَى وأَعْظَمَ مِنْ شُرُوْطِهِ، ولَو سَخَّرَتْ كُلَّ إِرادَتِهَا وعَزْمِهَا فِي سَبِيْلِ ذَلِكَ، فَقَالَتْ ضُبَاعَةُ بَعْدَ صَمْتٍ قَلِيْلٍ، وصَبْرٍ غَيْرِ طَوِيلٍ:

ـ دَعْنِي أَنْظُرُ فِي أَمْرِي.

فَتَرَكَهَا ابنُ جُدْعَانٍ فِتْرَةً للتَفْكِيْرِ والرَّدِّ عَلَى شُرُوْطِهِ.

وأَرْسَلَتْ ضُبَاعَةُ إِلَى هِشَامِ بنِ المُغِيْرَةِ تُخْبِرُهُ بِشُرُوْطِ عَبْدِ اللهِ بنِ جُدْعَانَ زَوْجِهَا، فَجَاءَ إِلَيْهَا عَلَى عَجَلٍ وَقَالَ:

ـ أَمَّا نَحْرُ مِائَةِ نَاقَةٍ فَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ نَاقَةٍ أَنْحَرُهَا عَنْكِ. (وكَانَ كَمَا عَلِمْتَ غَنِيَّاً ثَرِيَّاً سَيِّدَاً)

وأَضَافَ هِشَامٌ:

ـ وأَمَّا الغَزْلُ فأَنَا آمُرُ نِسَاءَ بَنِي المُغِيْرَةِ (قَومَهُ) يَغْزِلْنَ لَكِ، وأَمَّا طَوَافُكِ

---

(١) ـ إِساف ونائلة: صَنَمان كَانَا مُقَدَّسَيْنِ عِنْدَ العَرَبِ

(٢) ـ الأَخْشَبَانُ: جَبَلَانِ مِنْ جِبَالِ مَكَّةَ.

بِالبَيْتِ عُرْيَانَةً، فأَنَا أَسْأَلُ لَكِ قُرَيْشَاً أَنْ يُخْلُو لَكِ البَيْتَ سَاعَةً، فَسَلِيْهِ الطَّلَاقَ.

إِسْلَامُهَا

كُلُّ تِلْكَ الأَحْدَاثِ والوَقَائِعِ فِي حَيَاةِ ضُبَاعَةَ إِنَّمَا كَانَتْ قَبْلَ إِسْلَامِهَا واتِّبَاعِهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، ودُخُوْلِهَا فِي الدِّيْنِ الجَدِيْدِ.

ولَمْ تَمْضِ أَعْوَامٌ حَتَّى مَاتَ زَوْجُهَا هِشَامُ بنُ المُغِيْرَةِ وكَانَتْ قَدْ أَنْجَبَتْ مِنْهُ وَلَدَهَا «سَلَمَةَ».

ثُمَّ بُعِثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالإِسْلَامِ، يَسْتَنْقِذُ بِهِ أُمَّةَ العَرَبِ مِنْ وَهْدَةِ الشِّرْكِ والوَثَنِيَّةِ والفُجُوْرِ، ويَرْتَفِعُ بِهِمْ، وبِالإِنْسَانِيَّةِ، إِلَى قِمَّةِ التَّوْحِيْدِ والفَضَائِلِ.

ولَقَدْ رَأَتْ ضُبَاعَةُ فِي الدِّيْنِ الجَدِيْدِ مَا يُرِيْحُ النَّفْسَ والقَلْبَ والعَقْلَ، ويَنْزَعُ بِالفَرْدِ إِلَى العَلَاءِ، ويُنَزِّهُ المُجْتَمَعَ عَنْ كُلِّ رَذِيْلَةٍ، وكَانَتْ رضي الله عنها مَيَّالَةً بِحُكْمِ نُضُوْجِهَا واسْتِوَاءِ تَفْكِيْرِهَا إِلَى الخَيْرِ والحَقِّ، فَآمَنَتْ بِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ، واتَّبَعَتْ سَبِيْلَهُ.

أَسْلَمَتْ «بَايَعَتْ» ولَمْ تَخْشَ أَحَداً مِنَ النَّاسِ، لَا مِنْ قَوْمِهَا وعَشِيْرَتِهَا، ولا مِنْ قُرَيْشٍ ومُسْتَبِدِّيْهَا.

ونَذَرَتْ نَفْسَهَا جُنْدِيَّةً تُدَافِعُ عَنِ الدِّيْنِ الجَدِيْدِ، وتَدْعُوْ إِلَيْهِ، وتُجَاهِدُ

فِيْهِ، غَايَتُهَا رِضَى اللهِ ورَسُوْلِهِ.

ويُحْكَى فِي هَذَا الصَّدَدِ فَيُقَالُ:

رَوَى «عَبْدُ الرَّحْمَنِ العَامِرِيُّ» عَنْ أَشْيَاخٍ مِنْ قَوْمِهِ قَالُوْا:

أَتَانَا رَسُوْلُ اللهِ ﷺ ونَحْنُ بِـ«عُكَاظٍ»[1]، فَدَعَانَا إِلَى نُصْرَتِهِ ومَنْعَتِهِ، فَأَجَبْنَاهُ.

ثُمَّ جَاءَ رَجُلٌ يُدْعَى «بَجْرَةُ بنُ فِرَاسٍ القُشَيْرِيِّ»، فَغَمَزَ شَاكِلَةَ نَاقَةِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ، فَقَمَصَتْ بِهِ فَأَلْقَتْهُ، وعِنْدَنَا يَوْمَئِذٍ ضُبَاعَةُ بِنْتُ عَامِرِ بنِ قُرْطٍ، وكَانَتْ مِنَ النِّسْوَةِ اللاتِي أَسْلَمْنَ مَعَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ بِمَكَّةَ.

فَأَسْرَعَتْ ضُبَاعَةُ إِلَى فَرْزَةِ بَنِي عَمِّهَا (أي مَكَانُ إِقَامَتِهِم ومَضَارِبِهِم) فَقَالَتْ مُنَادِيَةً:

ـ يَا آلَ عَامِرٍ، ولا عَامِرَ لِي، أَيُصْنَعُ هَذَا بِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، ولَا يَمْنَعُهُ أَحَدٌ مِنْكُمْ ؟

(ويَبْدُو أَنَّ نِدَاء ضُبَاعَةَ رضي الله عنها هَذَا قَدْ أَثَّرَ فِي القَوْمِ واسْتَثَارَ حَمَاسَهُمْ).

فَقَامَ ثَلَاثَةٌ مِنْ بَنِي عَمِّهَا إِلَى بَجْرَةَ، فَأَخَذَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ رَجُلاً فَجَلَدَ بِهِ الأَرْضَ، ثُمَّ جَلَسَ عَلَى صَدْرِهِ، ثُمَّ عَلَا وَجْهَهُ لَطْمَاً.

ورَأَى ذَلِكَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ فَقَالَ دَاعِيَاً:

(١) ـ سوق كان يقام في الجاهلية يجتمع فيه الناس للشعر والتجارة وغيرهما.

ـ اللهُمَّ بَارِكْ عَلَى هَؤُلَاءِ.

ولَقَدْ نَالَ الثَّلَاثَةُ ـ كَمَا تَقُوْلُ الرِّوَايَةُ، دُوْنَ ذِكْرِ أَسْمَائِهِم ـ بَرَكَةَ المُصْطَفَى ﷺ، إِذْ أَسْلَمُوْا جَمِيْعَاً ومَاتُوْا شُهَدَاء.

وتَحَمَّلَتْ ضُبَاعَةُ رضي الله عنها قَسْوَةَ الحَيَاةِ بِمَكَّةَ طَوَالَ إِقَامَةِ المُسْلِمِيْنَ فِيْهَا، مُنْصَرِفَةً إِلَى تَرْبِيَةِ وَلَدِهَا «سَلَمَةَ» وتَلْقِيْنِهِ مَبَادِئَ الإِسْلَامِ، وتَنْشِئَتِهِ النَّشْأَةَ الصَّالِحَةَ فِي ظِلِّ الإِيْمَانِ، وتَعَرَّضَتْ رضي الله عنها لِضُغُوْطِ أَهْلِ زَوْجِهَا وأَهْلِهَا ولَكِنَّها صَمَدَت واحْتَمَتْ بَدِيْنِهَا، واعْتَصَمَتْ بِإِيْمَانِها، فَكَانَ لَهَا رَبُّهَا خَيْرَ حَافِظٍ وهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِيْنَ.

لَمْ تَبْرَحْ مَكَّةَ مُهَاجِرَةً إِلَى أَيِّ مَكَانٍ، وظَلَّتْ مُقِيْمَةً فِيْها حَتَّى كَانَتِ الهِجْرَةُ إِلَى يَثْرِبَ، عِنْدَئِذٍ شَدَّتْ الرِّحَالَ وانْطَلَقَتْ مَعَ وَلَدِهَا سَلَمَةَ فِي... سَبِيْلِ اللهِ.

تَوْبَتُهَا

ولَئِنْ كَانَتْ رضي الله عنها فِي جَاهِلِيَّتِهَا تَعْتَزُّ، قَلِيْلَاً أَوْ كَثِيْرَاً، بِجَمَالِهَا، فَإِنَّهَا فِي إِسْلَامِهَا قَدْ تَبَدَّلَتْ لَدَيْهَا القِيَمُ والمَوَازِيْنُ وأَضْحَى الدِّيْنُ والخُلُقُ والإِيْمَانُ، مُقَوِّمَاتُ شَخْصِيَّتِهَا، ومَوَازِيْنُ النَّاسِ والأَفْرَادِ عَنْدَهَا، وهِيَ

المَعَايِير التي تَرْفَعُ النَّاسَ أَو تَخْفِضُهُمْ فِي نَظَرِهَا.

ومِصْدَاقُ ذَلِكَ:

أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ قَدْ رَغِبَ فِي الزَّوَاجِ مِنْهَا، بَعْدَ الهِجْرَةِ، فَخَطَبَهَا إِلَى ابْنِهَا سَلَمَةَ، فَقَال:

ـ يَا رَسُوْلَ اللهِ مَا عَنْكَ مَدْفَعٌ، أَفَأَسْتَأْمِرُهَا ؟

قَال ﷺ:

ـ نَعَمْ.

فَأَتَاهَا، فَقَالَتْ ضُبَاعَةُ المُسْلِمَةُ المُؤْمِنَةُ القَانِتَةُ:

ـ إِنَّا للهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُوْنَ أَفِي رَسُوْلِ اللهِ تَسْتَأْمِرُنِي ؟ عَجَبَاً، بَلْ أَنَا أَسْعَى لِأَنْ أُحْشَرَ فِي أَزْوَاجِهِ ﷺ اِرْجِعْ فَقُلْ لَهُ نَعَمْ قَبْلَ أَنْ يَبْدُوْ لَهُ (أَي قَبْلَ أَن يُغَيِّرَ رَأْيُهُ).

فَرَجَعَ سَلَمَةُ فَقَالَ مَا أَوْصَتْهُ أُمُّهُ، فَسَكَتَ النَّبِيُّ ﷺ ولَمْ يَقُلْ شَيْئَاً.

وكَانَ قَدْ قِيلَ لَهُ بَعْدَ أَنْ وَلَّى سَلَمَةُ:

إِنَّ ضُبَاعَةَ لَيْسَتْ كَمَا عَهِدْتَ، فَقَدْ كَثُرَتْ غُضُوْنُ وَجْهِهَا، وسَقَطَتْ أَسْنَانُهَا مِنْ فَمِهَا.

لَقَدْ كَانَتْ ضُبَاعَةُ رضي الله عنها عَلَى قَابِ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى أَنْ تَكُوْنَ مَنْ أُمَّهَاتِ

المُؤْمِنِيْنَ، ولَكِنْ لِلهَ فِي تَدْبِيْرِهِ شُؤُوْنٌ وحِكَمٌ.

رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وغَفَرَ لَهَا، ورَفَعَ مَنْزِلَتَهَا ومَقَامَهَا، وحَشَرَهَا فِي جَنَّاتِ النَّعِيْمِ مَعَ الصِّدِّيْقِيْنَ، وأَلْحَقَنَا بِهَا فِي الصَّالِحِيْنَ مِنْ عَبَادِهِ.

❊ ❊ ❊

خَوْلَةُ بِنْتُ ثَعْلَبَةَ
(رضي الله عنها)

نَسَبُهَا ونَشْأَتُهَا

هِيَ خَوْلَةُ بِنْتُ مَالِكٍ يَنْتَهِي نَسَبُهَا إِلَى عَمْرِو بنِ عَوْفٍ.

وبنُو عَمْرو بنِ عَوْفٍ مِنْ أَشْرَافِ يَثْرِبَ وسَرَاتِهِم وأَغْنِيَائِهِم، فِيْهِم أَصَالَةُ العَرَبِ وشَهَامَتُهُمْ، وفُرُوْسِيَّتُهُم وضِيَافَتُهُمْ.

والذِي يَطَّلِعُ عَلَى ظُرُوْفِ ووَقَائِعِ هِجْرَةِ المُسْلِمِيْنَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى المَدِيْنَةِ، يَرَى دَائِمَاً اِسْمَ بَنِي عَمْرِو بنِ عَوْفٍ فِي مُقَدِّمَةِ المُضِيْفِيْنَ لِلكَثِيْرِيْنَ مِنَ المُسْلِمِيْنَ.

فِي هَذَا الجَوِّ المُشْبَعِ بِالأَرِيْحِيَّةِ العَرَبِيَّةِ، وكَرَمِ الضِّيَافَةِ، والشَرَفِ والسُّؤدَدِ، وُلِدَتْ خَوْلَةُ رضي الله عنها ونَشَأَتْ وتَرَعْرَعَتْ ثُمَّ تَرَبَّتْ فِي بَيْتٍ كَرِيْمٍ تَرْبِيَةَ عِلْمٍ وفَصَاحَةٍ وأَدَبٍ.

فَشَبَّتْ عَالِمَةً بَلِيْغَةَ القَوْلِ والبَيَانِ، فَصِيْحَةَ اللِسَانِ، كَامِلَةَ المُرُوْءَةِ والأَخْلَاقِ.

وكَانَتْ عَلَى قِسْطٍ مِنَ الحُسْنِ والبَهَاءِ، لَفَتَ إِلَيْهَا الأَنْظَارَ، فَرَغِبَ

فِيْهَا كَثِيْرٌ مِن شَبَابِ يَثْرِبَ، ووَدُّوا الاِقْتِرَانَ بِهَا، والزَوَاجَ مِنْهَا، إِلَّا أَنَّهَا فِي النِّهَايَةِ كَانَتْ مِنْ نَصِيْبِ أَحِدِ أَبْنَاءِ عُمُوْمَتِهَا، وهُوَ أَوْسُ بنُ الصَّامِتِ أَخُو عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ رضي الله عنهما.

فَخَطَبَهَا مِنْ أَبِيْهَا، وأَعْرَسَ بِهَا، وعَاشَا فَتْرَةً مِنَ الزَّمَنِ عَلَى أَحْسَنِ وأَهْنَأِ مَا تَكُوْنُ الحَيَاةُ الزَوْجِيَّةُ.

وكَان أَوْسُ أَكْبَرَ مِنْ أَخِيْهِ عُبَادَةَ رضي الله عنهما فَلَمَّا أَظَلَّ الإِسْلَامُ يَثْرِبَ دَخَلَا جَمِيْعَاً فِيْهِ، وأَسْلَمَتْ أَيْضَاً خَوْلَةُ، وكَانَت ـ كَمَا عَلِمْتَ ـ جَيِّدَةَ الفَهْمِ نَاضِجَةَ العَقْلِ، ففَقِهَتْ وحَفِظَتْ، ولَازَمَتْ بُيُوتَ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، وكَانَتْ أَكْثَرَ مَا تَتَرَدَّدُ عَلَى بَيْتِ عَائِشَةَ رضي الله عنها.

كَمَا شَارَكَ زَوْجُهَا أَوْسٌ فِي تَحَمُّلِ تَبِعَاتِ الجِهَادِ، وشَرَفِ النِّضَالِ تَحْتَ رَايَةِ المُصْطَفَى ﷺ...

الزَّوْجَةُ الوَفِيَّةُ

ولَكِنْ لَا تَمْضِي الحَيَاةُ عَلَى وَتِيْرَةٍ واحِدَةٍ، وهُنَا لَا نَدْرِي مَا الذِي أَصَابَ أَوْسَاً فِي عَقْلِهِ، فَجَعَلَهُ سَرِيْعَ الغَضَبِ، عَصَبِيَّ المَزَاجِ، حَادَّ الطَّبْعِ، بَيْنَ الفَيْنَةِ والفَيْنَة.

ذَلِكَ أَنَّ كُتُبَ التَّارِيخِ ومَرَاجِعَهُ لَا تَذْكُرُ السَّبَبَ سِوَى أَنَّ أَوْسَ بنَ الصَامِتِ كَان رَجُلَا بِهِ لَمَمٌ، أَي تَنْتَابُهُ بَيْنَ الحِينِ والحِينِ حَالَاتٍ مِنَ الهِيَاجِ العَصَبِيِّ، وفُقْدَانٍ لِلسَّيْطَرَةِ عَلَى الاِتِّزَانِ فَيَبْدُو هَائِجَاً شَدِيْدَ الثَّوْرَةِ.

لَم تُحَدِّثْنَا كُتُبُ التَّارِيْخِ ومَرَاجِعُهُ ـ مَثَلَاً ـ عَنْ مَرَضٍ أَلَمَّ بِهِ، أَوْ وَاقِعَةٍ مُعَيَّنَةٍ هِيَ التِي كَانَتْ السَّبَبَ فِي هَذَا التَّبَدُّلِ والتَّغَيُّرِ.

لَكِنَّ خَوْلَةَ السَّيِّدَةُ النَّاضِجَةُ، والزَّوْجَةُ الوَفِيَّةُ كَانَتْ تَتَحَمَّلُ هَذَا العَيْبَ الطَّارِئَ فِي حَيَاةِ أَوْسٍ وتُغْضِيَ عَنْهُ، وتُسَايِرُ الأُمُوْرَ ومُجْرَيَاتِ الأَيَّامِ بِحِكْمَةٍ وصَبْرٍ، حِرْصَاً مِنْهَا عَلَى اِسْتِمْرَارِيَّةِ الحَيَاةِ، وحَتَّى لَا تَكُوْنَ عَنْصُرَ هَدْمٍ لِعُشِّ الزَّوْجِيَّةِ الصَّغِيْرِ الذِي يَضُمُّهَا مَعَ أَوْسٍ.

وهَذَا ـ ولَا شَكَّ ـ مُنْتَهَى الإِيْمَانِ والصَّبْرِ والاِحْتِمَالِ، لِتَكُوْنَ رضي الله عنها بَعْدَ ذَلِكَ قُدْوَةً صَالِحَةً لِغَيْرِهَا مِنَ المُسْلِمَاتِ.

طَلَاقُهَا

وحَدَثَ ذَاتَ يَوْمٍ أَنْ دَخَلَ أَوْسٌ الدَّارَ عَلَى خَوْلَةَ وهُوَ فِي أَقْصَى حَالَاتِ صَرَعِهِ ولَمَمِهِ، وأَسْمَعَهَا كَلَامَاً جَارِحَاً قَاسِيَاً، فَاحْتَمَلَتْهُ، وسَكَتَتْ، لَكِنَّهُ اِشْتَدَّ فِي التَقْرِيْعِ واللَّوْمِ، فَأَجَابَتْهُ عَلَى قَوْلِهِ، إِذْ لَمْ تَعُدْ تطِيْقُ السُّكُوْتَ،

فَثَارَ ثَوْرَةً هَائِلَةً، وأَعْنَفَ فِي الرَّدِّ والكَلَام...

فَاضطُرَّتْ إِلَى الإِجَابَةِ، وذَرَّ قَرْنُ الشَّيْطَانِ بَيْنَهُمَا، فَمَا كَانَ مِنْ أَوْسٍ إِلَّا أَنْ مَدَّ يَدَهُ لِيَصْفَعَهَا، ويَضْرِبَهَا، فَأَمْسَكَتْ بِهِ، لَكِنَّهُ تَمَادَى فِي ثُوْرَتِهِ وهِيَاجِهِ، فَدَفَعَتْهُ عَنْهَا، فَسَقَطَ أَرْضَاً.

وقَدْ يَطْرَأُ عَلَى الذِّهْنِ سُؤَالٌ:

كَيْفَ تَسْتَطِيْعُ اِمْرَأَةٌ أَنْ تَغْلِبَ رَجُلَاً إِلَّا فِي الحَالَاتِ النَّادِرَةِ ؟

والجَوَابُ:

أَنَّ أَوْسَاً كَانَ قَدْ ضَعُفَ وَشَاخَ وكَبُرَ فِي السِّنِّ، فَلَمْ تَعُدْ بِهِ قُدْرَةٌ عَلَى المُقَاوَمَةِ.

بِهَذَا تَمَكَّنَتْ خَوْلَةُ مِنْ رَدِّهِ عَنْهَا، ودَفْعِ أَذَاهُ.

حِينَ حَدَثَ ذَلِكَ، قَامَ أَوْسٌ مِنْ سَقْطَتِهِ، وقَدْ عَاوَدَتْهُ بَعْضُ تَرَسُّبَاتِ الجَّاهِلِيَّةِ فِي أَعْمَاقِهِ، وقَالَ فِي غَضَبٍ شَدِيْدٍ:

ـ أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي.

وهَذِهِ عِبَارَةٌ كَانَتْ عَنْدَ العَرَبِ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ تَعْنِي الطَّلَاقَ، أَيْ أَنْتِ مُحَرَّمَةٌ عَلَيَّ حُرْمَةَ ظَهْرِ أُمِّي.

الزَّوْجُ المُذْنِبُ

ثُمَّ غَادَرَ الدَّارَ، وجَلَسَتْ خَوْلَةُ رضي الله عنها حَزِيْنَةً بَائِسَةً، تُفَكِّرُ بِحَسْرَةٍ فِيمَا اِنْتَهَى إِلَيْهِ أَمْرُ عَلَاقَتِهَا المُقَدَّسَةِ بِأَوْسٍ.

وبَعْدَ قَلِيْلٍ مِنَ الوَقْتِ عَادَ أَوْسٌ إِلَى الدَّارِ، وقَدْ هَدَأَتْ نَفْسُهُ وذَهَبَتْ عَنْهُ حَالَةُ اللَّمَمِ، وصَفَا فُؤَادُهُ، دَخَلَ عَلَى خَوْلَةَ واقْتَرَبَ مِنْهَا، وراحَ يُلَاطِفُهَا ، ويُسَايِرُهَا، ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يَنَالَ مِنْهَا مَا يَنَالُ الرَّجُلُ مِنْ زَوْجَتِهِ، فَأَبَتْ عَلَيْهِ وقَالَتْ:

ـ مَا أَظُنُّ إِلَّا أَنَّكَ قَدْ حَرُمْتَ عَلَيَّ...

ثُمَّ أَحَسَّ كُلٌّ مِنْهُمَا بَعْدَ هَذِهِ الثَّوْرَةِ الجَامِحَةِ بِالنَّدَمِ الشَّدِيْدِ... ، فَقَد كَانَا مُحِبَّيْنِ، مُتَعَلِّقَيْنِ بِبَعْضِهِمَا كَثِيْرَيْ الغَيْرَةِ...،

ثُمَّ لَبِثَا فَتْرَةً صَامِتَيْنِ لَا يَتَكَلَّمَانِ، وقَدْ عَلَتْ وَجْهَيْهِمَا قَتَرَةُ الحُزْنِ والأَلَمِ عَلَى مَا فَرَّطَا، أَوْسٌ بِمَا قَال، وخَوْلَةُ بِمَا فَعَلَتْ...، ثُمَّ قَالَ أَوْسٌ:

ـ الحَقُّ مَعَكِ يَا خَوْلَةُ مَا أَرَاكِ إِلَّا قَدْ حَرُمْتِ عَلَيَّ...

فَاسْتَدْرَكَتْ خَوْلَةُ وقَالَتْ:

ـ ولكِنَ يَا أَوْسُ مَا ذَكَرْتَ طَلَاقًا، وإِنَّمَا كَانَ هَذَا التَّحْرِيْمُ فِيْنَا قَبْلَ بِعْثَةِ رَسُوْلِ اللهِ، فَأْتِ رَسُوْلَ اللهِ فَسَلْهُ عَمَّا صَنَعْتَ...

فَرَدَّ أَوْسٌ:

ـ إِنِّي لَأَسْتَحِي يَا خَوْلَةُ مِنْهُ أَنْ أَسْأَلَهُ عَنْ هَذَا، فَأْتِ أَنْتِ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ، عَسَى أَنْ تُكْسِبِيْنَا مِنْهُ خَيْرَاً تُفَرِّجِيْنَ بِهِ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيْهِ مِمَّا هُوَ أَعْلَمُ بِهِ.

اِجْتِمَاعُهَا بِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ

فَقَامَتْ خَوْلَةُ فَلَبِسَتْ ثِيَابَهَا ثُمَّ خَرَجَتْ حَتَّى أَتَتْ دَارَ عَائِشَةَ رضي الله عنها ثُمَّ دَخَلَتْ عَلَى رَسُوْلِ اللهِ ﷺ.

ثُمَّ قَالَتْ :

ـ يَا رَسُوْلَ اللهِ إِنَّ أَوْسَاً مِنِّيْ مَنْ قَدْ عَرَفْتَ، أَبُو ولَدِيْ، وابْنُ عَمِّي، وأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وقَدْ عَرَفْتَ مَا يُصِيْبُهُ مِنَ اللَّمَمِ، وعَجْزِ مَقْدِرَتِهِ، وضَعْفِ قُوَّتِهِ، وعَيِّ لِسَانِهِ، وأَحَقُّ مَنْ عَادَ عَلَيْهِ أَنَا بِشَيْءٍ إِنْ وَجَدْتُهُ، وأَحَقُّ مَنْ عَادَ عَلَيَّ بِشَيْءٍ إِنْ وَجَدَهُ هُوَ، وقَدْ قَالَ كَلِمَةً، والذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مَا ذَكَرَ طَلَاقَاً، قَال:

ـ أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي.

فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ

ـ مَا أَرَاكِ إِلَّا قَدْ حَرُمْتِ عَلَيْهِ.

هُنَا...

الشَّرْطُ

تَأَثَّرَتْ خَوْلَةُ ورَاحَتْ تُجَادِلُ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ فِيْمَا حَدَثَ، ومَاذَا قَالَ أَوْسٌ وأَنَّ قَوْلَتَهُ إِنَّمَا هِيَ مِنْ آثَارِ الجَاهِلِيَّةِ، ومُخَلَّفَاتِهَا فِي نُفُوْسِ النَّاسِ.

فَكَانَ ﷺ يُجَادِلُهَا، ويَرُدُّ أَقْوَالَهَا، ولَا يَحْكُمُ بِرَأْيٍ قَبْلَ أَنْ يَفْصِلَ فِي ذَلِكَ وحْيُ اللهِ تعَالَى وشَرْعُهُ.

عِنْدَئِذٍ تَوَجَّهَتْ خَوْلَةُ بِلِسَانٍ ضَارِعٍ، وقَلْبٍ خَاشِعٍ، ووَجْهٍ دَامِعٍ إِلَى السَّمَاءِ، وقَالَتْ:

ـ اللهُمَّ إِنِّيْ أَشْكُوْ إِلَيْكَ شِدَّةَ وَجْدِي، ومَا شَقَّ عَلَيَّ مِنْ فِرَاقِهِ، اللهُمَّ أَنْزِلْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّكَ مَا يَكُوْنُ لَنَا فِيْهِ فَرَجٌ...

وتُحَدِّثُنَا السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ ـ أُمُّ المُؤْمِنِيْنَ ـ رضي الله عنها، عَنْ ذَلِكَ فَتَقُوْلُ:

ـ لَقَدْ بَكَيْتُ وبَكَى مَنْ كَانَ مَعَنَا مِنْ أَهْلِ البَيْتِ، رَحْمَةً لَهَا، ورِقَّةً عَلَيْهَا وبَيْنَمَا هِيَ كَذَلِكَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُوْلِ الله ﷺ تُكَلِّمُهُ...، كَانَ رَسُوْلُ اللهِ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الوَحْيُ يَغُطُّ فِيْ رَأْسِهِ، ويَتَرَبَّدُ وَجْهُهُ، ويَجِدُ بَرْدَاً فِي ثَنَايَاهُ، وَيَعْرَقُ حَتَّى يَتَحَدَّرَ فِيْهِ مِثْلُ الجُمَانِ.

وأَرْدَفَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها تَقُوْلُ مُوَجِّهَةً كَلَامَهَا إِلَى خَوْلَةَ:

ـ يَا خَوْلَةُ إِنَّهُ لَيَنْزِلُ عَلَيْهِ، مَا هُوَ إِلَّا فِيْكِ.

فَقَالَتْ خَوْلَةُ:

ـ اللهُمَّ خَيْرَاً فَإِنَّنِي لَمْ أَبْغِ مِنْ نَبِيِّكَ إِلَّا خَيْرَاً.

وتَابَعَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها تَرْوِيْ ، قَالَتْ:

ـ فَمَا سُرِّيَ عَنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّ نَفْسَهَا (أَيْ خَوْلَةُ) تَخْرُجُ فَرَقَاً مِنْ أَنْ تَنْزِلَ الفُرْقَةُ.

فَسُرِّيَ عَنْ رَسُوْلِ اللهِ وهُوَ يَبْتَسِمُ فَقَالَ:

ـ يَا خَوْلَةُ...

قَالَتْ:

ـ لَبَّيْكَ

ونَهَضَتْ قَائِمَةً، فَرَحَاً بِتَبَسُّمِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ

ثُمَّ قَالَ:

ـ قَدْ أَنْزَلَ اللهُ فِيْكِ وفِيْهِ، ثُمَّ تَلَا عَلَيْهَا قَوْلَ اللهِ تعَالَى:

﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ

ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ
لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ
بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ
مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ
مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ
وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ (ٱلمُجَادِلَة: 1 - 4).

ثُمَّ قَالَ ﷺ:

مُرِيْهِ أَنْ يُعْتِقَ رَقَبَةً.

فَقَالَتْ:

ـ وأَيُّ رَقَبَةٍ ؟! واللهِ مَا يَجِدُ رَقَبَةً ومَا لَهُ خَادِمٌ غَيْرِي.

فَقَالَ:

ـ مُرِيْهِ فَلْيَصُمْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ.

فَقَالَتْ:

ـ واللهِ يَا رَسُوْلَ اللهِ مَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ، إِنَّهُ لَيَشْرَبُ فِي اليَوْمِ كَذَا وكَذَا مَرَّةٍ، قَدْ ذَهَبَ بَصَرُه مَعَ ضَعْفِ بَدَنِهِ، وإِنَّمَا هُوَ كالخُرْشَافَةِ [1].

(١) ـ نَباتٌ مَعروف بالأرضي شوكي.

فَقَالَ:

ـ فَمُرِيْهِ فَلْيُطْعِمْ سِتِّيْنَ مِسْكِيْنَاً...

قَالَتْ:

ـ وأَنَّى لَهُ هَذَا ؟ وإِنَّمَا هِيَ وَجْبَةٌ.

قَالَ:

ـ فَمُرِيْهِ فَلْيأْتِ «أُمَّ المُنْذِرِ بِنْتَ قَيْسٍ» فَلْيَأْخُذْ مِنْهَا شَطْرَ وَسْقٍ تَمْرَاً فَيَتَصَدَّقَ بِهِ عَلَى سِتِّيْنَ مِسْكِيْنَاً.

تَوْبَةُ أَوْسٍ

فَنَهَضَتْ إِلَى دَارِهَا حَامِدَةً شَاكِرَةً مَسْرُوْرَةً، فَوَجَدَتْ أَوْسَاً جَالِسَاً عِنْدَ البَابِ يَنْتَظِرُ أَوْبَتَهَا بِفَارِغِ الصَّبْرِ، فَلَمَّا رَآهَا هَبَّ وَاقِفَاً، ثُمَّ سَأَلَهَا:

ـ مَا وَرَائَكِ يَا خَوْلَةُ ؟!

قَالَتْ:

ـ خَيْرَاً وأَنْتَ ذَمِيْمٌ، قَدْ أَمَرَكَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ أَنْ تَأْتِيَ أُمَّ المُنْذِرِ بِنْتَ قَيْسٍ فَتَأْخُذَ مِنْهَا شَطْرَ وَسْقٍ تَمْرَاً فَتَتَصَدَّقَ بِهِ عَلَى سِتِّيْنَ مِسْكِيْنَاً،

وتُكْمِلُ لَنَا خَوْلَةُ الرِّوَايَةَ فَتَقُوْلُ:

ـ فَذَهَبَ مِنْ عَنْدِي يَعْدُو حَتَّى جَاءَ بِهِ عَلَى ظَهْرِهِ، وعَهْدِيْ بِهِ لَا يَحْمِلُ

خَمْسَةَ أَصْوُعٍ فَجَعَلَ يُطْعِمُ مُدَّيْنِ مِنْ تَمْرٍ لِكُلِّ مِسْكِيْنٍ.

وفِيْ رِوَايَةٍ...

قَالَتْ خَوْلَةُ:

ـ قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: فإِنَّا سَنُعِيْنُكِ بِعِذْقٍ مِنْ تَمْرٍ.

قَالَتْ:

ـ فَقُلْتُ يَا رَسُوْلَ اللهِ وأَنَا سَأُعِيْنُهُ بِعِذْقٍ آخَرٍ.

فَقَالَ:

ـ قَدْ أَصَبْتِ وأَحْسَنْتِ فاذْهَبِي فَتَصَدَّقِي بِهِ عَنْهُ، ثُمَّ اسْتَوْصِي بِابْنِ عَمِّكِ خَيْرَاً.

قَالَتْ: فَفَعَلْتُ.

حَيَاتُهَا

ثُمَّ مَضَتْ سَفِيْنَةُ العُمْرِ فِي عُبَابِ يَمِّ الحَيَاةِ ، تَمْشِيْ مُتَهَادِيَةً بِخَوْلَةَ وأَوْسٍ.

فَقَامَ رضي الله عنه بِمَا قُدِّرَ لَهُ أَنْ يَقُوْمَ بِهِ مِنْ جِهَادٍ فِي سَبِيْلِ اللهِ، وأَسْهَمَ بِقِسْطِهِ المَشْكُورِ فِي خِدْمَةِ الإِسْلامِ.

كَمَا أَدَّتْ خَوْلَةُ رضي الله عنها وَاجِبَهَا فِي رِعَايَةِ شُؤُونِ بَيْتِهَا وزَوْجِهَا وأَهْلِهَا، ورَعَتْ أَبْنَاءَهَا حَقَّ الرِّعَايَةِ، وأَدَّبَتْهُمْ أَحْسَنَ تَأْدِيبٍ حَتَّى نَشَأوا فِي ظِلِّ الإِسْلَامِ، فِتْيَانَاً وفَتَيَاتٍ، غُصُوْنَاً مُثْمِرَةً زَكِيَّةَ الرَّائِحَةِ وارِفَةَ الظِّلَالِ.

وعَرَفَ أَكْثَرُ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ فَضْلَ خَوْلَةَ ومَكَانَتَهَا، فأَجْزَلُوْا فِي احْتِرَامِهَا وتَقْدِيرِهَا وتَوْقِيرِهَا، وخَاصَّةً خَلِيْفَتَيْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ مِنْ بَعْدِهِ، الصِّدِّيْقُ والفَارُوْقُ رضي الله عنهما.

لِقَاءُهَا مَع عُمَرَ رضي الله عنه

ويُرْوَى أَنَّهُ فِي زَمَنِ عَمَرَ رضي الله عنه، كَانَ خَارِجَاً مِنَ المَسْجِدِ ومَعَهُ النَّاسُ، فَمَرَّ عَلَى عَجُوْزٍ اِسْتَوْقَفَتْهُ فَوَقَفَ، ثُمَّ سَلَّمَتْ عَلَيْهِ وقَالَتْ:

ـ هَيْهَاً يَا عُمَرُ عَهِدْتُكَ وأَنْتَ تُسَمَّى عُمَيْرَاً فِي سُوْقِ عَكَاظٍ تَرْعَى الصِّبْيَانَ بِعَصَاكَ، فَلَمْ تَذْهَبِ الأَيَّامُ حَتَّى سُمِّيْتَ عُمَرَ، ثُمَّ لَمْ تَذْهَبِ الأَيَّامُ حَتَّى سُمِّيْتَ أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ...

فاتَّقِ اللهَ فِي الرَّعِيَّةِ، واعْلَمْ أَنَّهُ مَنْ خَافَ الوَعِيْدَ قَرُبَ عَلَيْهِ البَعِيْدُ، ومَنْ خَافَ المَوْتَ خَشِيَ الفَوْتَ.

فَقَالَ الجَارُوْدُ العَبْدِيُّ، وكَانَ مَعَ عُمَرَ:

ـ لَقَدْ أَكْثَرْتِ عَلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِيْنَ أَيَّتُهَا المَرْأَةُ...

فَقَالَ عُمَرُ:

ـ دَعْهَا أَمَا تَعْرِفُهَا...؟ هَذِهِ خَوْلَةُ بِنْتُ ثَعْلَبَةَ التِي سَمِعَ اللهُ شَكْوَاهَا مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ، والتِي أَنْزَلَ فِيْهَا:

﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ (ٱلمُجَادِلَة: 1).

فَعُمَرُ أَحَقُّ واللهِ أَنْ يَسْمَعَ لَهَا، والله لَوْ أَنَّهَا وَقَفَتْ إِلَى اللَيْلِ... ، مَا فَارَقْتُهَا إِلَّا لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ أَرْجِعُ إِلَيْهَا .

تِلْكَ ـ عَزِيْزِي القَارِئَ ـ هِيَ المَكَانَةُ التِي بَلَغَتْهَا «خَوْلَةُ بِنْتُ ثَعْلَبَةَ» رضي الله عنها عَنْدَ كِبَارِ الصَّحَابَةِ، وخُلَفَاءِ النَّبِيِّ ﷺ.

ومِنْ ثُمَّ تُغْفِلُ مَرَاجِعُ التَّارِيْخِ الزَّمَنَ الذِيْ تُوُفِّيَتْ فِيْهِ خَوْلَةُ، إِلَّا أَنَّنَا نُدْرِكُ أَنَّهَا شَاخَتْ وأَصْبَحَتْ عَجُوْزَاً فِي عَهْدِ عُمَرَ.

رَضِيَ اللهُ عَنْ «المُجَادِلَةِ» خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ الصَّحَابِيَّةِ المُسْلِمَةِ المُؤْمِنَةِ، والزَّوْجَةِ الوَفِيَّةِ، والنّاصِحَةِ الصَّادِقَةِ.

وأَنْزَلَهَا مَنَازِلَ الصِّدِّيْقِيْنَ والشَّهَدَاءِ والصَّالِحِيْنَ، وحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيْقَاً.

وأَلْحَقَنَا بِهَا فِي الصَّالِحِيْنَ مِنْ عِبَادِهِ، إِنَّهُ سَمِيْعٌ مُجِيْبٌ.

* * *

أُمّ شَـــرِيكٍ
(غَزِيَّـةُ بنتُ جَـابِرٍ رضي الله عنها)

نَسَبُهَـا

هِيَ: غَزِيَّةُ بِنْتُ جَابِرِ بنِ حَكِيْمٍ، مِنْ بَنِي دَوْسٍ، مِنَ الأَزَدِ.

إِسْلَامُهَـا

دَوْسٌ، هِيَ قَبِيْلَةُ أَبِيْ هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، الحَافِظِ الوَاعِي، الذي رَافَقَ النَّبِيَّ ﷺ ولَازَمَهُ سَنَواتٍ، والْتَقَطَتْ أُذُنُهُ المُرْهَفَةُ وصَدْرُهُ الرَّحْبُ، مِنَ الفَمِ الشَّرِيْفِ، أَطْيَبَ الكَلِمِ، وأَرْفَعَ الحِكْمَةِ، وأَبْيَنَ القَوْلِ.

مِنْ هَذِهِ القَبِيْلَةِ آمَنَ بَعْضُ النَّاسِ، وارْتَحَلُوْا مَعَ أَبِيْ هَرَيْرَةَ إِلَى المَدِيْنَةِ المُنَوَّرَةِ، لِمُوَافَاةِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ.

وكَانَ مِنْ بَيْنِهِمْ رَجُلٌ يُدْعَى: «أَبَا الفَكَرِ»، هُوَ زَوْجُ أُمِّ شَرِيْكٍ.

جُرْأَتُهَـا

أَمَّا أُمُّ شَرِيْكٍ فَقَدْ بَقِيَتْ حَيْثُ تُقِيْمُ قَبِيْلَةُ دَوْسٍ فِي مَكَانٍ يُسَمَّى «ذَا الخَلَصَةَ»، بِانْتِظَارِ أَنْ تَلْحَقَ بِزَوْجِهَا «أَبِي الفَكَرِ» بَعْدَ ذَلِكَ، وحِيْنَ تَسْنَحُ الظُّرُوْفُ.

ولَقَدْ اهْتَمَّ واغْتَمَّ بَعْضُ كِبَارِ قَبِيْلَةِ «دَوْسٍ» لِإِسْلَامِ أُوْلَئِكَ النَّفَرِ الذِيْنَ ذَهَبُوْا إِلَى المَدِيْنَةِ، لِمُبَايَعَةِ مُحَمَّدٍ ومُتَابَعَتِهِ ﷺ.

وسَرَتْ بَيْنَ المُشْرِكِيْنَ هَمْهَمَةٌ تَحَوَّلَتْ إِلَى صَخَبٍ وثَوْرَةٍ، إِذ كَيْفَ يَخْرُجُ بَعْضٌ مِنْهُم عَنْ طَاعَتِهِمْ ومَشُوْرَتِهِم؟ وكَيْفَ يَسْمَحُوْنَ لِأَنْفُسِهِمْ بَالصَّبْوَةِ عَنِ دِيْنِ الآبَاءِ والأَجْدَادِ؟ وكَيْفَ يَكْفُرُوْنَ باللاتِ والعُزَّى وغَيْرِهُمَا مِنَ الأَرْبَابِ؟

وجَاءَ أَهْلُ أَبِي الفَكَرِ إِلى أُمِّ شَرِيْكٍ، كَمَا جَاءَ أَهْلُ كُلِّ مَنْ آمَنَ إِلَى مَنْ بَقِيَ فِيْهِمْ مِنْ أَقْرِبَائِهِ وأَنْسِبائِهِ وذُرِّيَّتِهِ.

فَقَالُوْا لَهَا:

ـ لَعلَّكِ عَلَى دِيْنِهِ (أَي دِيْنِ أَبِي الفَكَرِ) بِلَهْجَةِ التَّهْدِيَدِ، ونَبْرَةِ الوَعِيْدِ، وحُمَّى الغَضَبِ تَتَوَقَّدُ فِي عُيُونِهِم كَالجَمْرِ المُلْتَهِبِ.

فَقَالَتْ رضي الله عنها دُونَ وَجَلٍ أَوْ خَوْفٍ:

ـ إِي واللهِ إِنِّي لَعلَى دِيْنِهِ.

قُرَيْشٌ وأُمُّ الشَّرِيْكِ

فَثَارُوْا وهَاجُوْا ومَاجُوْا، ولَوَّحُوْا بِأَيْدِهِمْ يَمْنَةً ويَسْرَةً، وكَأَنَّهَا الرِّمَاحُ المُشْرَعَةُ، أوِ السُّيُوفُ اللامِعَةُ، وقَالُوا:

ـ لَا جَرَمَ...! واللهِ لَنُعَذِّبَنَّكِ عَذَابًا شَدِيْدًا.

ولَقَدْ كَانَ التَّعْذِيْبُ، ومَا يَزَالُ، سَبِيْلًا أَوْ وَسِيْلَةً مِنْ وَسَائِلِ التَّرْهِيْبِ فِي إِكْرَاهِ النَّاسِ عَلَى أَمْرٍ، أَوْ صَرْفِهِمْ عَنْ أَمْرٍ إِلَى آخَرَ.

ولَقَدْ كَانَتْ قُرَيْشٌ هِيَ الرَّائِدَةُ لِكُلِّ العَرَبِ آنَذَاكَ فِي فِتْنَةِ المُسْلِمِيْنَ، أَوْ ضِعَافِ المُؤْمِنِيْنَ لِإِجْبَارِهِم عَلَى الرّجُوْعِ عَنْ دِينِ مُحَمَّدٍ، وقَسْرِهِمْ عَلَى البَاطِلِ.

فَمِنْ قُرَيشٍ تَعَلَّمَتْ أَكْثَرُ القَبَائِلِ، وتَابَعَتْهَا عَلَى ضَلَالِهَا وغَطْرَسَتِهَا وغُرُورِهَا وجَبَرُوتِهَا.

العَذَابُ

فَحَمَلُوْا أُمَّ شَرِيْكٍ مِنْ دَارِهَا، وأَخْرَجُوْهَا مِنْ دِيَارِهَا، وذَهَبُوْا بِهَا بَعِيْدًا فِي الصَّحْرَاءِ، وأَرْكَبُوْهَا فَوْقَ جَمَلٍ وصَفَتْهُ رضي الله عنها فَقَالَتْ:

ـ وحَمَلُوْنِي عَلَى جَمَلٍ ثَفَالٍ، شَرِّ رِكَابِهِمْ وأَغْلَظِهُ، (أَي كَأَنَّهُ حَجَرُ الطَّاحُوْنِ لِشِدَّةِ حَرَكَتِهِ، وقَسْوَةِ اهتِزَازِهِ.)

وهَذَا جُزْءٌ مِنَ العَذَابِ، أَضَافُوْا إِلَيْهِ إِطْعَامَهَا الخُبْزَ الجَافَّ بِالعَسَلِ الحَارِّ، فِي البَيْدَاءِ القَائِظَةِ، دُوْنَ أَنْ يُعْطُوْهَا قَطْرَةَ مَاءٍ وَاحِدَةٍ، لِتُطْفِئَ غُلَّتَهَا، أَوْ تُخَفِّفَ ظَمْأَهَا...

إِيْمَانُهَا

وسَارُوْا بِهَا تَحْتَ وَهْجِ الشَّمْسِ اللَاهِبِ، حَتَّى تَوَسَّطَتْ الغَزَالَةُ كَبِدَ السَّمَاءِ، وتَعَاقَدَتْ أَشِعَّتُهَا عَلَى صَفْحَةِ الرِّمَالِ، فَبَدَأَ الجَوُّ وكَأَنَّهُ قِسْطٌ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ.

عَنْدَئِذٍ تَوَقَّفُوْا عَنِ المَسِيْرِ، ونَزَلُوْا فَضَرَبُوْا أَخْبِيَتَهُمْ وخِيَامَهُمْ، واسْتَرَاحُوْا فِي ظِلِّهَا الظَّلِيْلِ يَنْعَمُوْنَ بَالطَّعَامِ والشَّرَابِ، وتَرَكُوْا أَمَّ شَرِيْكٍ رضي الله عنها فِي الخَلَاءِ، تَضْرِبُ الشَّمْسُ بِسُخُوْنَتِهَا رَأْسَهَا وبَدَنَهَا، حَتَّى غُشِيَ عَلَيْهَا، وفَقَدَتْ كُلَّ حِسٍّ أَوْ شُعُوْرٍ بِمَا حَوْلَهَا.

وتَصِفُ لَنَا ذَلِكَ فَتَقُوْلُ:

ـ وتَرَكُوْنِي فِي الشَّمْسِ حَتَّى ذَهَبَ عَقْلِي وسَمْعِي وبَصَرِيْ.

ولَمْ يَنْفَعْهَا رضي الله عنها إِقْبَالُ اللَيْلِ، فَقَدْ كَانَ أَشَدَّ وَطْأَةً مِنَ النَّهَارِ، تَتَدَنَّى فِيْهِ الحَرَارَةُ إِلَى حَدٍّ كَبِيْرٍ، ويَشْتَدُّ البَرْدُ، فَكَمَا كَانَتْ تُعَانِيْ مَنَ القَيْظِ فِي النَّهَارِ كَانَتْ تُعَانِيْ مِنَ الصَّقِيْعِ فِي اللَيْلِ.

واسْتَمَرَّ القَوْمُ فِي تَعْذِيْبِ أُمِّ شَرِيْكٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، كَانَتْ كَافِيَةً مِنَ النَّاحِيَةِ الزَّمَنِيَّةِ لِلقَضَاءِ عَلَى أَمْثَالِهَا مِنَ النَّاسِ، ولَكِنَّ اللهَ تَعَالَى كَانَ يَمُدُّهَا بَالعَوْنِ والعَافِيَةِ، والصَّبْرِ عَلَى البَأْسَاءِ والضَّرَاءِ.

ثُمَّ جَاؤُوْهَا وفِي ظَنِّهِمْ أَنَّهَا قَدْ لَقِيَتْ مِنَ العَذَابِ مَا يَكْفِيْ لِصَرْفِهَا

عَنْ مُتَابَعَةِ الدِّيْنِ الجَدِيْدِ، وإِقْنَاعِهَا بِتَغْيِيْرِ المَوْقِفِ، وإِلَّا فَإِنَّ الهَلَاكَ يَنْتَظِرُهَا...

جَاؤُوْهَا فَقَالُوْا لَهَا

ـ اتْرُكِي مَا أَنْتِ عَلَيْهِ...

فَتَقُوْلُ:

ـ فَمَا دَرَيْتُ مِمَّا يَقُوْلُوْنَ إِلَّا الكَلِمَةَ بَعْدَ الكَلِمَةِ.

هَذَا مَا عَلِقَ بِذِهْنِهَا، والْتَقَطَتْهُ أُذُنُهَا، ولَكِنَّ لِسَانَهَا رضي الله عنها عَجَزَ عَنِ الجَوَابِ، حَاوَلَتْ تَحْرِيْكَهُ بِكَلِمَةِ: لَا، ولَكِنْ دُوْنَ فَائِدَةٍ فَقَدْ يَبِسَ فِي فَمِهَا، بَعْدَ أَنْ جَفَّ رِيْقُهَا، فَكَأَنَّهُ قِطْعَةٌ مِنَ الخَشَبِ الصُّلْبِ...

لِكِنَّهَا اسْتَطَاعَتْ أَنْ تُحَرِّكَ إِصْبَعَهَا السَّبَّابَةَ نَحْوَ الأَعْلَى، مُشِيْرَةً بِالتَّوْحِيْدِ.

فَمَا ازْدَادَ القَوْمُ إِلَّا غَضَبَاً وطُغْيَانَاً وكُفْرَاً...

فَأَمْهَلُوْهَا لَعَلَّهَا تُحِسُّ بِوَطْأَةِ المَوْتِ والهَلَاكِ فَتَسْتَغِيْثُ وتُغَيِّرُ رَأْيَهَا، وَانْصَرَفُوْا عَنْهَا.

وبَلَغَ الجَهْدُ بِأُمِّ شَرِيْكٍ أَوْجَهُ، وقَارَبَتْ أَنْفَاسُهَا مِنَ النِّهَايَةِ، عَنْدَئِذٍ أَحَسَّتْ بِبُرُوْدَةٍ عَلَى صَدْرِهَا، رَغْمَ لَظَى الشَّمْسِ، فَإِذَا بِدَلْوٍ مُتَدَلٍّ مِنَ

أَعْلَى رَأْسِهَا، تَنْسَكِبُ مِيَاهُهُ فَتَطْفِئُ حَرَارَةَ جَوْفِهَا، ثُمَّ يَقْتَرِبُ بِتؤُدَةٍ مِنْ فَمِهَا لِيُعْطِيَهَا شَرْبَةً وَاحِدَةً... لَا غَيْر.

ثُمَّ يَرْتَفِعُ، فَحَاوَلَتْ الإِمْسَاكَ بِهِ لِتَشْرَبَ أَكْثَرَ وأَكْثَرَ، ولَكِنْ عَلَى غَيْرِ طَائِلٍ، وإِذَا بِهِ مُعَلَّقٌ بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ، بَعِيْدَاً عَنْ مُتَنَاوَلِ يَدِهَا.

ثُمَّ دُلِّيَ إِلَيْهَا ثَانِيَةً، فَشَرِبَتْ مِنْهُ نَفْسَاً، ثُمَّ رُفِعَ إِلَى المَكَانِ الذِي كَانَ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ، بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ...

ثُمَّ دُلِّيَ ثَالِثَةً فَشَرِبَتْ مِنْهُ حَتَّى ارْتَوَتْ، وأَفَاضَتْ مِنْ مَائِهِ عَلَى رَأْسِهَا وَبَدَنِهَا، حَتَّى تَبَلَّلَتْ ثِيَابُهَا، وكَأَنَّهَا خَارِجَةٌ مِنْ بِرْكَةِ مَاءٍ.

وهُنَا نُحِبُّ أَنْ نَتَوَقَّفَ قَلِيْلَاً عِنْدَ أَمْرَيْنِ اثْنَيْنِ:

أَوَّلُهُمَا: مِاءُ الدَلْوِ الذِيْ شَرِبَتْ مِنْهُ أُمُّ شَرِيْكٍ، ثُمَّ أَرَاقَتْهُ عَلَى نَفْسِهَا، فَهَذِهِ كَرَامَةٌ أَكْرَمَ اللهُ تَعَالَى بِهَا هَذِهِ المُؤْمِنَةَ الصَّادِقَةَ الثَّابِتَةَ عَلَى الإِيْمَانِ واليَقِيْنِ، التِي لَا تَخْشَى عَذَابَاً ولَا رَهَقَاً فِي سَبِيْلِ اللهِ.

وسَوَاءٌ أَكَانَ المَاءُ حَقِيْقَةً أَمْ سَرَابَاً، فَإِنَّ طُمَأْنِيْنَةَ الإِيْمَانِ واليَقِيْنِ التِي خَالَطَتْ قَلْبَ أُمِّ شَرِيْكٍ وأَضْحَتْ جُزْءَاً مِنْهُ، جَعَلَتْ مِنْ حَرَارَةِ الشَّمْسِ وسُخُوْنَةِ الهَوَاءِ بَرْدَاً وسَلَامَاً، ومَاءً زُلَالَاً قُرَاحَاً.

والأَمْرُ الثَّانِيْ: هُوَ الحِكْمَةُ فِي كَيْفِيَّةِ الشُرْبِ، حِكْمَةٌ صِحِّيَّةٌ طِبِّيَّةٌ، إِذْ لَو أَخَذَ الظَّامِئُ الشَّدِيْدُ العَطَشِ، المَاءَ دُفْعَةً وَاحِدَةً لَأَضَرَّهُ وآذَاهُ، أَمَّا أَنْ

يَأْخُذَهُ بِالتَّدَرُّجِ، وَعَلَى مَرَاحِلَ، كَمَا حَدَثَ لِأُمِّ شَرِيْكٍ رضي الله عنها فَفِي ذَلِكَ الفَائِدَةُ كُلَّ الفَائِدَةِ.

إِسْلَامُ أَعْدَائِهَا

نَعُوْدُ إِلَى إِلَى أُمِّ شَرِيْكٍ رضي الله عنها إِذْ جَاءَهَا القَوْمُ المُعَذِّبُوْنَ لِيَرَوْا مَا حَلَّ بِهَا، وهَلْ غَيَّرَتْ رَأْيَهَا، فَهَالَهُمْ مَا شَهِدُوْا !!

رَأَوْهَا مُسْتَرِيْحَةً نَشِيْطَةً، مُبَلَّلَةَ الشَّعْرِ والوَجْهِ والثَّوْبِ، فَكَيْفَ اسْتَحْصَلَتْ عَلَى المَاءِ، ومِنْ أَيْنَ جَاءَهَا؟ لَعَلَّ أَحَدَهُمْ سَاعَدَهَا خِفْيَةً عَنْ البَاقِيْنَ.

وقَالُوا:

ـ مِنْ أَيْنَ لَكِ هَذَا يَا عَدُوَّةَ اللهِ ؟

قَالَتْ:

ـ إِنَّ عَدُوَّةَ اللهِ غَيْرِي، مَنْ خَالَفَ دِيْنَهُ، وأَمَّا قَوْلُكُمْ مِنْ أَيْنَ هَذَا ؟ فَمِنْ عِنْدِ اللهِ، رِزْقاً رَزَقَنِيْهِ اللهُ.

ولَمْ يُصَدِّقُوا عُيُوْنَهُمْ وآذَانَهُمْ، فَانْطَلَقُوْا مُسْرِعِيْنَ إِلَى قِرَبِهِمْ، وإِدَاوَاتِهِمْ، فَوَجَدُوهَا مُوْكَأَةً[1] لَمْ تُحَلَّ...

(١) ـ مَرْبُوْطَةً

عَنْدَئِذٍ لِمْ يَجِدْ الظَّالِمُوْنَ مَنَاصَاً مِنَ التَّسْلِيْمِ والاِسْتِسْلَامِ، ولَمْ يَجِدُوْا مَوْئِلًا غَيْرَ الإِيْمَانِ والإِسْلَامِ.

فَقَالُوْا بِلِسَانٍ واحِدٍ:

ـ نَشْهَدُ أَنَّ رَبَّكِ هُوَ رَبُّنَا، وأَنَّ الذِي رَزَقَكِ مَا رَزَقَكِ فِي هَذَا المَوْضِعِ، بَعْدَ أَنْ فَعَلْنَا بِكِ مَا فَعَلْنَاهُ، هُوَ الذِي شَرَعَ الإِسْلَامَ.

ثُمَّ أَسْلَمُوا وآمَنُوا، وانْطَلَقُوا مِنْ فَوْرِهِم، دُوْنَ الرُّجُوْعِ إِلَى دِيَارِهِمْ نَحْوَ المَدِيْنَةِ، وبَايَعُوا رَسُوْلَ اللهِ ﷺ، وأَقَامُوْا هُنَاكَ، يَعْرِفُوْنَ فَضْلَ أُمِّ شَرِيْكٍ ومَكَانَتَهَا عِنْدَ اللهِ ورَسُوْلِهِ.

العَطَاءُ

وكَانَ أَبُو الفَكَرِ زَوْجُهَا قَدْ تُوُفِّيَ، وكَانَتْ أُمُّ شَرِيْكٍ قَدْ أَسَنَّتْ وكَبِرَتْ، ولَكِنَّهَا كَانَتْ تَحْتَفِظُ بِمَسْحَةٍ مِنَ الجَمَالِ، فَوَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ .

قَالَتْ:

ـ إِنِّي أَهَبُ نَفْسِيَ لَكَ وأَتَصَدَّقُ بِهَا عَلَيْكَ، فَقَبِلَهَا النَّبِيُّ ﷺ.

فَقَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها:

ـ مَا فِي امْرَأَةٍ، حِيْنَ تَهَبُ نَفْسَهَا لِرَجُلٍ، خَيْرٌ...

فَرَدَّتْ أُمُّ شَرِيْكٍ:

أَنَا تِلْكَ.

وسَمَّاهَا اللهُ تَعَالَى مُؤْمِنَةً، وأَنْزَلَ فِيْهَا قُرْآنًا:

﴿ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾ (ٱلأحْزَاب: 50).

فَقَالَتْ عَائِشَة:

ـ إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَيُسْرِعُ لَكَ فِي هَوَاكَ.

قِصَّةُ العُكَّةِ

ويُحْكَى أَنَّهُ كَانَ لِأُمِّ شَرِيْكٍ عُكَّةٌ[1]، تُعِيْرُهَا مَنْ أَتَاهَا، فَاسْتَامَهَا رَجُلٌ (أَيْ سَاوَمَهَا عَلَى شِرَائِهَا)، فَقَالَتْ:

ـ مَا فِيْهَا رُبٌّ...

ثُمَّ نَفَخَتْهَا وعَلَّقَتْهَا فِي الشَّمْسِ لِتَجِفَّ وتَنْظَفْ...

وتَدَخَّلَتْ إِرَادَةُ اللهِ تَعَالَى فِي عُكَّةِ أُمِّ شَرِيْكٍ، فَإِذَا هِيَ مَمْلُوْءَةٌ سَمْنَاً.

فَكَانَ يُقَالُ فِي كُلِّ المَدِيْنَةِ:

ـ ومِنْ آيَاتِ اللهِ عُكَّةُ أُمِّ شَرِيْكٍ.

والبَرَكَةُ الحَاصِلَةُ فِي هَذِهِ العُكَّةِ، أَنَّهَا كَانَتْ تُهْدِيْ بِهَا سَمْنَاً لِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ.

---

(١) ـ وعِاءٌ يُوْضَعُ فِيهِ السَّمْنُ

ومِمَّا يُحْكَى، أَنَّ صِبْيَانَهَا طَالَبُوْهَا ذَاتَ يَوْمٍ بِسَمْنٍ، فَقَامَتْ إِلَى العُكَّةِ لِتَنْظُرَ إِلَيْهَا، فَإِذَا بِهَا تَسِيْلُ، فَصَبَّتْ لَهُمْ مِنْهُ، فَأَكَلُوْا حِيْنَاً، ثُمَّ عَادَتْ لِتَرَى مَا بَقِيَ، ثُمَّ صَبَّتْهُ كُلَّهُ...

وقَصَّتْ عَلَى رَسُوْلِ اللهِ ﷺ مَا حَدَثَ، فَقَال:

ـ أَصَبْتِهِ ؟ أَمَا إِنَّكِ لَوْ لَمْ تَصُبِّيْهِ لَقَامَ لَكِ زَمَانَاً.

مَوْتُهَا

واسْتَمَرَّتْ رضي الله عنها فِي مَيْدَانِ البَرِّ وَصِلَةِ الضُّعَفَاءِ المُعْوِزِيْنَ بِكُلِّ مَا تَيَسَّرَ لَهَا مِنْ مَالٍ وعَطَاءٍ، سَيِّدَةً مِنَ المُسْلِمَاتِ الخَالِدَاتِ، طَيِّبَةَ السُمْعَةِ، كَرِيْمَةَ الصِّيْتِ، مُقَدَّرَةً مُحْتَرَمَةً مِنَ الجَمِيْعِ.

لَقَدْ وَهَبَتْ أُمُّ شَرِيْكٍ نَفْسَهَا لِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ فَقَبِلَ مِنْهَا ذَلِكَ ولَمْ يَتَزَوَّجْهَا، ولَمْ يَدْخُلْ بِهَا.

وظَلَّتْ طِيْلَةَ مَا بَقِيَ لَهَا مِنَ العُمْرِ والحَيَاةِ، تَحْمِلُ هَذِهِ الصِّفَةَ الكَرِيْمَةَ، واللَّقَبَ الجَمِيْلَ، «اِمْرَأَةٌ مُؤْمِنَةٌ»...

ثُمَّ أُسْدِلَ السِّتَارُ عَلَى فَصْلٍ مِنْ أَمْجَدِ الفُصُوْلِ فِيْ حَيَاةِ المُؤْمِنَاتِ القَانِتَاتِ العَابِدَاتِ، وطُوِيَتْ صَفْحَةٌ فِي هَذَا السِّجِلِّ العَظِيْمِ.

ولَا نَعْلَمُ بَالضَّبْطِ تَارِيْخَ وَفَاةِ أُمِّ شَرِيْكٍ رضي الله عنها رَغْمَ كَثْرَةِ المَصَادِرِ التَّارِيْخِيَّةِ التِي تَحَدَّثَتْ عَنْ إِسْلَامِهَا وإِيْمَانِهَا، وهِبَتِهَا نَفْسَهَا لرَسُوْلِ اللهِ ﷺ.

رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، مُسْلِمَةً مُؤْمِنَةً، مُعَذَّبَةً صَابِرَةً، وكَرِيْمَةً خَيِّرَةً سَخِيَّةً، وامْرَأَةً اِقْتَرَنَ اِسْمُهَا باسْمِ أَشْرَفِ الأَسْمَاءِ وأَكْرَمِهَا وأَعْظَمِهَا، اسْم مُحَمَّدٍ ﷺ.

وأَنْزَلَهَا مَنَازِلَ الأَبْرَارِ الصَّالِحِيْنَ، مَعَ الصِّدِّيْقِيْنَ والشُّهَدَاءِ والصَّالِحِيْنَ وحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيْقَاً.

❊ ❊ ❊

أُمُّ رُومَانَ

رَضِيَ اللهُ عَنْهَا

"زَوْجَةُ الصِّدِّيقِ وأُمُّ الصِّدِّيقَةِ"

رُوِيَ عَنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ قَوْلُهُ:

«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى امْرَأَةٍ مِنَ الحُوْرِ العِيْنِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى أُمِّ رُوْمَانَ».

وإِنِّي لَا أَتَصَوَّرُ أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ قَدْ عَنَى بِقَوْلِهِ هَذَا وَضَاءَةَ أُمِّ رُوْمَانَ أَوْ جَمَالَهَا أَو بَهَاءَهَا...أَبَدَاً !! إِنَّمَا كَانَ يَعْنِي طَهَارَةَ القَلْبِ وصَفَاءَهُ، وَبَرَاءَةَ النَّفْسِ المُؤْمِنَةِ مِنَ الدَّنَسِ وقُدْسِيَّتِهَا، تِلْكَ النَّفْسُ التِي تَجَمَّلَتْ بِهَا أُمُّ رُوْمَانَ رضي الله عنها.

فَمَا مِنْ مَوْقِفٍ وَقَفْتُهُ مَعَ مَرَاحِلِ حَيَاتِهَا إِلَّا وأُخِذْتُ بِشَخْصِيَّتِهَا الفَذَّةِ، زَوْجَةً... وأُمَّاً... وصَحَابِيَّةً جَلِيْلَةً.

زَوْجَةً لِأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيْقِ رضي الله عنه وأُمَّاً لِعَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِيْنَ رضي الله عنها، وصَحَابِيَّةً آمَنَتْ وصَدَّقَتْ وأَسْلَمَتْ، صَبَرَتْ وتَحَمَّلَتْ وهَاجَرَتْ وجَاهَدَتْ، ورَوَتْ عَنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ، ورَوَى عَنْهَا بَعْضُ الصَّحَابَةِ، فَأَسْهَمَتْ فِي إِثْرَاءِ التُّرَاثِ الإِسْلَامِيِّ.

فَكَانَتْ ﵂ عَلَمَاً مِنَ الأَعْلَامِ، وخَالِدَةً فِي الخَالِدَاتِ مِنَ المُسْلِمَاتِ الأَوَائِلِ اللواتِي قَامَتْ عَلَى أَكْتَافِهِنَّ دَعْوَةُ الإِسْلَامِ، تَرْبِيَةً لِأَوْلَادِهِنَّ وتَهْذِيْبَاً، وتَوْجِيْهَاً وإِرْشَادَاً.

ولَا أَنْسَى مَوْقِفَهَا يَوْمَ حَادِثَةِ الإِفْكِ، يَوْمَ رُمِيَتْ الصِّدِّيْقَةُ عَائِشَةُ ﵂ اِبْنَتُهَا بِالإِفْكِ، وافْتُرِيَ عَلَيْهَا، فَقَدْ تَجَلَّى إِيْمَانُهَا فِي أَرْوَعِ صُوْرَةٍ وأَسْمَى هَيْئَةٍ، وبَلَغَتْ أَقْصَى الذُّرا فِي الصَّبْرِ والاِحْتِسَابِ.

وتَتَجَمَّعُ المَوَاقِفُ الجَلِيْلَةُ فِي حَيَاةِ أُمِّ رُوْمَانَ ﵂ لِتُكَوِّنَ شَخْصِيَّتَهَا الرَّائِعَةَ، ولِتَسْتَحِقَّ عَنْ جَدَارَةٍ هَذِهِ الشَّهَادَةَ العُظْمَى، مِنْ أَعْظَمِ الخَلْقِ ورَسُوْلِ الحَقِّ وسَيِّدِ الأَنَامِ، فَيَقُوْلُ فِي حَقِّهَا:

«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى امْرَأَةٍ مِنْ الحُوْرِ العِيْنِ فَلْيَنْظُر إِلَى أُمِّ رُوْمَانَ».

فَهَنِيْئَاً لَكِ سَيِّدَتِي هَذَا المَقَامُ...

نَسَبُهَا ونَشْأَتُهَا

هِيَ: أُمُّ رُوْمَانَ[1] بِنْتُ عَامِرِ بنِ عُوَيْمِرِ بنِ عَبْدِ شَمْسٍ.

نَشَأَتْ فِي مَنْطِقَةٍ مِنْ أَرْضِ جَزِيْرَةِ العَرَبِ تُدْعَى السَّرَاةُ مَعَ قَوْمِهَا

(١) ـ لَمْ أَجِد فِي طَبَقَاتِ ابن سعد ولا في كتاب الاصابة أو أسد الغابة اسماً صريحاً لام رومان سوى اسم الكنية.

وأَهْلِهَا، حَتَّى إِذَا أَصْبَحَتْ كَاعِبَاً، ونَضِجَتْ أُنُوْثَةً، رَغِبَ فِي الزَّوَاجِ مِنْهَا أَحَدُ الشُّبَّانِ البَارِزِيْنَ فِي الحَيِّ وفِي القَوْمِ، ويَدْعَى: الحَارِثُ بنُ سَخْبَرَةَ ابنِ جَرْثُوْمَةَ مِنَ الأَزَدِ.

فَزَوَّجَهَا أَبُوْهَا مِنْ هَذَا الشَّابِّ، فَعَاشَتْ أُمُّ رُوْمَانَ مَعَهُ فَتْرَةً حَتَّى وَلَدَتْ لَهُ ولَدَهُمَا: «الطُّفَيْل».

إِلَى مَكَّةَ

ويَبْدُو أَنَّ زَوْجَهَا الحَارِثُ كَانَ فِي تَوْقٍ إِلَى الإِقَامَةِ بِمَكَّةَ، مُجَاوِرَاً لِبَيْتِ اللهِ الحَرامِ، رَاغِبَاً فِي حَيَاةِ قُرَيْشٍ ونَمَطِهَا...

فَقَصَدَ مَكَّةَ مَعَ زَوْجَتِهِ وطِفْلِهِ.

وعَلَى عَادَةِ العَرَبِ فِي ذَلِكَ الحِيْنِ، كَانَ لَا بُدَّ للحَارِثِ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ فِي حِلْفِ أَحَدِ الأَشْخَاصِ البَارِزِيْنَ فِي مَكَّةَ، ويَحْتَمِي بِهِ ويَنْتَصِرُ ويَقْوَى...، فَحَالَفَ عَبْدَ اللهِ بنَ أَبِي قُحَافَةَ «أَبُوْ بَكْرٍ الصِّدِّيْقُ» رضي الله عنه.

وكَانَ ذَلِكَ قَبْلَ الإِسْلَامِ، وقَبْلَ ظُهُوْرِ النَّبِيِّ ﷺ، دَاعِيَاً إِلَى اللهِ تَعَالَى.

العُرْفُ والتَّقْلِيْدُ

وبَعْدَ فَتْرَةٍ مِنَ الزَّمَنِ أَقَامَهَا الحَارِثُ مَعَ زَوْجَتِهِ أُمِّ رُوْمَانَ فِي مَكَّةَ اخْتَرَمَتْهُ يَدُ المَنُوْنِ، وتَوَفَّاهُ اللهُ تَعَالَى، فَبَقِيَتْ أُمُّ رُوْمَانَ وَحِيْدَةً تَرْعَى ولَيْدَهَا الطُّفَيْلَ.

وكَانَ مِنْ تَقَالِيْدِ العَرَبِ المُتَّبَعَةِ فِي ذَلِكَ الحِيْنِ أَنَّ الرَجُلَ مِنْهُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُكْرِمَ صَاحِبَهُ بَعْدَ مَمَاتِهِ بَنَى بِإِمْرَأَتِهِ وتَزَوَّجَ مِنْ أَرْمَلَتِهِ مُحَافَظَةً مِنْهُ عَلَى العَهْدِ والوَعْدِ.

لِذَا تَقَدَّمَ أَبُوْ بَكْرٍ الصِّدِّيْقُ رضي الله عنه للزَّوَاجِ مِنْ أُمِّ رُوْمَانَ، فَقَبِلَتْ بِهِ ورَحَّبَتْ، وضَمَّهُمَا بَيْتُ الزَّوْجِيَّةِ.

وكَانَ أَبُوْ بَكْرٍ رضي الله عنه مُتَزَوِّجاً قَبْلاً، وعَنْدَهُ مِنَ الوَلَدِ:

«عَبْدُ اللهِ» و«أَسْمَاءُ» رضي الله عنهما.

ووَلَدَتْ أُمُّ رُوْمَانَ لِأَبِيْ بَكْرٍ وَلَدَيْنِ آخَرَيْنِ هُمَا: «عَبْدُ الرَّحمن» و«عَائِشَةُ» أُمُّ المُؤْمِنِيْنَ.

إِسْلَامُ أُمِّ رُوْمَانَ

لَمْ يَتَأَخَّرْ إِسْلَامُ أُمِّ رُوْمَانَ رضي الله عنها أَبَداً..فَمَا أَنْ آمَنَ الصِدِّيْقُ[1] بِدَعْوَةِ

(١) ـ كانَ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه أَوَّلُ النَّاسِ إِسْلَامَاً.

صَدِيْقِهِ ورَفِيْقِهِ مُحَمَّدٍ بنِ عَبْدِ اللهِ، وأَسْلَمَ وَجْهَهُ وقَلْبَهُ للهِ، وعَادَ إِلَى دَارِهِ مُتَهَلِّلَ الأَسارِيْرِ، تَنْطِقُ قَسَمَاتُهُ بِالبِشْرِ، حَتَّى حَدَّثَ أُمَّ رُوْمَان بِمَا كَانَ...، فَآمَنَت مَعَه وأَسْلَمَتْ، فاسْتَكْتَمَهَا الأَمْرَ، إِلَى أَنْ يَقْضِيَ اللهُ أَمْرَاً كَانَ مَفْعُوْلَاً...

البَيْتُ المُسْلِمُ

فَتَحَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها عَيْنَيْهَا وقَلْبَهَا عَلَى جَوٍّ تَشِعُّ فِي أَرْجَائِهِ أَضْوَاءُ الإِيْمَانِ وتَنْتَشِرُ فِي جَنَبَاتِهِ رِيَّا الإِسْلَامِ، بَيْنَ أَبٍ رَاكِعٍ سَاجِدٍ وأُمٍّ عَابِدَةٍ مُتَعَبِّدَةٍ، ورَسُوْلٍ كَرِيْمٍ ونَبِيٍّ عَظِيْمٍ يُشَرِّفُ الدَّارَ بَيْنَ الحِيْنِ والحِيْنِ بَطَلْعَتِهِ وإِهْلَالِهِ، وكَانَتْ أُمُّ رُوْمَانَ تَلْقَى النَّبِيَّ ﷺ بِالبِشْرِ والحُبُوْرِ، وتُضِيْفُهُ أَحْسَنَ الضِّيَافَةِ، وتُقَدِّمُ لَهُ كُلَّ وَسَائِلِ الأَمْنِ والرَّاحَةِ والهَنَاءِ...

وبِهَذَا ـ عَزِيْزِي القَارِئَ ـ كَانَتْ دَارُ أَبِي بَكْرٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَى رَسُوْلِ اللهِ ﷺ مأْوَىً كَرِيْمَاً ومَقِيْلَاً عَزِيْزَاً، وبَيْتَاً إِسْلَامِيَّاً طَيِّبَاً، عُنْوَانَاً ورَمْزَاً.

صَبْرُهَا وتَحَمُّلُهَا

كَانَتْ أَيَّامُ مَكَّةَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى المُسْلِمِيْنَ الأَوائِلِ أَيَّامَاً صَعْبَةً، قَاسِيَةً مَرِيْرَةً، تَحَمَّلُوْا خِلَالَهَا مِنْ جَبَرُوْتِ الكُفْرِ وطُغْيَانِ الشِّرْكِ مَا تَنُوْءُ بِحَمْلِهِ الجِبَالُ

الرَّوَاسِيَ، فَكَانَتْ أُمُّ رُوْمَانَ رضي الله عنها بَالنِّسْبَةِ لِزَوْجِهَا الصِّدِّيْقُ نِعْمَ الزَّوْجَةِ الصَّالِحَةِ، تُخَفِّفُ عَنْه آلَامَهُ وتُوَاسِيْهِ فِي سَاعَةِ الشِّدَّةِ، وتَبْسُطُ لَهُ وَجْهَهَا وثَوْبَهَا، وتَقُومُ عَلَى رِعَايَةِ أُسْرَتِهَا حَقَّ القِيَامِ، لَا تُؤَاخِذُهُ فِيْمَا يُنْفِقُ عَلَى الدَّعْوَةِ، بَلْ تُشَارِكُهُ الحَمَاسَ والتَّأْيِيْدَ فِي ذَلِكَ.

ولَقَدْ عُرِفَ واشْتُهِرَ عَنْ أَبِيْ بَكْرٍ رضي الله عنه أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَثْرِيَاءِ مَكَّةَ بِحُكْمِ التِّجَارَةِ الوَاسِعَةِ التِي كَانَ يَنْهَضُ بِهَا ويَقُوْمُ، ولَقَدْ أَنْفَقَ فِي شِرَاءِ حُرِّيَّةِ الكَثِيْرِيْنَ مِنْ ضِعَافِ المُسْلِمِيْنَ مَالاً كَثِيْرَاً، حَتَّى اشْتَدَّتْ عَلَيْهِ وعَلَى بَيْتِهِ وأَهْلِهِ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ وَطْأَةُ الحَيَاةِ وقَسْوَةُ العَيْشِ، فَمَا كَانَتْ أُمُّ رُوْمَانَ لِتَتَأَفَّفَ أَوْ تَتَضَجَّرَ، بَلْ تَصْبِرُ مُحْتَسِبَةً ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى.

كَمَا أَنَّهَا رَبَّتْ وَلَدَيْهَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ وعَائِشَةَ أَحْسَنَ التَّرْبِيَةِ ورَعَتْهُمَا أَحْسَنَ الرِّعَايَةِ، وسَدَّدَتْ فِي ذَلِكَ حَتَّى بَلَغَتْ أَسْمى الذُّرَا.

المُصَاهَرَةُ النَّبَوِيَّةُ

تَعَاقَبَتِ الأَيَّامُ والسِّنِيْنَ عَلَى المُسْلِمِيْنَ بِمَكَّةَ، بَيْنُ هُبُوْبٍ ورُكُوْدٍ، وقَبْلَ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ تَعَالَى لِرَسُوْلِهِ وللمُؤْمِنِيْنَ بِالهِجْرَةِ إِلَى المَدِيْنَةِ...رَأَى النَّبِيُّ ﷺ فِي مَنَامِهِ جِبْرِيْلَ الأَمِيْنَ يَحْمِلُ إِلَيْهِ صُوْرَةَ عَائِشَةَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ

عَلَى سُرْقَةٍ مِنْ حَرِيْرٍ ويَقُوْلُ لَهُ:

ـ هَذِهِ زَوْجَتُكِ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ...

وانْصِيَاعاً لِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى فَاتَحَ النَّبِيُّ ﷺ صَدِيْقَهُ ورَفِيْقَهُ فِي الأَمْرِ، فَقَالَ أَبُوْ بَكْرٍ:

ـ إِنَّهَا مَا تَزَالُ صَغِيْرَةً يَا رَسُوْلَ اللهِ[1] ولَكِنِّي سَأُرْسِلُهَا إِلَيْكَ لِتَرَاهَا.

وعَادَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى دَارِهِ، وعَلَامَاتُ الحَيْرَةِ والتَّرَدُّدِ بَادِيَةٌ فِي وَجْهِهِ، فَسَأَلَتْهُ أُمُّ رُوْمَانَ عَمَّا يَهُمُّهُ... فَحَدَّثَهَا فِي الأَمْرِ، فَلَمْ تَبْتَئِسْ ولَمْ تَحْزَنْ، بَلْ انْفَرَجَتْ أَسَارِيْرُهَا، وسُرَّتْ أَيُّمَا سُرُورٍ، إِذْ كَانَتْ مُصَاهَرَةُ النَّبِيِّ ﷺ شَرَفٌ لَا يُدَانِيْهِ شَرَفٌ، ورَاحَتْ مِنْ ثَمَّ تُحَدِّثُ زَوْجَهَا الصِّدِّيْقَ وتُسَايِرُهُ حَتَّى ذَهَبَ مَا بِهِ مِنْ وَقْعِ المُفَاجَأَةِ.

عَلَى بَرَكَةِ اللهِ

ودَخَلَتْ عَائِشَةُ بَيْتَ النَّبِيِّ ﷺ حَامِلَةً بِيَدِهَا جَفْنَةً فِيْهَا تَمْرٌ وقَالَتْ كَمَا عَلَّمَهَا وَالِدَاهَا:

ـ هَذَا كُلُّ مَا عَنْدَنَا يَا رَسُولَ اللهِ...

فَنَظَرَ إِلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ مَلِيًّا ثُمَّ قَالَ:

(١) ـ اِختُلِفَ فِي سنِّ عائشة رضي الله عنها إذ ذاك، فقد قيل إنها كانت في الثامنة وبعضهم قال في التاسعة من عمرها.

ـ عَلَى بَرَكَةِ اللهِ...

وعَادَتْ عَائِشَةُ إِلَى حِضْنِ أُمِّهَا وحِجْرِ أَبِيْهَا فَسَأَلَاهَا عَمَّا قَالَهُ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرَتْهُمَا بِمَا سَمِعَتْ مِنْ فَمِهَ الشَّرِيْفِ، وهِيَ لَا تَدْرِي مِنْ أَمْرِ ذَهَابِهَا وعَوْدَتِهَا شَيْئَاً، ولَا بِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ.

ثُمَّ اِتَّفَقَ النَّبِيُّ ﷺ مَعَ الصِدِّيْقِ عَلَى خِطْبَةِ عَائِشَةَ والبِنَاءِ بِهَا بَعْدَ ذَلِكَ رَيْثَمَا تَكْتَمِلُ نُضْجَاً وأُنُوْثَةً.

ولَقَدْ تَمَّ ذَلِكَ فِي هُدُوءٍ واطْمِئْنَانٍ، ودُوْنَ عَجِيْجٍ أَوْ ضَجِيْجٍ.

المُهَاجِرَانِ

ازْدَادَ أَذَى المُشْرِكِيْنَ للمُسْلِمِيْنَ، وتَفَاقَمَ طُغْيَانُهُمْ وظُلْمُهُمْ واِسْتِبْدَادُهُمْ، وبَلَغُوْا الذِرْوَةَ يَوْمَ عَوَّلُوْا عَلَى قَتْلِ نَبِيِّهِمْ، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وأَزْكَى التَّسْلِيْمِ.

وكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ أَذِنَ لِأَصْحَابِهِ بِالهِجْرَةِ إِلَى المَدِيْنَةِ المُنَوَّرَةِ بَعْدَ أَنْ بَايَعَهُ أَهْلُهَا مِنَ «الأَوْسِ» و«الخَزْرَجِ» عَلَى نُصْرَةِ الدِّيْنِ، وحَمْلِ لِوَاءِ الإِسْلَامِ. فَتَقَاطَرَتْ وفُوْدُ المُهَاجِرِيْنَ، فُرَادَى وجَمَاعَاتٍ إِلَى يَثْرِبَ.

وأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه يَسْتَحِثُّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَيْ يَأْذَنَ لَهُ ولِأَهْلِهِ بِالهِجْرَةِ، فَيُؤَخِّرُهُ النَّبِيُّ ﷺ، بِانْتِظَارِ أَمْرِ اللهِ تَعَالَى.

وكَانَتْ أُمُّ رُوْمَانَ تَسْأَلُ زَوْجَهَا الصِّدِّيْقَ كُلَّمَا عَادَ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: هَلْ أَذِنَ لَهُ بِالهِجْرَةِ، رَغْبَةً مِنْهَا فِي الإِلْتِحَاقِ بِالمُسْلِمِيْنَ الذِيْنَ سَبَقُوْا إِلَى يَثْرِبَ خُلُوصاً وتَحَوُّطاً مِنْ أَذَى المُشْرِكِيْنَ وعَذَابِهِمْ، فَكَانَ رضي الله عنه يُجِيْبُهَا بَالنَّفْيِ فَتَسْكُتُ وتَصْبِرُ...

وفِي ذَاتِ يَوْمٍ طَلَبَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أَبِي بَكْرٍ أَنْ يُهَيِّئَ الزَّادَ والرَّاحِلَةَ لِشَخْصَيْنِ اثْنَيْنِ!!

وكَمْ كَانَتْ فَرْحَةُ الصِّدِّيْقِ بَالِغَةً...، ولَكِنَّهُ تَذَكَّرَ أَهْلَهُ... زَوْجَتَهُ أُمَّ رُوْمَانَ وبَنَاتِهِ وأَبْنَائَهُ فَمَاذَا يَفْعَلُ بِهِمْ جَمِيْعَاً ؟ هَلْ يَتْرُكُهُمْ بَيْنَ يَدَيْ قُرَيْشٍ رَهِيْنَةً تَضْغَطُ بِهِم عَلَى إِيْمَانِهِ وإِسْلَامِهِ؟!

ولَقَدْ رَأَتْهُ أُمُّ رُوْمَانَ واجِماً مَهْمُوْماً، فَسَأَلَتْهُ عَنْ السَّبَبِ فَأَخْبَرَهَا، فَتَبَسَّمَتْ ابْتِسَامَةً أَشْرَقَ فِيهَا الإِيْمَانُ مُضِيْئَاً مُشِعَّاً فَوْقَ ثَغْرِهَا، ثُمَّ قَالَتْ:

ـ إِنَّ لَنَا فِي آلِ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ...

واضْطَلَعَتْ رضي الله عنها بِعِبْءِ جَسِيْمٍ طِيْلَةَ أَيَّامِ الإِخْتِفَاءِ فِي الغَارِ، مُتَحَمِّلَةً شِدَّةَ التَقْرِيْعِ القُرَشِيِّ والسِّبَابَ الجَاهِلِيَّ، خُصُوصَاً عِنْدَمَا وَقَفَ أَبُو جَهْلٍ بِبَابِ دَارِ أَبِي بَكْرٍ يُهَدِّدُ أَهْلَهَا ويَتَوَعَّدُهُمْ، وأَيْضَاً عِنْدَمَا لَطَمَ أَسْمَاء[1] رضي الله عنها

(١) ـ أَسْمَاء بنت أبي بكر، أخت عائشة من أبيها رضي الله عنهم.

وازْدَادَ تَحُمُّلُ أُمِّ رُوْمَانَ للمَسْؤُولِيَّةِ عَنْدَمَا أَصْبَحَ النَّبِيُّ ﷺ وصَاحِبَهُ فِي المَدِيْنَةِ فِي مَنْأَى عَنْ أَذَى قُرَيْشٍ...

فَكَانَتْ رضي الله عنها نِعْمَ المُؤمِنَةُ الصَّابِرَةُ، تَتَوَلَّى شُؤُونَ بَيْتِ الزَّوْجِيَّةِ والحِفَاظِ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ سُوْءٍ، وتَدْفَعُ عَنْهُ عَادِيَةُ الظُّلْمِ، وتَنتَظِرُ الفَرَجَ القَرِيبَ، واللُّحُوْقَ بِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ والمُؤْمِنِيْنَ فِي المَدِيْنَةِ.

التَّذْكِيْرُ والبِنَاءُ

وكَانَ خُرُوْجُهَا رضي الله عنها مِنْ مَكَّةَ مُهَاجِرَةً إِلَى المَدِيْنَةِ هِيَ وأَهْلُ بَيْتِهَا، مَعَ خُرُوْجِ بَنَاتِ النَّبِيِّ ﷺ...

وهُنَاكَ اسْتَقْبَلَهُمْ الرَّسُوْلُ الكَرِيْمُ وَصَدِيْقُهُ الصِّدِّيْقُ والمُسْلِمُوْنَ جَمِيْعَاً أَحَرَّ اسْتِقْبَالٍ وأَطْيَبَهُ.

ومَضَتِ الأَيَّامُ...

وشُغِلَ النَّبِيُّ ﷺ بِأُمُوْرِ المُسْلِمِيْنَ أَيَّمَا شُغْلٍ، وانْصَرَفَ بِكُلِّيَّتِهِ إِلَى بِنَاءِ المُجْتَمَعِ الجَدِيْدِ، ونَسِيَ تَمَامَاً مَا كَانَ مِنْ شَأْنِ خِطْبَتِهِ لِ عَائِشَةَ فِي مَكَّةَ، وكَذَلِكَ وَالِدُهَا الصِّدِّيْقُ رضي الله عنه.

وفِي ذَاتِ يَوْمٍ قَالَتْ أُمُّ رُوْمَانَ لِأَبِي بَكْرٍ زَوْجِهَا:

ـ يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَا تُذَكِّرُ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ بِأَمْرِ عَائِشَةَ !!

فَنَظَرَ إِلَيْهَا مُبْتَسِماً، قَدِ اتَّسَعَتْ دَائِرَةُ عَيْنَيْهِ، كَأَنَّهُ تَنَبَّهُ وتَذَكَّرَ أَمْرَاً طَالَ عَلَيْهِ الأَمَدُ.

ثُمَّ قَامَ مِنْ فَوْرِهِ إِلَى رَسُوْلِ اللهِ ﷺ وحَدَّثَهُ بِالأَمْرِ، واتَّفَقَا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، ولَمْ يَكُنْ أَبُو بَكْرٍ لِيَقْتَرِحَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَبَدَاً، فَقَد كَان يَكْفِيْهِ شَرَفُ المُصَاهَرَةِ.

وشَمَّرَتْ أُمُّ رُومَانَ عَنْ سَاعِدِ الجِدِّ، وقَامَتْ عَلَى قَدَمٍ وِسَاقٍ تُدَبِّرُ شُؤُوْنَ ابْنَتِهَا التِي سَتَدْخُلُ بَيْتَ أَكْرَمِ زَوْجٍ.

ودَخَلَ ﷺ بِعَائِشَةَ رضي الله عنها وبَنَى بِهَا، ومِنْ ثُمَّ كَانَ يَتَرَدَّدُ عَلَى بَيْتِ أَبِيْ بَكْرٍ وأُمِّ رُوْمَانَ كَأَنَّهُ يَتَرَدَّدُ عَلَى بَيْتِهِ وأَهْلِهِ، فَقَدْ كَانَ يَجِدُ لَدَى هَذِهِ المَرْأَةِ المُؤْمِنَةِ قَلْبَاً فَيَّاضَاً بِمَحَبَّتِهِ ورِعَايَتِهِ، ونَفْسَاً طَاهِرَةً نَقِيَّةً، ورُوْحَاً تَزْخَرُ بِالإِيْمَانِ...

وكَانَت المُصَاهَرَةُ الجَدِيْدَةُ سَبَبَاً مِن أَسْبَابِ تَقْوِيَةِ الوَشَائِجِ بَيْنَ الصِّدِيْقَيْنِ وبَيْنَ البَيْتَيْنِ.

الشَّاكِرَةُ

تَعَاظَمَتْ فَرحَةُ أُمِّ رُوْمَانَ بِمَا كَانَتْ تَرَاهُ مِنْ حَدَبِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى عَائِشَةَ ومَحَبَّتِهِ لَهَا، وشِدَّةِ عَطْفِهِ عَلَيْهَا، وتَعَلُّقِهِ بِهَا، وإِيْثَارِهِ لَهَا...

ومَا غَرَّهَا ذَلِكَ أَبَدَاً ولا اسْتَخَفَّهَا، بَلْ ظَلَّتْ رَزِيْنَةً عَاقِلَةً، لِأَنَّهَا تُدْرِكُ أَنَّ ذَلِكَ تَدْبِيْرٌ مِنْ أَمْرِ اللهِ تَعَالَى وعِنَايَةٌ مِنْهُ، فَشَكَرَتْهُ سُبْحَانَهُ بَالطَّاعَةِ لَهُ والإِقْبَالِ الشَّدِيْدِ عَلَى عِبَادَتِهِ...

الوَفَاةُ

كَانَتْ هَذِهِ الفَتْرَةُ مِنْ حَيَاةِ أُمِّ رُوْمَانَ رضي الله عنها مِنْ أَقْسَى مَا عَانَتْ ووَاجَهَتْ، ولَقَدْ أَثَّرَ فِيْهَا ذَلِكَ تَأْثِيْرَاً كَبِيْرَاً، وخَطَّ عَلَى صَفْحَةِ فُؤَادِهَا أُخْدُوْدَاً عَمِيْقَاً مِنَ الأَلَمِ والحُزْنِ...

ولَمَّا كَانَتِ السَّنَةُ السَّادِسَةُ مِنَ الهِجْرَةِ[1] مَرِضَتْ أُمُّ رُوْمَانَ فَلَازَمَتْهَا عَائِشَةُ بَعْضَ الوَقْتِ تَقُوْمُ عَلَى خِدْمَتِهَا ورِعَايَتِهَا، حَتَّى تَوفَّاهَا اللهُ تَعَالَى، فَبَكَتْهَا عَائِشَةُ بِالدَّمْعِ الهَتُوْنِ.

ولَقَدْ نَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى رِمْسِهَا عِنْدَ الدَّفْنِ ودَعَا لَهَا، تَكْرِيْمَاً وتَعْظِيْمَاً وعِرْفَانَاً...

(١) ـ وفي رواية اخرى أن وفاتها كانت في السنة الخامسة.

ثُمَّ قَالَ قَوْلَتَهُ الشَّهِيْرَةُ:

«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى امْرَأَةٍ مِنَ الحُوْرِ العِيْنِ... فَلْيَنْظُرْ إِلَى أُمِّ رَوْمَان».

رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وأَرْضَاهَا، وجَعَلَ أَعْلَى الجِنَانِ مَثْوَاهَا، كِفَاءَ مَا آمَنَتْ وصَبَرَتْ وجَاهَدَتْ وهَاجَرَتْ وتَحَمَّلَتْ.

وأَلْحَقَنَا بِهَا فِي الصَّالِحِيْنَ مِنْ عِبَادِهِ.

❊ ❊ ❊

أُمَةُ بِنتُ خَالِدٍ

"ابنةُ سَعيدِ بنِ العاص"

بنت الهجرة - رضي الله عنها

كَانَ - ولَا يَزَالُ - للمَرْأَةِ فِي الإِسْلَامِ دَوْرٌ ومَكانَةٌ...

دوْرُ المُؤْمِنَةِ العَامِلَةِ، سَواءٌ كَانَ ذَلِكَ فِي إِطَارِ البَيْتِ الزَّوْجِيَّ كَزَوْجَةٍ يَسْكُنُ إِلَيْهَا زَوْجُهَا ويَرْتَاحُ إِلَى وُجُوْدِهَا ويَطْمَئِنُّ إِلَى دِفْءِ رُوْحِهَا وحَنَانِهَا، أَوْ أُمٍّ تَحْدُبُ عَلَى أَوْلَادِهِمْ فَتَرْعَاهُمْ وتُغَذِّيْهِمْ وتُرَبِّيهُمْ، وتُعَلِّمُهُمْ الكِتَابَ والحِكْمَةَ، وتُنَشِّئُهُمْ عَلَى التَّقْوَى والإِيْمانِ...،

أَوْ مُتَعَلِّمَةٍ مُتَعَبِّدَةٍ، مُتَفَقِّهَةٍ عَامِلَةٍ...

تَرْتَشِفُ العِلْمَ مِنْ أَصْفَى يَنَابِيْعِهِ، مِن القُرْآنِ والسُّنَّةِ، وتَتَعَبَّدُ فِي المِحْرَابِ مُتَبَتِّلَةً مُتَقَرِّبَةً إِلَى رَبِّهَا، وتَتَفَقَّهُ فِي دِيْنِ اللهِ وفِي شُؤُوْنِ عُلُوْمِ الحَيَاةِ، وتَنْتَفِضُ مِنْ ثَمَّ إِلَى مَيْدَانِ العَمَلِ مُشَارِكَةً مُسَاهِمَةً...

ولَقَدْ كَانَ لِلْمُسْلِمَاتِ الخَالِدَاتِ الأَوَائِلِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُنْ - دَوْرٌ فِي كُلِّ مَا ذَكَرْنَا، وبِهَذَا تَبَوَّأْنَ المَكَانَةَ اللائِقَةَ بِهِنَّ عَلَى مَرِّ التَّارِيْخِ، وأَصْبَحَتْ أَسْمَاؤُهُنَّ فِي بُطُوْنِ الكُتُبِ عَلَامَاتٍ بَارِزَةً لِأُمَّتِهِ،

ومَصَابِيْحَ هُدَى وأُمُّ خَالِدَ رضي الله عنها واحَدَةٌ مِنْ هَؤلَاءِ...
فَإِلَى صَفَحَاتِ حَيَاتِهَا الجَلِيلَةِ نُقَلِّبُهَا ونَقْرَأُهَا، ونتَعَلَّمُ مِنْهَا:

نَسَبُهَا

هِيَ: أَمَةُ بِنْتُ خَالِدِ بنِ سَعِيْدٍ.
وأُمُّهَا: هُمَيْنَةُ بِنْتُ خَلَفٍ مِنْ خُزَاعَةَ(١)

نَشْأَتُهَا

كَانَ «خَالِدُ بنُ سَعِيْدِ بنِ العَاصِ» مِمَّنْ آمَنُوْا مُبَكِّرِيْنَ فِي مَكَّةَ، ومِنَ الأَوَائِلِ الذِيْنَ انْتَظَمُوا فِي سِلْكِ الإِسْلَامِ، وأَعْلَنُوْا الطَّاعَةَ للرَّحْمَنِ، وبِهَذَا كَانَ مُخَالِفَاً لِلْكَثِيْرِيْنَ مِنْ آلِ «أُمَيَّةَ بنِ عَبْدِ شَمْسٍ».

ولَقَدْ لَقِيَ مِنْ قَوْمِهِ وعَشِيْرَتِهِ عَنَتَاً وشِدَّةً وُظُلْمَاً وافْتِرَاءً، وتَضْيِيقَاً وقَسْوَةً، فَكَانَ يَحْتَمِي إِلَى اللهِ، ويَسْأَلُهُ العَافِيَةَ فِي القَلْبِ والبَدَنِ.

وكَانَتْ زَوجَتُهُ «هُمَيْنَةُ بنتُ خَلَفٍ» التِي أَعْرَسَ بِهَا مِنْ قَرِيْبٍ، قَدْ دَخَلَتْ هِيَ أَيْضَاً فِي دِيْنِ اللهِ، فَكَانَتْ تُوَاسِيْهِ عِنْدَ عَوْدَتِهِ إِلَى الدَّارِ بِلُطْفِهَا وعُذُوْبَةِ لَفْظِهَا، ورِقَّةِ أَخْلَاقِهَا، ودَمَاثَةِ طِبَاعِهَا، وتَتَحَمَّلُ مَعَهُ

(١) ـ هذا نسبها كما جاء في طبقات ابن سعد (ج٨) (ص٢٣٤)

وعَنْهُ بَعْضَ الأَذَى، مَا أَمْكَنَهَا ذَلِكَ.

الهِجْرَةُ إِلَى الحَبَشَةِ

وحِيْنَ طَمَا ظُلْمُ قَرَيْشٍ وجَبَرُوْتُهَا، أَذِنَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ بِالهِجْرَةِ نَجَاةً لَهُمْ بِدِيْنِهِمْ ويَقِيْنِهِمْ، وحَدَّدَ لَهُمْ أَرْضَ الحَبَشَةِ مُهَاجِرَاً، لأَنَّ فِيْهَا «النَّجَاشِيَّ» المَلِكَ الذِي لَا يُظْلَمُوْنَ عِنْدَهُ...

فَوَجَدَ «خَالِدٌ» بِذَلِكَ فُرْصَةً طَيِّبَةً وسَانِحَةً كَرِيْمَةً، فَأَزْمَعَ أَمْرَهُ عَلَى الرَّحِيْلِ مَعَ الرَّاحِلِيْنَ، ومِمَّا شَجَّعَهُ عَلَى ذَلِكَ وُجُوْدُ «عُثْمَانَ بنِ عَفَّانَ» رضي الله عنه فِي مَوْكِبِ المُهَاجِرِينَ، فَهُوَ قَرِيْبُهُ ومِنْ ذَوِيْ رَحِمِهِ، وكَذَلِكَ «رُقَيَّةُ» بِنْتُ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ زَوْجَةُ عُثْمَانَ، وبِهَذَا وَجَدَتْ هُمَيْنَةُ زَوْجَةُ خَالِدٍ مُتَنَفَّسَاً لَهَا وأَنِيْسَاً وعَزَاءً.

فِي أَرْضِ الحَبَشَةِ

مَا إِنْ شَعَرَ المُسْلِمُوْنَ المُهَاجِرُوْنَ إِلَى الحَبَشَةِ بِبَعْضِ الإِطْمِئْنَانِ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ النَّجَاشِيِّ، حَتَّى فُوجِؤُوا بِوَفْدٍ مِنْ قُرَيْشٍ يَتْبَعُهُمْ إِلَى هَنَاكَ لِيُفْسِدَ عَلَيْهِمْ مُقَامَهُمْ، ويُغْرِيَ النَّجَاشِيَّ بِبَعْضِ الهَدَايَا لِيُسَلِّمَهُ الفَارِّيْنَ مِنَ المُسْلِمِيْنَ...

لَكِنَّ مَسْعَى الوَفْدِ اللَئِيْمِ لَمْ يَلْقَ تَرْحِيْبَاً ولَا اسْتِجَابَةً، وأَقَامَ المُهَاجِرُوْنَ يَنْعَمُوْنَ بِحُرِّيَةِ العِبَادَةِ... وحُرِّيَة الحَيَاةِ...

فِي تِلْكَ الأَيَّامِ، كَانَتْ هُمَيْنَةُ قَدْ جَاوَزَتْ أَشْهُرَ الحَمْلِ، وقَارَبَتِ الوَضْعَ، ودَخَلَ عَلَيْهَا زَوْجُهَا خَالِدٌ يَوْمَاً فَوَجَدَهَا تَتَلَوَّى وتَتَأَلَّمُ وتَئِنُّ...، فَأَدْرَكَ صُعُوْبَةَ المَوْقِفِ، لِذَا أَسْرَعَ إِلَى إِخْوَانِهِ المُسْلِمِيْنَ يَطْلُبُ نَجْدَتَهُمْ ومُسَاعَدَتَهُمْ، فَخَرَجَتْ مَعَه بَعْضُ النِّسْوَةِ إِلَى دَارِهِ، حَيْثُ اجْتَمَعْنَ حَوْلَ هُمَيْنَةَ يُوَاسِيْنَهَا ويُسَاعِدْنَهَا، حَتَّى أَقَرَّ اللهُ عَيْنَ الجَمِيْعِ بِمَوْلُوْدَةٍ مُبَارَكَةٍ، أَسْمَاهَا وَالِدُهَا «أَمَةُ».

النَّشْأَةُ الغَرِيْبَةُ

طَالَتْ إِقَامَةُ خَالِدٍ وأَهْلِهِ فِي الحَبَشَةِ سنَوَاتٍ، وهِيَ مُدَّةُ إِقَامَةِ المُهَاجِرِيْنَ هُنَاكَ...، إِذ اِسْتَمَرَّتْ إِلَى يَوْمِ أَنْ فَتَحَ اللهُ عَلَى المُسْلِمِيْنَ «خَيْبَرَ».

أَثْنَاءَ تِلْكَ السَّنَوَاتِ كَانَتْ «أَمَةُ» تَتَقَلَّبُ فِي مَرَاحِلِ عُمْرِهَا الأُوْلَى، نَجِيْبَةً ذَكِيَّةً وَاعِيَةً، فَتَلَقَّتْ عَنْ أَبَوَيْهَا مَبَادِئَ الدِّيْنِ وقَوَاعِدَه، وأُصُوْلَهِ وفُرُوْعَهِ، ووَعَتْ مَعْنَى ومَغْزَى وُجُوْدِهَا فِي الأَرْضِ البَعِيْدَةِ عَنِ الوَطَنِ الأَصِيْلِ.

وسَمِعَتْ مِنْهُمَا ذِكْرَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ، وصِفَاتِهِ وأَقْوَالِهُ، والمَرَاحِلِ التِيْ مَرَّتْ بِهَا دَعْوَةُ الإِسْلَامِ، وعَرَفَتْ مَا كَانَ عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ والأَصْنَامِ.

وهَزَّتْهَا مِنَ الأَعْمَاقِ هِجْرَةُ أَبَوَيْهَا اضْطِرَارَاً، وخُرُوْجُهُمَا مِنْ دِيَارِهِمَا مَعَ غَيْرِهِمَا من المُسْلِمِيْنَ قَسْرَاً... ، فَطَوَتْ جَوَارِحَهَا وجَوَانِحَهَا غَيْظَاً وحِقْدَاً عَلَى الكَافِرِيْنَ والمُشْرِكِيْنَ.

وبِحُكْمِ عِشْرَتِهَا لأَتْرَابِهَا مِن بَنَاتِ الحَبَشَةِ أَلِفَتْ بَعْضَ العَادَاتِ غَيْرَ العَرَبِيَّةِ، وأَتْقَنَتْ لُغَةَ الأَحْبَاشِ تَكَلُّمَاً وتَفَاهُمَاً، وتَأَقْلَمَتْ مَعَ الجَوِّ العَامِّ لِتِلْكَ البِلَادِ، ولَمْ تَشْعُرْ بِوَحْشَةٍ، طَالَمَا أَنَّهَا تَعِيْشُ ضِمْنَ أُسْرَتِهَا الصَّغِيْرَةِ، والجَوِّ الإِسْلامِيِّ المَحْدُوْدِ...

لَكِنَّهَا كَانَتْ فِي شَوْقٍ دَائِمٍ إِلَى لِقَاءِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ والتَّشَرُّفِ بِطَلْعَتِهِ، وتَتَمَنَّى أَنْ يَكُوْنَ ذَلِكَ اليَوْمُ قَرِيْبَاً...

الوَدَاعُ

بَعْدَ سَنَوَاتٍ مِنْ إِقَامَةِ المُسْلِمِيْنَ المُهَاجِرِيْنَ فِي أَرْضِ الحَبَشَةِ، ارْتَأَوا أَنْ يُغَادِرُوْهَا إِلَى المَدِيْنَةِ، وقَدْ أَعَزَّ اللهُ الإِسْلَامَ، ونَصَرَ رَسُوْلَهُ

عَلَى أَعْدَائِهِ فِي مَوَاطِنَ كَثِيْرَةٍ، فَتَجَهَّزُوْا لِلْمُغَادَرَةِ، واسْتَعَدُّوا لِلرَّحِيْلِ...

ولَا تَسَلْ عَنْ فَرَحِ «أَمَةَ» بِذَلِكَ، إِذْ كَادَتْ تَطِيْرُ مِنَ السَّعَادَةِ...، لَقَدْ حَلَّ اليَوْمُ المُنْتَظَرُ المَوْعُوْدُ، ولَنْ تَكُوْنَ إِلَّا أَيَّامٌ قَلَائِلُ حَتَّى تَلْقَى الأَحِبَّةَ: مُحَمَّدًا وصَحْبَهُ...

وعِنْدَ الشَّاطِئِ كَانَتْ أَمَةُ مَعَ وَالِدَيْهَا والمُسْلِمِيْنَ يَسْتَعِدُّوْنَ لِرُكُوْبِ سَفِيْنَتَيْنِ كَبِيْرَتَيْنِ تُقِلُّهُمْ بَعِيْدَاً.

والنَّجَاشِيُّ بِأُبَّهَتِهِ وعَظَمَتِهِ، بِحَاشِيَتِهِ وسُلْطَانِهِ، وبِجَمْعٍ غَفِيْرٍ حَوْلَهُ يُودِّعُوْنَ المُسْلِمِيْنَ المُهَاجِرِيْنَ، رَاجِيْنَ لَهُمْ سَلَامَةَ الوُصُوْلِ...

ويَقُوْلُ النَّجَاشِيُّ لِلْمُسْلِمِيْنَ مُوْصِيَاً:

ـ لَا تَنْسُوا أَنْ تُقْرِؤُوا السَّلَامَ مِنِّي إِلَى رَسُوْلِ اللهِ ﷺ...

فَوَعَتْ ذَلِكَ أَمَةُ واحْتَفَظَتْ بِهِ، وتَمَنَّتْ أَنْ تَكُوْنَ أَوَّلَ النَّاقِلِيْنَ لِهَذَا السَّلَامِ.

اللِقَـاءُ

وَصَلَ المُسْلِمُوْنَ المُهَاجِرُونَ العَائِدُوْنَ إِلَى المَدِيْنَةِ، فَعَلِمُوا أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ فِي جَيْشٍ مِنَ المُسْلِمِيْنَ يُحَاصِرُوْنَ «خَيْبَرَ»، فَبَعْضُهُمْ أَقَامَ فِي المَدِيْنَةِ لِيَسْتَرِيْحَ مِنْ عَنَاءِ السَّفرِ، ومَشَقَّةِ الانْتِقَالِ، وآخَرُوْنَ آثَرُوْا أَنْ يَسْتَمِرُّوا فِي المَسِيْرِ، إِلَى خَيْبَرَ لِلَقاء النَّبِيِّ ﷺ، وكَانَ عَلَى رَأْسِ هَؤُلَاءِ «جَعْفَرُ بنُ أَبِي طَالِبٍ» رضي الله عنه...

فَلَمّا وَصَلُوا كَانَ النَّصْرُ عَلَى يَهُوْدِ خَيْبَرَ قَدْ تَمَّ للمُسْلِمِيْنَ وفَتَح اللهُ عَلَى رَسُوْلِهِ حُصُوْنَهَا المَنِيْعَةَ، ودَحَرَ الشِّرْكَ وأَهْلَهُ...

فَقَال ﷺ وهُوَ يَسْتَقْبِلُ المُهَاجِرِيْنَ العَائِدِيْنَ:

ـ لَا أَدْرِي بِأَيِّهِمَا أَفْرَحُ: بِفَتْحِ خَيْبَرَ ؟ أَمْ بِقُدُوْمِ جَعْفَرَ ؟!

ولَا يَذْكُرُ التّارِيْخُ لَنَا أَنَّ خَالِدَ بنَ سَعِيْدٍ وأَهْلَهُ قَدْ رَافَقُوْا جَعْفَرَ إِلَى خَيْبَرَ لِلِقَاء رَسُوْلِ اللهِ ﷺ.

وَأَمَةُ لَمْ تُحَدِّثْ بِذَلِكَ، غَيْرَ أَنَّها لَمْ تَنْسَ أَنْ تُذَكِّرَ أَنَّ النَّجَاشِيَّ قَدْ حَمَّلَ المُسْلِمِيْنَ أَمَانَةَ السَّلَامِ عَلَى رَسُوْلِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا أَتَمُّوْا نَقْلَ السَّلَامِ تَقَدَّمَتْ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ فِي شَوْقٍ ولَهْفَةٍ وحُبٍّ، بَاسِمَةَ الثَّغْرِ ضَاحِكَةَ الوَجْهِ مُسْتَبْشِرَةً، وبَلَّغَتْ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ سَلَامَ النَّجَاشِيِّ...

فَضَحِكَ لَهَا النَّبِيُّ وهَشَّ لِلقَاءِهَا، وكَانَ قَدْ عَرَفَ مَنْ هِيَ، وكَنَّاهَا مُنْذُ ذَلِكَ اليَوْمِ بِأُمِّ خَالِدٍ، وكَانَتْ لَا تَزَالُ فِي أَوَّلِ صِبَاهَا، وآخِرِ مَرَاحِلِ طُفُوْلَتِهَا، ولَمْ تَقْتَرِنْ ولَمْ تَلِدْ...

ولَقَدْ رَافَقَتْهَا هَذِهِ الكُنْيَةُ طُوْلَ عُمْرِهَا، وحَرِصَتْ عَلَيْهَا تَيَمُّنَاً بِتَشْرِيْفِ النَّبِيِّ ﷺ لَهَا.

المُتَعَلِّمَةُ العَالِمَةُ

كَانَتْ أَمَةُ رضي الله عنها تَتَمَتَّعُ بِذَكَاءٍ خَارِقٍ وفِطْنَةٍ بَالِغَةٍ وحُبٍّ كَبِيْرٍ لِلاِسْتِزَادَةِ مِنَ الفِقْهِ، خُصُوْصَاً مِنَ الفَمِ الشَّرِيْفِ، فَمِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ، فَاشْتُهِرَ عَنْهَا أَنَّهَا كَانَتْ حَرِيْصَةً كُلَّ الحِرْصِ عَلَى لُقْيَاهُ ومُشَافَهَتِهِ فِي دُوْرِ نِسَائِهِ، أَوْ عِنْدَ زِيَارَتِهِ لِوَالِدِهَا خَالِدٍ فِي دَارِهِ.

فَأَضْحَتْ مِن خِلَالِ ذَلِكَ غَزِيْرَةَ المَعْرِفَةِ وَاسِعَةَ الاِطِّلَاعِ، فَلَا عَجَبَ أَنْ حَدَّثَتْ عَنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ بَعْدَ لُحُوْقِهِ بِالرَّفِيْقِ الأَعْلَى، ورَوَتْ عَنْهُ، واعْتَبَرَهَا بَعْضُ العُلَمَاءِ المُؤَرِّخِيْنَ عَالِمَةً فَقِيْهَةً، وجَعَلُوْهَا فِي مَصَافِّ الصَّحَابِيَّاتِ الشَّهِيْرَاتِ.

وإِنَّهُ لَتَأْخُذُكَ الدَّهْشَةُ ويَتَمَلَّكُكَ الاِسْتِغْرَابُ الشَّدِيْدُ حِيْنَ تَعْرِفُ أَنَّ أَمَةَ رضي الله عنها كَانَتْ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ مَا تَزَالُ فِي آخِرِ مَرَاحِلِ عُمْرِهَا

الطُّفُوْلِيِّ، وعَلَى أَوَّلِ عَتَبَاتِ الصِّبَا...، فَهِيَ مَا تَزَالُ صَغِيْرَةً إِلَى حَدٍّ مَا، ولَكِنَّهَا كَذَلِكَ مِنْ نَاحِيَةِ السِّنِّ، أَمَّا مِنْ نَاحِيَةِ الفَهْمِ والإِدْرَاكِ فَقَدْ كَانَتْ تَسْبِقُ عُمْرَهَا بِكَثِيْرٍ مِنَ السِّنِيْنِ.

الهَدِيَّةُ النَّبَوِيَّةُ

مَا نَسِيَ النَّبِيُّ ﷺ وَجْهَ أَمَةَ البَاسِمَ وهِيَ تُقْرِئُهُ السَّلَامَ مِنَ النَّجَاشِيِّ، وفَمُهَا يَنْطِقُ بالعَرَبِيَّةِ بِلُكْنَةٍ أَعْجَمِيَّةٍ (حَبَشِيَّةٍ)، وكَيْفَ كَانَتْ عَيْنَاهَا تَشِعَّانِ بِالحُبِّ واللَّهْفَةِ وصِدْقِ الشُّعُوْرِ...

كَانَتْ هَذِهِ الصُّوْرَةُ لِأَمَةَ رضي الله عنها تَتَرَاءَى دَوْمَاً لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَيَسْأَلُ عَنْهَا، ويُقَرِّبُهَا ويُدْنِيْهَا إِذَا رَآهَا، ويُجِيْبُهَا إِنْ سَأَلَتْ، وكَثِيْرَاً مَا كَانَتْ تَسْأَلُ.

وتَحَدَّثَتْ أَمَةُ عَنْ هَدِيَّةٍ أَهْدَاهَا لَهَا رَسُوْلُ اللهِ ﷺ فَتَقُوْلُ:

ـ أُتِيَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ بِثِيَابٍ فِيهَا خَمِيْصَةٌ سَوْدَاءُ صَغِيْرَةٌ، فَقَالَ:

ـ مَنْ تَرَوْنَ أَكْسُوْ هَذِهِ الخَمِيْصَةَ ؟

فَأَسْكَتَ القَوْمُ...،

فَقَالَ:

ـ اِئْتُوْنِي بِأُمِّ خَالِدَ...

فَأُتِيَ بِي إِلَى رَسُوْلِ اللهِ ﷺ أُحْمَلُ فَأَلْبَسَنِيْهَا بَيْدِهِ...

وقَالَ:

ـ أَبْلِي وأَخْلِقِي بِقَبُوْلِهَا.

مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثاً.

وجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَى عَلَمٍ فِي الخَمِيْصَةِ أَصْفَرَ أَوْ أَحْمَرَ فَقَال:

ـ هَذَا سِنا يَا أُمَّ خَالِدٍ، هَذَا سِنَا يَا أُمَّ خَالِدٍ، ويُشِيْرُ بِإِصْبَعِهِ إِلَى العَلَمِ.

وتَقُوْلُ أَمَةُ:

ـ والسِنَا بِلِسَانِ الحَبَشِ: الحَسَنُ.

ولَقَدْ ظَلَّتْ أَمَةُ حَرِيْصَةً عَلَى هَذِهِ الخَمِيْصَةِ، لِمَعْنَاهَا الكَبِيْرِ، زَمَناً طَوِيْلاً، حَتَّى شَاخَتْ وكَبُرَتْ، حَدَّثَ بِذَلِكَ كَثِيْرٌ مِنَ المُؤَرِّخِيْنَ وكُتَّابُ السِّيْرَةِ.

الزَّوَاجُ

حِيَن نَهَدَتْ أَمَةُ واسْتَدَارَتْ، وأَصْبَحَتْ فِي مَرْحَلَةِ الصِّبَا، بَدَتْ فِي العُيُوْنِ حَسْنَاءَ جَمِيْلةً، جَمَّةَ الأَدَبِ، رَفِيْعَةَ الخُلُقِ، وافِرَةَ العِلْمِ...

فَتَمَنَّاهَا كَثِيْرٌ مِنَ الشَّبَابِ زَوْجَةً، ورَغِبُوْا فِي الاِقْتِرَانِ بِهَا، والعَيْشِ فِي كَنَفِهَا...

لَكِنَّ نَصِيبَهَا كَانَ مَعَ «الزُّبَيْرِ بنِ العَوَّامِ» حَوَارِيِّ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ وابْنَ عَمَّتِهِ، وأَحَدِ فُرْسَانِ الصَّحَابَةِ وشُجْعَانِهِمْ.

فَعَاشَتْ أَمَةُ مَعَ الزُّبَيْرِ زَمَنَاً، ولَمْ يَفْتَرِقَا حَتَّى اسْتُشْهِدَ يَوْمَ مَعْرَكَةِ الجَمَلِ.

لَمْ تَرْفُضْ أَمَةُ الزَّوَاجَ مِنَ الزُّبَيْرِ حَيْنَ تَقَدَّمَ لَهَا، رُغْمَ أَنَّهُ كَانَ مُتَزَوِّجَاً مِنْ «أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ» رضي الله عنه وكَانَ لَهُ مِنْهَا أَكْثَرُ مِنْ وَلَدٍ، فَقَدْ كَانَتْ أَمَةُ وَاثِقَةً مِنْ نَفْسِهَا، وقُدْرَتِهَا عَلَى التَّكَيُّفِ مَعَ هَذَا الوَضْعِ الاِجْتِمَاعِيِّ الجَدِيْدِ.

فِي بَيْتِ الزَّوْجِيَّةِ

انْتَقَلَتْ أَمَةُ مِنْ بَيْتِ والِدَيْهَا خَالِدٍ وهُمَيْنَةَ إِلَى بَيْتِ الزَّوْجِيَّةِ، فَكَانَتْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الزُّبَيْرِ صَدْرَاً حَنُوْنَاً يَرْتَاحُ إِلَيْهِ، وقَلْبَاً كَبِيْرَاً يَتَّسِعُ لُكُلِّ شِدَّةِ طَبْعِهِ وحِدَّتِهِ

وعَمِلَتْ مَا وَسِعَهَا الجَهْدُ إِلى أَنْ تُؤَمِّنَ لَهُ جَوَّاً مِنَ الاِسْتِقْرَارِ والسَّعَادَةِ دَاخِلَ جُدْرَانِ البَيْتِ، فَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى اِجْتِذَابِهِ، فَتَعَلَّقَ بِهَا أَشَدَّ التَّعَلُّقِ، ومَلَكَتْ عَلَيْهِ كُلَّ وِجْدَانِهِ وأَحَاسِيْسِهِ.

وبِالإِضَافَةِ إِلَى القِيَامِ عَلَى رِعَايَةِ شُؤُوْنِ الزَّوْجِ والاِهْتِمَامِ بِهِ وتَوْفِيْرِ كُلِّ الأَسْبَابِ لِإِسْعَادِهِ، لَمْ تَكُنْ أَمَةُ لَتَنْسَى وَاجِبَ الأُمُوْمَةِ تِجَاهَ وَلَدَيْهَا مِنَ الزُّبَيْرِ، «عَمْرو» و«خَالِدٍ»

فإهْتَمَّتْ بِهِمَا غَايَةَ الاِهْتِمَام، تَرْبِيَةً وتَوْجِيْهَاً وتَعْلِيْمَاً، ورِعَايَةً... فَنَشَآ نَشْأَةً طَيِّبَةً مُبَارَكَةً، وكَانَا مِثَالَيْنِ مِنْ أَمْثِلَةِ الأَبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ حَقَّاً، دِيْنَاً وعِلْمَاً وخُلُقَاً... ونَمُوْذَجَاً يُحْتَذَى.

ولَمْ تَنْسَ أَمَةُ اِسْمَ أَبِيْهَا خَالِدِ بنِ سَعِيْدٍ المُؤْمِنِ المُهَاجِرِ، والمُسْلِمِ التَّقِيِّ الوَرِعِ الذِي كَانَ لَهَا فِي أَطْوَارِ نَشْأَتِهَا وتَكَوُّنِهَا أَمَلاً وقُدْوَةً...، فَحِيْنَ وَلَدَتْ وَلَدَهَا الثَّانِيَ أَسْمَتْهُ عَلَى اِسْمِ أَبِيْهَا تَيَمُّنَاً وتَحَبُّبَاً، ولِكَيْ يَظَلَّ دَوِيُّ الاِسْمِ فِي أُذُنَيْهَا قَائِمَاً مُسْتَمِرَّاً.

النِّهَايَةُ

وأَزِفَتْ شَمْسُ حَيَاتِهَا عَلَى الغُرُوْبِ...

وكَانَتْ قَدْ شَاهَدَتْ تَطَوُّرَاتٍ كَثِيْرَةً عَلَى صَعِيْدِ التَّارِيْخِ الإِسْلامِيِّ، مِنْ عَهْدِ النُّبُوَّةِ إِلَى عَهْدِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِيْنَ، إِلَى مُنْتَصَفِ العَهْدِ الأُمَوِيِّ عَلَى الأَرْجَحِ.

ونُرَجِّحُ ذَلِكَ لأَنَّ بَعْضَ التَّابِعِيْنَ الذِيْنَ رَوَوْا عَنْهَا وحَدَّثُوْا، ذَكَرُوْا أَنَّهُمْ لَقُوْهَا وقَدْ عَجِزَتْ وشَاخَتْ، وبَلَغَتْ مِنَ الكِبَرِ عِتِيَّاً.

يَقُوْلُ ابنُ سَعْدٍ فِي طَبَقَاتِهِ:

عَنْ إِبْرَاهِيْمَ بنِ عُقْبَةَ قَالَ:

(سَمِعْتُ أُمَّ خَالِدٍ بنْتَ خَالِدِ بنِ سَعِيْدِ بنِ العَاصِ، وهِيَ عَجُوْزٌ كَبِيْرَةٌ وُلِدَتْ بِأَرْضِ الحَبَشَةِ، فَقُلْتُ لَهَا :

ـ أَسَمِعْتِ مِنْ رَسُولِ اللهِ شَيئاً ؟

فَقَالَتْ:

ـ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ: يَسْتَعِيْذُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ.

رَحِمَ اللهُ أَمَةَ بنْتَ خَالِدٍ أُمَّ خَالِدٍ ورَضِيَ عَنْهَا وأَجْزَلَ مَثُوْبَتَهَا، وأَسْكَنَهَا الجَنَّةَ مِنْ أَعْلَى المَنَازِلِ ، وحَشَرَهَا مَع الذِيْنَ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ.

غَفَرَ اللهُ لَنَا ولَهَا.

❊ ❊ ❊

سَلمى

"قابلةُ أولادِ النبيِّ ﷺ"

يَخْتَلِفُ عَمَلُ كُلِّ إِنْسَانٍ عَن الآخَرِ لَيَكُوْنَ أَثَرُهُ فِي قَوْمِهِ ومُجْتَمَعِهِ وأُمَّتِهِ خَالِدَاً، ـ مَذْكُوْرَاً ومَشْكُوْرَاً ـ، فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ مَوْقِعِ عَمَلِهِ وحَيِّزِ وُجُوْدِهِ، يَسْتَطِيْعُ بِمَا قُدِّرَ لَهُ، وبِمَا أُوْتِيَهُ مِنْ كِفَايَاتٍ شَخْصِيَّةٍ أَنْ يَتْرُكَ الأَثَرَ الطَّيِّبَ، والذِّكْرَ الحَمِيْدَ، وَ سَلْمَى مَوْلَاةُ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ فِي عِدَادِ المُسْلِمَاتِ الخَالِدَاتِ اللوَاتِي كُنَّ مِنْ طَرْزٍ رَفِيْعٍ ومَثَلٍ عَالٍ بَيْنَ النَّاسِ.

ولَقَدْ أَهَّلَهَا لِبُلُوْغِ تِلْكَ المَكَانَةِ أَمْرَانِ اِثْنَانِ، أَوَّلُهُمَا أَنَّهَا كَانَتْ قَابِلَةَ أَوْلَادِ النَّبِيِّ ﷺ جَمِيْعَاً...، وثَانِيْهِمَا أَنَّهَا كَانَتْ مُلَازِمَةً لِبَيْتِ النُّبُوَّةِ، فَكَانَتْ تَرَى وتَسْمَعُ، لِذَا حَدَّثَتْ عَنْهُ ﷺ، فَدَخَلَتْ حَوْزَةَ المُحَافِظِيْنَ عَلَى السُّنَّةِ الشَّرِيْفَةِ، وأَضْحَتْ رَاوِيَةً مِنْ رُوَاةِ الحَدِيْثِ يُسْتَقَى مِنْهَا ويُؤْثَرُ عَنْهَا.

و«القَابِلَةُ» ـ عَزِيْزِي القَارِئَ ـ هِيَ التِي تَقُوْمُ عَلَى تَوْلِيْدِ الحَامِلِ واسْتِقْبَالِ المَوْلُودِ، وإِجْرَاءِ المُقْتَضَى واللَازِمَ، مِنْ اِسْعَافَاتٍ طِبِّيَّةٍ وغَيْرِهَا، لِلمَرْأَةِ التِي وَضَعَتْ، وكَذَلِكَ للطِفْلِ الوَلِيْدِ.

مَوْلَاةُ صَفِيَّةَ بِنْتِ عَبْدِ المُطَّلِبِ رضي الله عنها

هَلْ تَذْكُرُ «صَفِيَّةَ بِنْتَ عَبْدِ المُطَّلِبِ» ؟

عَمَّةَ النَّبِيِّ ﷺ...؟

لَقَدْ كَانَتْ مِنْ فَتَيَاتِ مَكَّةَ المَعْدُوْدَاتِ، فَصَاحَةً وبَيَانَاً وقُوَّةَ شَخْصِيَّةٍ...، تَزَوَّجَهَا فِي الجَاهِلِيَّةِ، قَبْلَ الإِسْلَامِ، «الحَارِثُ بنُ حَرْبِ بنِ أُمَيَّةَ بنِ عَبْدِ شَمْسٍ»، فَوَلَدَتْ لَهُ ذَكَرَاً سَمَّاهُ «صَفِيَّاً» تَيَمُّنَاً بِاسْمِ زَوْجَتِهِ التِي كَانَ يُحِبُّهَا ويَحْتَرِمُهَا، ثُمَّ تُوُفِّيَ عَنْهَا فَتَزَوَّجَهَا «العَوَّامُ بنُ خُوَيْلِدٍ» فَوَلَدَتْ لَهُ «الزُّبَيْرَ بنَ العَوَّامِ» وغَيْرَهُ مِنَ الإِخْوَةِ.

صَفِيَّةُ رضي الله عنها هِيَ التِي وقَفَتْ وَرَاءَ إِسْلَامِ وَلَدِهَا الشَابِّ الزُبَيْرِ تُؤَيِّدُهُ وتَدْفَعُ عَنْهُ وتَنْصُرُهُ، وكَانَتْ قَدْ آمَنَتْ بِدَعْوَةِ ابنِ أَخِيْهَا:

«مُحَمَّدٍ بنِ عَبْدِ اللهِ» ﷺ

عَلَى يَدِهَا الكَرِيْمَةِ ونَهْجِهَا السَّلِيْمِ تَرَبَّتْ سَلْمَى ونَشَأَتْ،ولَا نَدْرِي عَنْ نَسَبِهَا ومَوْلِدِهَا شَيئَاً.

كَانَتْ مُوْلَاةً لِـصَفِيَّةَ رضي الله عنها، فَتَاةً فِي مُقْتَبَلِ العُمْرِ، تَعْمَلُ فِي إِطَارِ المَمْلُوكِيَّةِ والخِدْمَةِ، لَا تَأْخُذُ أَجْرَاً ولَا مَالَاً، إِنَّمَا تَكْتَفِي بِالأَكْلِ والشُّرْبِ والكُسْوَةِ، ولَعَلَّ سُوْءَ حَظِّهَا قَدْ أَوْقَعَهَا فِي الأَسْرِ حِيْنَ غُزِيَ قَوْمُهَا،

عَلَى عَادَةِ العَرَبِ فِي الجَاهِلِيَّةِ، فَبِيْعَتْ فِي الأَسْوَاقِ بَيْعَ الرَّقِيْقِ، ومِنْ ثَمَّ دَخَلَتْ فِي وَلَايَةِ صَفِيَّةَ وخِدْمَتِهَا.

ولَا نَدْرِي أَيْضَاً مِمَّنْ تَعَلَّمَتْ أَعْمَالَ القَابِلَةِ ومِهْنَتَهَا، فَأَتْقَنَتْهَا أَيَّمَا إِتْقَانٍ، وكَانَتْ فِي ذَلِكَ صَاحِبَةَ شُهْرَةٍ وصِيْتٍ حَسَنٍ.

ومِمَّا يُرْوَى عَنْهَا أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ تُقْدِمُ عَلَى تَوْلِيْدِ حَامِلٍ إِلَّا وقَدْ هَيَّأَتْ كُلَّ لَوَازِمِهَا ومَا تَحْتَاجُهُ مِنْ أَدَوَاتٍ وَوَسَائِلَ، لَكِنَّ الرُّوَاةَ لَمْ يَذْكُرُوا لَنَا مَا هِي بِالتَّفْصِيْلِ.

قَابِلَةُ خَدِيْجَةَ أَوَّلِ زَوْجَاتِ النَّبِيِّ ﷺ

تَزَوَّجَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ مِنْ «خَدِيْجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ» رضي الله عنها وكَانَ فِي الخَامِسَةِ والعِشْرِيْنَ مِنْ عُمْرِهِ، فَحَمَلَتْ بِأُوْلَى بَنَاتِهِ ﷺ «زَيْنَبُ» رضي الله عنها.

وكَانَتْ عَمَّتُهُ صَفِيَّةُ مِمَّنْ يَتَرَدَّدْنَ عَلَى دَارِهِ، وبِصُحْبَتِهَا مَوْلَاتُهَا سَلْمَى، فَيُوَاسِيْنَ خَدِيْجَةَ فِي فَتْرَةِ حَمْلِهَا...

أَمَّا سَلْمَى فَكَانَتْ تُعِدُّ نَفْسَهَا وتَعِدُهَا أَنْ تَكُوْنَ القَابِلَةَ فِي اليَوْمِ المَوْعُوْدِ المَشْهُوْدِ، لِتَقُوْمَ بِتَوْلِيْدِ خَدِيْجَةَ والقِيَامِ عَلَى شُؤُوْنِهَا، وتَكُوْنُ لَهَا البُشْرَى العُظْمَى عَنْدَ مُحَمَّدٍ بِنِ عَبْدِ اللهِ «الأَمِيْنِ»، بِوِلَادَةِ غُلَامٍ...

ولَمَّا آنَ أَوَانُ الوَضْعِ، شَمَّرَتْ سَلْمَى عَنْ ذِرَاعَيْهَا، وأَكَبَّتْ عَلَى عَمَلِهَا...، فَلَمَا وَضَعَتْ خَدِيْجَةُ أُنْثَى أُسْقِطَ فِي يَدِ سَلْمَى وحَاوَلَتْ أَنْ لَا تَكُوْنَ المُبَشِّرَةَ، عَلَى عَادَةِ أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ الذِيْنَ كَانُوْا يَتَشَاءَمُوْنَ مِنَ الإِنَاثِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي مُحْكَمِ تَنْزِيْلِهِ:

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ ﴾ (ٱلنَّحْل: 58 - 59).

لَكِنَّ البَسْمَةَ التِي عَلَتْ ثَغْرَ مُحَمَّدٍ الشَّرِيْفِ أَزَالَتْ مَا بِهَا مِنْ أَسَى، وأَذْهَبَ مَا كَانَ فِي نَفْسِهَا مِنْ هَوَانٍ، وازْدَادَتْ اطْمِئْنَانَاً وفَرَحَاً فِي حِيْنِ شَكَرَهَا عَلَى عَمَلِهَا ونَفَحَهَا مَا تَسْتَحِقُّهُ مِنْ أَجْرٍ.

وكَيْفَ لَا يَكُوْنُ مِنَ المُصْطَفَى ﷺ ذَلِك !! وهُوَ النَّبِيُّ المُنْتَظَرُ الذِي سَوْفَ يَقْلِبُ قِيَمَ الجَاهِلِيَّةِ وأَعْرَافَهَا رَأْسَاً عَلَى عَقِبٍ.

القَابِلَةُ المُتَخَصِّصَةُ

وأَضْحَتْ سَلْمَى رضي الله عنها القَابِلَةَ المُتَخَصِّصَةَ لِبَيْتِ مُحَمَّدٍ وخَدِيْجَةَ، رُغْمَ وجُوْدِ غَيْرِهَا فِي مَكَّةَ مِمَّنْ يَمْتَهِنَّ هَذِهِ المِهْنَةَ، ويَحْتَرِفْنَ هَذِهِ الحِرْفَةَ.

وتَتَابَعَ البَنَاتُ والبَنُوْنَ مِنْ أَبْنَاءِ الأَمِيْنِ، حَتَّى كَانَ مَوْلِدُ «فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ» رضي الله عنها فَكَانَتْ سَلْمَى تَرَى فِي وَجْهِ الأُمِّ الحَامِلِ تَوَرُّدَاً، وتَفَتُّحَاً وطَهَارَةً، وصَفَاءً مَا بَعْدَهُ صَفَاءٌ، إِذْ كَانَ الحَمْلُ بِفَاطِمَةَ وَوِلَادَتِهَا إِرْهَاصَاً بِقُرْبِ نُبُوَّتِهِ وبِعْثَتِهِ ﷺ.

وقَدْ لَاَحَظَ ذَلِكَ الكَثِيْرُوْنَ مِمَّن كَانُوْا يُحِيْطُوْنَ بِالبَيْتِ النَّبَوِيِّ الكَرِيْمِ، ولَيْسَ سَلْمَى وَحْدَهَا.

الإِسْلَامُ والإِيْمَانُ

وبُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ رَسُوْلَاً إِلَى العَالَمِيْنَ، لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ ظُلُمَاتِ الجَاهِلِيَّةِ إِلى نُوْرِ اليَقِيْنِ، ويَهْتَدُوْا إِلَى اللهِ تَعَالَى مِنْ ضَلَالَاتِ الشِّرْكِ والوَثَنِيَّةِ.

ومَا أَسْرَعَ مَا لَبَّتْ سَلْمَى النِّدَاءَ، ودَخَلَتْ فِي دِيْنِ اللهِ، وآمَنَتْ بِرَسُوْلِهِ ﷺ وازْدَادَ مِنْ جَرَّاءِ ذَلِكَ تَعَلُّقُهَا بِالبَيْتِ الكَرِيْمِ، ومُلَاصَقَتُهَا لَهُ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ تَتَرَدَّدُ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ، مِن حِيْنٍ إِلَى حِيْنٍ.

ولَا يُمْكِنُ لِمُسْلِمٍ ولَا مُسْلِمَةٍ أَنْ تَكُوْنَ قَدْ خَلَصَتْ مِنْ أَذَى المُشْرِكِيْنَ وظُلْمِهِمْ وسُخْرِيَتِهِم، وكَانَتْ سَلْمَى رضي الله عنها واحِدَةً مِنَ المُسْلِمَاتِ اللَّوَاتِي لُذْنَ بِجَنْبِ اللهِ، واحْتَمَيْنَ بِحِمَاهُ، وتَحَمَّلْنَ فِي سَبِيْلِهِ كُلَّ صَعْبٍ وذُلُوْلٍ، ومَضَتْ عَلَى الطَّرِيْقِ غَيْرَ مُبَالِيَةٍ.

الزَّوَاجُ

كَانَ أَبُوْ «رَافِعٍ» ﷺ مَوْلَى رَسُوْلِ اللهِ ﷺ، آمَنَ وأَسْلَمَ مُبَكِّرَاً، وكَانَ يَرَى سَلْمَى تَتَرَدَّدُ عَلَى البَيْتِ النَّبَوِيِّ، فَوَقَعَتْ مِنْ قَلْبِهِ مَوْقِعَاً حَسَنَاً، ونَزَلَتْ مِنْ فُؤَادِهِ مَنْزِلَاً طَيِّبَاً.

ويَبْدُوأَنَّهُ قَدْ أَلْمَحَ بِذَلِكَ أَمَامَ النَّبِيِّ ﷺ فَوَافَقَهُ المُصْطَفَى عَلَى مَا أَرَادَ وانْتَوَى، وحَدَّثَ عَمَّتَهُ صَفِيَّةَ ومَوْلَاتَهَا سَلْمَى بِذَلِكَ فَوَجَدَ تَجَاوُبَاً، وعَلَى الفَوْرِ زَوَّجَهُمَا وبَارَكَ لَهُمَا وعَلَيْهِمَا.

مَوْلَاةُ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ

وبِحُكْمِ هَذَا الرِّبَاطِ المُقَدَّسِ الجَدِيْدِ، دَخَلَتْ سَلْمَى فِي وَلَايَةِ النَّبِيِّ ﷺ، خُصُوْصَاً وأَنَّ صَفِيَّةَ قَدْ وَافَقَتْ، فَكَأَنَّهَا قَدْ تَنَازَلَتْ عَنْ وَلَايَةِ سَلْمَى لَهَا، ومُنْذُ ذَلِكَ الحِيْنِ أَصْبَحَتْ سَلْمَى تُدْعَى مَوْلَاةُ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ.

المُهاجِرَةُ

وقَبْلَ الهِجْرَةِ...

لَقَدْ ذَرَفَتْ سلْمَى دُمُوْعَاً سَخِيْنَةً يَوْمَ وَفَاةِ خَدِيْجَةَ ﵂، وكَانَتْ قَدْ

لَازَمَتْهَا يَوْمَ اشْتَدَّ عَلَيْهَا المَرَضُ، والمُسْلِمُوْنَ فِي «شِعْبِ أَبِي طَالِبٍ» يُعَانُوْنَ مِنَ القَطِيْعَةِ والحِرْمَانِ...

وكَيْفَ لَا تَتَأَلَّمُ سَلْمَى ؟! وكَيْفَ لَا تَبْكِيْ ؟! وخَدِيْجَةُ رضي الله عنها كَانَتْ تَحْنُوْ عَلَيْهَا وتَثِقُ بِهَا، وتُقَرِّبُهَا مِنْهَا.

وحَقُّ الوَفَاءِ عَلَى سَلْمَى أَنْ تَكُوْنَ ذَاكِرَةً شَاكِرَةً.

وهَا هِيَ مَعَ آلِ بَيْتِ النَّبِيِّ تَغُذُّ السَّيْرَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى المَدِيْنَةِ التِي سَبَقَهُمْ إِلَيْهَا رَسُوْلُ اللهِ ﷺ، فَيَقْطَعُوْنَ البَوَادِيَ والقِفَارَ، يَهْبِطُوْنَ الوِدْيَانَ ويَعْلُوْنَ الكُثْبَانَ، يَحْدُوْهُم الشَّوْقُ إِلَى لِقَاءِ الحَبِيْبِ، والأَمَانِ مِنْ فِتْنَةِ المُشْرِكِيْنَ الظَّالِمِيْنَ.

المُؤْمِنَةُ المُجَاهِدَةُ العَامِلَةُ

وانْخَرَطَتْ سَلْمَى فِي مَوْكِبِ المُؤْمِنَاتِ المُجَاهِدَاتِ العَامِلَاتِ، فَكَانَتْ تَخْرُجُ مَعَ الجُيُوْشِ الغَازِيَةِ تَقُوْمُ بِمَا تُؤَهِّلُهُ لَهَا أُنُوْثَتُهَا مِنَ العَمَلِ، سِقَايَةً ومُدَاوَاةً وإِعْدَادَ طَعَامٍ، وغَيْرَ ذَلِكَ.

البُشْرَى الكُبْرَى

حَتَّى كَانَ اليَوْمُ العُظِيْمُ...

فَلَقَدْ أَرْسَلَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ رَسَائِلَهُ إِلَى المُلُوكِ والرُّؤَسَاءِ فِي فَارِسَ

والشَّام ومِصْرَ، وأَطْرَافِ الجَزِيْرَةِ يَدْعُوهُمْ وقَومَهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ والإِيْمَانِ، ويُحَمِّلُهُمْ تَبِعَةَ المُخَالَفَةِ والمُعَانَدَةِ.

فَرَدَّ بَعْضُهُمْ رُدُوْدَاً طَيِّبَةً، ورَدَّ آخَرُوْنَ رُدُودَاً قَاسِيَةً ظَالِمَةً، فَاجِرَةً، وكَانَ «المُقَوْقِسُ» عَظِيْمُ القِبْطِ فِي مِصْرَ كَرِيْمَ الخُلُقِ، لَيِّنَ الجَانِبِ، لَطِيْفَ الرَّدِّ، فَأَرْسَلَ مَعَ رَسُوْلِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ هَدِيَّةً...

وكَانَ مِنْ جُمْلَةِ الهَدِيَّةِ فَتَاةٌ تُدْعَى «مَارِيَّةَ» وأُخْتٌ لَهَا تُدْعَى «سِيْرِيْنَ»، فَبَنَى رَسُوْلُ اللهِ ﷺ بِمَارِيَّةَ وأَعْطَى أُخْتَهَا لِشَاعِرِ الأَنْصَارِ «حَسَّانَ بنِ ثَابِتٍ».

حَمَلَتْ مَارِيَّةُ مِنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ فَكَانَتْ مَوْضِعَ حَنَانِهِ ورِعَايَتِهِ، خَاصَّةً وأَنْ غَيْرَهَا مِنْ نِسَائِهِ لِمْ يَحْمِلْنَ...،

وكَانَتْ سَلْمَى مَوْلَاتُهُ ﷺ تُلَاصِقُ مَارِيَّةَ وتُرَاعِيْهَا فِي فَتْرَةِ الحَمِلِ، حَتَّى كَانَ يَوْمُ الوَضْعِ...

فَأَقَامَتْ بِجَانِبِهَا تُقَدِّمُ لَهَا كُلَّ مَا يَلْزَمُ، وقَامَتْ عَلَى وِلَادَتِهَا خَيْرَ قِيَامٍ، وكَمْ كَانَتْ فَرْحَةُ سَلْمَى حِيْنَ وَقَعَ الوَلِيْدُ «إِبْرَاهِيْمُ» بَيْنَ يَدَيْهَا...، فَلَمَّا أَتَمَّتْ عَمَلَهَا، نَادَتْ عَلَى زَوْجِهَا أَبِيْ رَافِعٍ وأَبْلَغَتْهُ النَّبَأَ السَّعِيْدَ، وطَلَبَتْ إِلَيْهِ أَنْ يُسْرِعَ فِي إِبْلَاغِ النَّبِيِّ ﷺ.

فَطَارَ أَبُوْ رَافِعٍ مُسْرِعَاً يُسَابِقُ الرِّيْحَ حَتَّى وَافَى النَّبِيَّ ﷺ وأَخْبَرَهُ بِالبُشْرَى، فَسُرَّ ﷺ بَالِغَ السُّرُوْرِ، ووَهَبَ لِأَبِيْ رَافِعٍ غُلَامَاً جَزَاءَ مَا نَقَلَ إِلَيْهِ مِنْ خَبَرٍ كَرِيْمٍ سَارٍّ، ثُمَّ قَصَدَ ﷺ إِلَى بَيْتِ مَارِيَّةَ حَيْثُ كَانَتْ تُقِيْمُ فِي ضَاحِيَةِ «العَوَالِي»، وهُنَاكَ اسْتَقْبَلَتْهُ سَلْمَى مُبَشِّرَةً مُتَهَلِّلَةَ الوَجْهِ. فَتَبَسَّمَ لَهَا ﷺ وَنَفَحَهَا بِبَعْضِ الأُعْطِيَةِ، وأَقْبَلَ عَلَى الأُمِّ مَارِيَةَ مُوَاسِيَاً وعَلَى الطِفْلِ الوَلِيْدِ مُدَاعِبَاً، وأَسْمَاهُ «إِبْرَاهِيْمَ» تَيَمُّنَاً بِاسْمِ جَدِّهِ أَبِي الأَنْبِيَاءِ ﷺ .

فِي بَيْتِ فَاطِمَةَ

وبَيْتُ «فَاطِمَةَ» و«عَلِيٍّ» رضي الله عنهما فَرْعٌ كَرِيْمٌ مِنَ الدَّوْحَةِ الشَّرِيْفَةِ... فَلَمَّا حَمَلَتْ فَاطِمَةُ حَمْلَهَا الأَوَّلَ، لَازَمَتْهَا سَلْمَى ووَقَفَتْ نَفْسَهَا عَلَى خِدْمَتِهَا ورِعَايَتِهَا مُدَّةَ الحَمْلِ، حَتَّى كَانَ الوَضْعُ، ووَلَدَتْ «حَسَنَاً» رضي الله عنه فَبَلَغَتِ السَّعَادَةُ عِنْدَ سَلْمَى أَوْجَهَا وذِرْوَتَهَا، ولَقِيَتْ مِنَ المُصْطَفَى ﷺ تَكْرِيْمَاً وعَطَاءً...

تَتَابَعَ حَمْلُ فَاطِمَةَ فَوَلَدَتْ «حُسَيْنَاً» و«زَيْنَبَ» و«أُمَّ كُلْثُوْمٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِيْنَ، وكَانَتْ سَلْمَى، كَعَادَتِهَا هِيَ القَابِلَةُ المُتَخَصِّصَةُ، وصَاحِبَةُ اليَدِ، ومَوْضِعُ الثِّقَةِ فِي قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ.

سَلْمَى الحَزِيْنَةُ

لَمْ يُتِمَّ «إِبْرَاهِيْمُ» ابنُ النَّبِيِّ ﷺ عَامَهُ الثَّانِي، إِذْ دَاهَمَهُ المَرَضُ، واشْتَدَّتْ عَلَيْهِ وَطْأَةُ الحُمَّى، وقَامَتْ سَلْمَى رضي الله عنها عَلَى تَمْرِيْضِهِ والاِعْتِنَاءِ بِهِ ومُدَاوَاتِهِ، بِمَا تَوَفَّرَ بَيْنَ يَدَيْهَا مِنْ وَسَائِلَ، ومَا تَعَارَفَ عَلَيْهِ الطِّبُّ فِي ذَلِكَ الحِيْنِ، ولَكِنَّهَا أَفْلَسَتْ، فَقَدْ كَانَ قَضَاءُ اللهِ أَكْبَرُ وأَعْظَمُ، فَلَفَظَ الوَلَدُ الصَّغِيْرُ أَنْفَاسَهُ وهُوَ بَيْنَ يَدَيْ وَالِدِهِ الشَّرِيْفَتَيْنِ.

كَانَتْ مَارِيَةُ الأُمُّ أَشَدَّ النَّاسِ حُزْنَاً وأَلَمَاً، وكَانَتْ تَقِفُ قَرِيْبَاً مِنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ، فَشَرِقَتْ بَالدَّمْعِ ولَمْ تَقْوَ عَلَى الصُّرَاخِ...، أَمَّا سَلْمَى التِي كَانَتْ تُرَاقِبُ وتَرَى فَقَدْ دَارَتْ بِهَا الدُّنْيَا، وكَادَ يُغْمَى عَلَيْهَا، وكَادَتْ تَشُقُّ ثَوْبَهَا وتَصْرُخُ لَوْلَا الهَيْبَةُ مِنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ.

كَانَتْ سَلْمَى تَرَى فِي الوَلِيْدِ إِبْرَاهِيْمَ أَمَلَاً...، وتَتَصَوَّرُ أَنَّهُ ابْنُهَا، فَهِيَ أَوَّلُ مَنْ اسْتَقْبَلَتْهُ بَيْنَ يَدَيْهَا، ودَاوَمَتْ عَلَى العِنَايَةِ بِهِ، وبَذَلَتْ فِي ذَلِكَ وُسْعَهَا...، وهَا هُوَ الأَمَلُ المُشْرِقُ يَذْوِي ويَذْبُلُ، ثُمَّ يَزُوْلُ.

وكَانَ فِي ذَلِكَ حِكْمَةٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ تَعَالَى.

ومَضَتْ أَيَّامُ العُمْرِ بِسَلْمَى...

وشَهِدَتْ بَعْضَ الغَزَوَاتِ مَعَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ فَأَسْهَمَ لَهَا مِنَ الغَنَائِمِ،

وخَصَّهَا بِبَعْضِ العَطَايَا.

كَمَا رَافَقَتْهُ ﷺ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ، وأَدَّتِ الفَرِيْضَةَ، وكَحَّلَتْ عَيْنَيْهَا بِمَرَاتِعِ مَكَّةَ ورُبُوْعِهَا، حَيْثُ تَفَتَّحَ صِبَاهَا ووَعَتْ الحَيَاةَ، وأَطْفَأَتْ غُلَّةَ شَوْقِهَا إِلَى الوَطَنِ.

المُحَدِّثَةُ

ومِنْ خِلَالِ رِوَايَةِ العُلَمَاءِ عَنْهَا نَعْلَمُ أَنَّ سَلْمَى رضي الله عنها قَدْ طَالَ بِهَا أَمَدُ العُمْرِ إِلَى مَا بعْدَ وفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ ولُحُوْقِهِ بالرَّفِيْقِ الأَعْلَى.

وبِهَذَا كَانَ لِسَلْمَى نَصِيْبٌ وسَهْمٌ فِي تَغْذِيَةِ المَادَّةِ العِلْمِيَّةِ للتُّرَاثِ الإِسْلَامِيِّ.

ولَا نُجِيْزُ لِأَنْفُسِنَا القَوْلَ بِتَحْدِيْدِ سَنَةِ وَفَاتِهَا رضي الله عنها حَيْثُ لَمْ تَذْكُرْ لَنَا ذَلِكَ كُتُبُ السِّيْرَةِ أَوِ التَّرَاجِمِ.

رَضِيَ اللهُ عَنْ سَلْمَى قَابِلَةِ أَوْلَادِ النَّبِيِّ ﷺ وأَهْلِ بَيْتِهِ، ومُسْتَوْدَعِ مَكْنُوْنَاتِهِ، وجَزَاهَا عَمَّ قَدَّمَتْ خَيْرَ الجَزَاءِ وأَوْفَاهُ، وأَثَابَهَا مِن لَدُنْهُ أَعْظَمَ الثَّوَابِ.

❊ ❊ ❊

حَمْنَةُ

"بنتُ عمّةِ رسولِ اللّه ﷺ"

عَزِيْزِي القَارِئ:

مَا مِنْ شَكٍّ أَنَّكَ تَذْكُرُ قِصَّةَ حَيَاةِ الصَّحَابِيِّ الجَلِيْلِ، المُهاجِرِ الدَّائِمِ، شَهِيْدِ «أُحُدٍ»، «مُصْعَبَ بنِ عُمَيْرٍ» رضي الله عنه الذِي كَانَ أُنْمُوْذَجاً رَفِيْعاً وعَالِياً فِي الإِيْمَانِ باللهِ ورَسُوْلِهِ، والتَّضْحِيَةِ فِي سَبِيْلِ اللهِ.

وبَيْنَ قِصَّةِ حَيَاتِهِ وقِصَّةِ حَيَاةِ «حَمْنَةَ» ـ المُسْلِمَةِ الخَالِدَةِ ـ تَلَازُمٌ وتَعَاوُنٌ وتَكَامُلٌ، ذَلِكَ أَنَّهَا كَانَتْ زَوْجَتُهُ وقَرِيْنَتُهُ...

وهِيَ رضي الله عنها بِدَوْرِهَا قَدْ أَدَّتْ قِسْطَهَا لِلعُلَى والمَجْدِ، هِجْرَةً وجِهَاداً وتَضْحِيَةً وصَبْراً.

نَسَبُهَا

هِيَ: حَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشِ بنِ رِئَابٍ.

وأُمُّهَا: «أُمَيْمَةُ بِنْتُ عَبْدِ المُطَّلِبِ»، فَهِيَ بِنْتُ عَمَّةِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ.

نَشْأَتُهَا

جَاءَ وَالِدُهَا «جَحْشُ بنُ رِئَابٍ» إِلَى مَكَّةَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وكَانَ مَنْظُوْرَاً فِي قَوْمِهِ «بَنِي أَسَدٍ»، لَهُ مَرْكَزُهُ ومَكَانَتُهُ.

فَلَمَّا حَلَّ فِي مَكَّةَ دَخَلَ فِي حِلْفِ «حَرْبِ بنِ أُمَيَّةَ بنِ عَبْدِ شَمْسٍ» عَلَى عَادَةِ أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ، حِيْنَذَاكَ، ثُمَّ رَغِبَ فِي الزَّوَاجِ.

وكَانَتْ بَنَاتُ «عَبْدِ المُطَّلِبِ بنِ هَاشِمٍ» كَثِيْرَاتٍ، وكُنَّ ذَواتِ حَسَبٍ ونَسَبٍ وشَرَفٍ، أَكْثَرُهُنَّ عَلَى جَانِبٍ مِنَ العِلْمِ والفَصَاحَةِ، وكُلُّهُنَّ يَتَمَتَّعْنَ بِالخُلُقِ والتَّهْذِيْبِ، فَتَقَدَّمَ «جَحْشٌ» لِخِطْبَةِ إِحْدَاهُنَّ «أُمَيْمَةُ» والزَّوَاجِ مِنْهَا، فَرَحَّبَ بِهِ عَبْدُ المُطَّلِبِ، وتَمَّ القِرَانُ.

ووَلَدَتْ أُمَيْمَةُ أَوْلَادَاً كَثِيْرِيْنَ، كَانَتْ حَمْنَةُ مِنْ بَيْنِهِمْ.

ويَبْدُو أَنَّ صِفَاتِ الحُسْنِ والجَمَالِ كَانَتْ قَاسِمَاً مُشْتَرَكَاً بَيْنَ البَنَاتِ والبَنِيْنَ، فَكَانُوْا جَمِيْعَاً مَحَطَّ أَنْظَارِ النَّاسِ يَتَطَلَّعُوْنَ إِلَيْهِمْ رَغْبَةً بِهِمْ ذُكُوْرَاً وإِنَاثَاً دُوْنَ تَفْرِيْقٍ.

أَضِفْ إِلَى ذَلِكَ مَا كَانُوْ ا يَتَمَتَّعُونَ بِهِ مِنْ حَسَبٍ رَفِيْعٍ ونَسَبٍ كَرِيْمٍ وعِلْمٍ وفَصَاحَةٍ.

فِي هَذَا الجَوِّ نَشَأَتْ حَمْنَةُ، وهِيَ تَصْغُرُ أُخْتَهَا زَيْنَبُ التِي زَوَّجَهَا النَّبِيُّ ﷺ

مَوْلَاهُ «زَيْدَ بنَ حَارِثَةَ»، ثُمَّ أَضْحَتْ زَوْجَةً لَهُ بَعْدَ أَنْ طَلَّقَهَا زَيْدٌ.

دَرَجَتْ حَمْنَةُ فِي مَكّةَ وكَانَت مَخَايِلُ النَّجَابَةِ والحُسْنِ تَكْبُرُ فِيْهَا مَعَ سِنِيْنِ عُمْرِهَا، وتَأَقْلَمَتْ مُنْذُ طُفُوْلَتِهَا مَع الجَوِّ الإِيْمَانِيِّ العَامِّ الذِي لَفَّ أُمَّهَا وإِخْوَتَهَا، وعَاصَرَتْ ـ وهِيَ طِفْلَةٌ ـ جَوَّ الجِهَادِ الأَكْبَرِ الذِي عَانَاهُ المُسْلِمُوْنَ مِنْ قُرَيْشٍ، وتَحَمَّلُوْهُ بِصَبْرٍ بَالِغٍ...

وكَانَتْ تَسْمَعُ وهِيَ بَمَكَّةَ عِنْ الشَّابِّ مُصْعَبِ بنِ عُمَيْرٍ، أَجْمَلَ فِتْيَانِ قُرَيْشٍ وأَكْثَرَهُمْ غِنَىً ودَلَالاً، وتُصِيْخُ بِأُذُنَيْهَا للحَدِيْثِ عَنْ بَذَخِهِ وتَرَفِهِ فِي ثِيَابِهِ وتَأَنُّقِهِ، والعِطْرِ الذِي كَانَ يَفُوْحُ مِنْ بُرْدَيْهِ حِيْنَ يَخْطُرُ فِي أَسْوَاقِ مَكَّةَ، غَادِيَاً رَائِحَاً...، فَتُعْجَبُ بِذَلِكَ وتَنْجَذِبُ إِلَى مُصْعَبٍ، مُتَمَنِّيَةً إِيَّاهُ قَرِيْنَاً...

ولَكِنْ هَا هُوَ مُصْعَبٌ القُرَشِيُّ الوَثَنِيُّ، المُدَلَّلُ المُرَفَّهُ، يَدْخُلُ فِي حَوْزَةِ الإِسْلَامِ، ويُؤْمِنُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ، فَيَلْقَى مِنْ جَرَّاءِ ذَلِكَ العَذَابَ الأَكْبَرَ، والهُونَ الأَعْظَمَ، تَحْرِمُهُ أُمُّهُ مِنْ كُلِّ عَطَاءٍ ونَفْحٍ، وتَمْنَعُهُ مِنْ كُلِّ دِرْهَمٍ ودِيْنَارٍ، وتَحْبِسُهُ لِتُقسِرَهُ عَلَى العَوْدَةِ إِلَى الشِّرْكِ، فَيَأْبَى عَلَيْهِ إِيْمَانُهُ ذَلِكَ، ويَضْرِبُ بِعُرْضِ الحَائِطِ كُلَّ مُغْرَيَاتِ الدُّنْيَا وزُخْرُفَ الحَيَاةِ...

إِذْ وَجَدَ فِي الإِيْمَانِ والإِسْلَامِ، وطَلْعَةِ النَّبِيِّ العَظِيْمِ رَوْحَاً ورَيْحَانَاً وجَنَّةَ نَعِيْمٍ.

هُنَا، ازْدَادَ تَشَوُّفُ حَمْنَةَ إِلَى مُصْعَبٍ ورَغِبَتْ فِيْهِ أَكْثَرَ مِنْ ذِيْ قَبْلُ، بَيْنَهَا وبَيْنَ نَفْسِهَا، ولَمْ تُفْصِحْ لِأَحَدٍ عَنْ شَوْقِهَا وحُبِّهَا المَكْتُوْمِ، وأَقَامَتْ عَلَى ذَلِكَ زَمَنًا.

الدَّاعِيَةُ المُهَاجِرُ

ووَفَدَ إِلَى مَكَّةَ فِي المَوْسِمِ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ، فَلَقِيَهُمْ النَّبِيُّ ﷺ وعَرَّفَهُمْ بِنَفْسِهِ وبِدَعْوَتِهِ، وشَرَحَ لَهُمْ أُصُوْلَ وقَوَاعِدَ دَعْوَةِ الإِسْلَامِ، ورَغَّبَهُمْ فِيْهَا، فَاسْتَجَابُوْا لَهُ، وآمَنُوْا بِهِ، وطَلَبُوْا إِلَيْهِ أَنْ يُرْسِلَ مَعَهُمْ مِنْ أَصْحَابِهِ مَنْ يُعَلِّمُهُمْ أُمُوْرَ الدِّيْنِ ويُفَقِّهَهُمْ فِيْهِ، لِيَكُوْنُوْا عَلَى بَيِّنَةٍ مَعَ اللهِ ورَسُوْلِهِ.

وكَانَ «مُصْعَبُ» فِي ذَلِكَ الحِيْنِ قِمَّةً شَامِخَةً مِنْ قِمَمِ الفِقْهِ والفَهْمِ والعِبَادَةِ، فاخْتَارَهُ النَّبِيُّ ﷺ دَاعِيَةً، ورَفِيْقًا ومُعَلِّمًا لِلَوَفْدِ اليَثْرِبِيِّ.

وشَدَّ مُصْعَبُ الرِّحَالَ إِلَى يَثْرِبَ مُنْتَشِيًا فَرِحًا لِحُسْنِ ظَنِّ الرَّسُوْلِ الكَرِيْمِ بِهِ، واخْتِيَارِهِ لَهُ، وهُوَ يَعْلَمُ فِي نَفْسِ الوَقْتِ مَدَى خُطُوْرَةِ الأَمْرِ الذِي وُكِّلَ إِلَيْهِ.

وهُنَاكَ... فِي المَدِيْنَةِ المُنَوَّرَةِ، اسْتَطَاعَ مُصْعَبُ رضي الله عنه بِمَا أُوْتِيَهِ مِنْ إِيْمَانٍ وحِنْكَةٍ وجَلَدٍ أَنْ يَلِجَ إِلَى قُلُوْبِ النَّاسِ جَمِيْعًا قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ دُوْرَهُمْ ومَنَازِلَهُمْ، وأَنْ يُؤَثِّرَ عَلَى الرَّأْيِ العَامِّ تَأْثِيْرًا بَيِّنًا...

نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْ جَوَابِهِ الذِي أَجَابَ بِهِ الرَّسُوْلَ ﷺ حِيْنَ سَأَلَهُ كَيْفَ خَلَّفَ المَدِيْنَةَ وَرَاءَهُ ؟

إِذْ قَالَ مُصْعَبُ:

ـ لَمْ يَبْقَ فِيْهَا بَيْتٌ إِلَّا وفِيْهِ ذِكْرُ اسْمِ مُحَمَّدٍ...

كَانَتْ حَمْنَةُ فِي ذَلِكَ الحِيْنِ تَدْرُجُ نَحْوَ الصِّبَا، وتَتَكَامَلُ نُمُوَّاً وفُتُوَّةً وتَزْدَادُ تَشَوُّقَاً لِسَمَاعِ أَخْبَارِ مُصْعَبٍ، وهُوَ يَزْدَادُ فِي نَظَرِهَا سُمُوَّاً وقِيْمَةً، ويَرْتَفِعُ فِي قَلْبِهَا مَكَانَةً، لِيَحْتَلَّ مِنْهُ الذِّرْوَةَ، دُوْنَ إِفْصَاحٍ أَوْ بَيَانِ شُعُوْرٍ.

الهِجْرَةُ

ولَمَّا حَانَ حِيْنُ الهِجْرَةِ إِلَى المَدِينَةِ، وبَدَأَتْ وُفُوْدُ المُسْلِمِيْنَ تَتَوَاكَبُ وتَتَابَعُ مِنْ مَكَّةَ، فُرَادَى وجَمَاعَاتٍ...

كَانَتْ حَمْنَةُ رضي الله عنها تَأْخُذُ مَوْقِعَهَا بَيْنَ أَهْلِهَا... صَابِرَةً مُحْتَسِبَةً...، تُلَاقِي مَعَ مَا يُلَاقُوْنَ صُنُوْفَ الجَهْدِ والتَّعَبِ والنَّصَبِ، حُبَّاً بِاللهِ ورَسُوْلِهِ، وتَفَانِيَاً مَعَ دِيْنِهِ ودَعْوَتِهِ الحَقِّ.

ولَقَدْ لَقِيَتْ مِنْ مَشَقَّةِ الطَّرِيْقِ وطُوْلِهَا مَا تَنُوْءُ بِهِ الجِبَالُ الرَّوَاسِيَ، مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ اللَاهِبَةِ، ورِمَالِ الصَّحْرَاءِ المُتَّقِدَةِ، والكُثْبَانِ والتِّلَالِ والجِبَالِ... ووُعُوْرَةِ المَسَالِكِ والدُّرُوْبِ...

شَأْنَ غَيْرِهَا مِنَ المُهَاجِرِيْنَ والمُهَاجِرَاتِ فِي سَبِيْلِ اللهِ.

فَرْحَةُ العُمْرِ

اسْتَقَرَّ المُسْلِمُوْنَ فِي المَدِيْنَةِ المُنَوَّرَةِ، وبَدَأَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ يُرْسِي دَعَائِمَ المُجْتَمَعِ الجَدِيْدِ، ويَضَعُ قَوَاعِدَ الدَّوْلَةِ الإِسْلَامِيَّةِ ويُنَظِّمُ أُمُورَ الحَيَاةِ، ويَسْتَعِدُّ مَعَ إِخْوَانِهِ للإِنْطِلَاقَةِ الكُبْرَى، وهِيَ تَحْرِيْرُ الإِنْسَانِ العَرَبِيِّ مِنْ رِبْقَةِ الوَثَنِيَّةِ وأَغْلَالِ الشِّرْكِ، وتَطْهِيْرِ الدِّيَارِ مِنْ أَوْضَارِ الأَصْنَامِ والأَوْثَانِ، مِنْ ثَمَّ إِعْدَادَ المُسْلِمِيْنَ لِيَكُوْنُوْا رُوَّادَ فَتْحٍ فِي أَصْقَاعِ الأَرْضِ، مَشَارِقِهَا ومَغَارِبِهَا، لِيَرْفَعُوْا عَنْ كَاهِلِ الإِنْسَانِ أَثْقَالَ الظُّلْمِ والاِسْتِعْبَادِ، ويُطْلِقُوْهُ مِنْ قُيُوْدِ الجَهْلِ...

وكَانَتْ قُرَيْشٌ تُمَثِّلُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى العَرَبِ عَمُوْمَاً والمُسْلِمِيْنَ خُصُوْصَاً أَكْبَرَ القُوَى فِي الجَزِيْرَةِ العَرَبِيَّةِ، فَإِذَا مَا أُرْغِمَ أَنْفُهَا وذَلَّ كِبْرِيَاؤُهَا فَقَدْ انْفَسَحَتْ الطَّرِيْقُ وتَعَبَّدَ السَّبِيْلُ إِلَى الغَايَةِ الكُبْرَى والهَدَفِ المَنْشُوْدِ.

لِذَا كَانَتْ المُوَاجَهَةُ فِي بَدْرٍ تَحْمِلُ أَكْبَرَ المَعَانِي وأَثْقَلَ التَّبِعَاتِ، والحَدَّ الفَاصِلَ بَيْنَ انْتِصَارِ الإِيْمَانِ، بِمَا يَحْمِلُ مِنْ قِيَمِ الحَقِّ والخَيْرِ والعَدْلِ، أَوْ هَزِيْمَتِهِ...، لَقَدْ كَانَتْ امْتِحَانَاً لِلنُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ وصِدْقِ الدَّعْوَةِ، وكَانَتْ فُرْقَانَاً... أَيْضَاً.

وكَمْ فُتِنَتْ حَمْنَةُ بِرُؤيَةِ مُصْعَبٍ وهُوَ عَائِدٌ مَعَ جَيْشِ المُسْلِمِيْنَ المُنْتَصِرِ مِنْ «بَدْرٍ» وقَدْ تَهَلَّلَ وَجْهُهُ، فَازْدَادَ إِشْرَاقاً عَلَى إِشْرَاقٍ، ونُوْراً عَلَى نُوْرٍ، وبَهَاءً عَلَى بَهَاءٍ...وجَمَالاً سَاحِراً أَخَّاذاً...

لَقَدْ كَانَ يَسِيْرُ قَرِيْباً مِنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ تَشِعُّ عَيْنَاهُ بِضِيَاءِ الإِيْمَانِ، وكَأَنَّهُمَا مَنْبَعٌ رَقْرَاقٌ يَتَدَفَّقُ مَاؤُهُ غَزِيْراً صَافِياً...، أَوْ بَرْقاً سَاطِعاً يُنِيْرُ الظُّلُمَاتِ، ويَدْخُلُ إِلَى صَمِيْمِ قَلْبِ حَمْنَةَ.

وكَمْ كَانَتْ فَرْحَتُهَا حِيْنَ جَاءَهُمْ خَاطِباً لَهَا...

ومَا أَسْرَعَ مَا تَجَاوَبَتْ، فِي خَفَرٍ وحَيَاءٍ، نَمَّتْ عَنْهُمَا ابْتِسَامَةٌ مُضِيْئَةٌ اِرْتَسَمَتْ فَوْقَ ثُغْرِهَا.

ثُمَّ دَخَلَتْ إِلَى غُرْفَتِهَا تُلَمْلِمُ دَمْعَتَيْ فَرَحٍ سَالَتَا عَلَى خَدَّيْهَا.

وبَارَكَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ هَذَا الزَّوَاجَ السَّعِيْدَ، ودَعَا لِلعَرُوْسَيْنِ أَنْ يُوَفِّقَهُمَا اللهُ تَعَالَى، ويُسْبِغَ عَلَيْهِمَا مِنْ فَيْضِ رَحْمَتِهِ ونِعَمِهِ.

فِي بَيْتِ الزَّوْجِيَّةِ

دَخَلَتْ حَمْنَةُ بَيْتَ الزَّوْجِيَّةِ، وظَلَّلَهَا مَعَ مُصْعَبٍ سَقْفٌ وَاحِدٌ، وتَحَقَّقَتْ لَدَيْهَا الأُمْنِيَةُ الحَالِمَةُ التِي طَالَمَا دَاعَبَتْ خَيَالَهَا رَدْحاً طَوِيْلاً مِنَ الزَّمَنِ.

وأَنِسَ كُلٌّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ إِلَى صَاحِبِهِ، فَلَمْ يُعَكِّرْ صَفْوَ حَيَاتِهِمَا شَيْءٌ، أَوْ يُنَغِّصْ عَلَيْهِمَا.

ومَضَتْ بِهِمَا سَفِيْنَةُ الحَيَاةِ تَتَهَادَى فِي رِيْحٍ رُخَاءٍ عَلَى صَفْحَةِ المَاءِ.

كَانَتْ حَمْنَةُ رَبَّةَ بَيْتٍ صَالِحَةً، تَقُوْمُ عَلَى خِدْمَةِ زَوْجِهَا ورِعَايَةِ شُؤُوْنِهِ، وتَوْفِيْرِ أَسْبَابِ السَّعَادَةِ والهَنَاءِ فِي أَجْوَاءِ البَيْتِ.

كَمَا كَانَ مُصْعَبٌ رضي الله عنه مِنْ جَانِبِهِ زَوْجاً كَرِيْمَاً وَفِيًّا، مُحِبًّا لِزَوْجَتِهِ ورَبِيْبَةِ حَيَاتِهِ، لَا يَدْخُلُ عَلَيْهَا إِلَّا مُبْتَسِمَاً، فَيَزْدَادُ وَجْهُهُ النَّضِيْرُ بَهَاءً وجَمَالاً، وَتَزْدَادُ حَمْنَةُ مِنْ جَانِبِهَا إِقْبَالاً عَلَيْهِ وحُبًّا لَهُ، وتَعَلُّقاً بِهِ.

ومَا أَرْوَعَ البُيُوْتَ إِذَا كَانَ الطَّرَفَانِ فِيْهَا (الزَّوْجُ والزَّوْجَةُ) عَلَى قِسْطٍ وَافِرٍ مِنَ الأَدَبِ والخُلُقِ وحُسْنِ التَّرْبِيَةِ، فَتَغْدُو بِذَلِكَ نَمُوْذَجاً حَيًّا لِلسَّعَادَةِ، يُقْتَدَى بِهَا ويُنْسَجُ عَلَى مِنْوَالِهَا.

مَا سَمِعَ أَحَدٌ مِنَ الزَّوْجَيْنِ كَلِمَةً نَابِيَةً أَوْ مُلَاحَظَةً قَاسِيَةً أَوْ جَفْوَةً فِي المُعَامَلَةِ، بَل كَانَتْ الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ والبَسْمَةُ الرَّقِيْقَةُ واليَدُ الحَانِيَةُ هِيَ عُنْوَانُ التَّعَامُلِ بَيْنَ مُصْعَبٍ وحَمْنَةَ.

وكَانَتْ حَمْنَةُ رضي الله عنها تَعْرِفُ مَا قَاسَاهُ زَوْجُهَا مُصْعَبٌ مِن أُمِّهِ حِيْنَ أَسْلَمَ وآمَنَ، ومَا لَقِيَهُ مِنْ سُوْءِ المُعَامَلَةِ، حَبْساً... وتَجْوِيْعاً... وحِرْمَاناً.

كَانَتْ تَعْرِفُ ذَلِكَ كُلَّهُ...وتُدْرِكُ أَنَّ مِنْ واجِبِهَا أَنْ تُعَوِّضَهُ عَنْ حُضْنِ الأُمِّ وحَنَانِهَا، فَآلَتْ عَلَى نَفْسِهَا أَن تَكُوْنَ لَهُ زَوْجَةً وأُمًّا فِي آنٍ مَعَاً.

وأفْلَحَتْ فِي هَذَا، ونَجَحَتْ في الإِمْتِحَانِ وأَدَّتْ دَوْرَهَا عَلَى أَكْمَلِ مَا يَكُوْنُ.

فَلَا عَجَبَ أَنْ يُبَادِلَهَا مُصْعَبٌ رضي الله عنه حُبَّهَا وعَطْفَهَا وحَنَانَهَا، فَكَانَ لَهَا نِعْمَ الزَّوْجُ ونِعْمَ الرَّاعِي الصَّالِحُ.

حَامِلُ اللِّوَاءِ

كَانَتْ هَزِيْمَةُ قُرَيْشٍ فِي «بَدْرٍ» كالرِّيْحِ العَاتِيَةِ التِي هَزَّتْ جُذُوْرَ شَجَرَةِ كَرَامَتِهَا، أَو كَالعَاصِفَةِ التِي صَفَقَتْ جَبْهَةَ عِزَّتِهَا وكِبْرِيَائِهَا، أَوْ كَالطُّوْفَانِ الذِي طَمَا عَلَى سُمْعَتِهَا وهَيْبَتِهَا بَيْنَ العَرَبِ...

فَأَرَادَتْ أَنْ تَثْأَرَ، وتَجَهَّزَتْ لِذَلِكَ، وأَعَدَّتْ عُدَّتَهَا، وحَشَدَتْ حُشُوْدَهَا وخَرَجَتْ مِنْ مَكَّةَ بِقَضِّهَا وقَضِيْضِهَا، رِجَالاً ونِسَاءً، رُكْبَانَاً ومُشَاةً، حَتَّى نَزَلَتْ بِجُمُوْعِهَا عَنْدَ جَبَلِ «أُحُدٍ» فِي ظَاهِرِ المَدِيْنَةِ.

وَصَلَتْ أَنْبَاءُ ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَى رَسُوْلِ اللهِ ﷺ عَنْ طَرِيْقِ عُيُونِهِ مِنْ أَخْلَصِ أَصْحَابِهِ وأَذْكَاهُمْ، الذِيْنَ تَخَصَّصُوْا فِي ذَلِكَ، فَرَأَى أَنْ يَكُوْنَ القِتَالُ عَنْدَ أَطْرَافِ المَدِيْنَةِ لَا خَارِجَهَا بِحَيْثُ يَحْتَمِي المُسْلِمُوْنَ بِهَا ويَتَحَصَّنُوْا،

ويَخْتَارُوا مَيْدَانَ القِتَالِ فَلَا يُفْرَضُ عَلَيْهِمْ.

خُصُوْصَاً وأَنَّهُ ﷺ كَانَ قَدْ رَأَى رُؤْيَا لَا تُبَشِّرُ بِخَيْرٍ، فَعَرَضَ خُطَّتَهُ ورَأْيَهُ عَلَى أَصْحَابِهِ...

وأَخَذَ مُصْعَبُ رضي الله عنه يَدَّرَّعُ ويَتَهَيَّأُ ويَلْبَسُ لَبُوْسَ الحَرْبِ والقِتَالِ، وحَمْنَةُ تُسَاعِدُهُ عَلَى ذَلِكَ...

ولَكِنَّهَا كَانَتْ وَاجِفَةً مُضْطَرِبَةً، تَرْتَعِشُ يَدَاهَا وتَزِيْغُ عَنِ التَّحْدِيْقِ فِي وَجْهِ مُصْعَبٍ عَيْنَاهَا، خُصُوْصَاً عِنْدَمَا كَانَ يَتَحَرَّكُ الجَنِيْنُ فِي أَحْشَائِهَا...، وكَأَنَّهَا كَانَتْ تَنْظُرُ إِلَى الغَدِ ومَا يُضْمِرُهُ مِنْ أَنْبَاءٍ حَزِيْنَةٍ...

ورَاحَ مُصْعَبُ يُرَبِّتُ عَلَى كَتِفَيْهَا، ويُكَفْكِفُ دُمُوْعَهَا، ويُهَدِّئُ مِنْ رَوْعِهَا، ثُمَّ يَضُمُّهَا إِلَى صَدْرِهِ ضَمَّةً يُوْدِعُهَا كُلَّ حَنَانِهِ ومَحَبَّتِهِ.

وأَبَتْ حَمْنَةُ أَنْ تَقْعُدَ مَعَ القَاعِدِيْنَ، رُغْمَ تَرَجِّيْ مُصْعَبٍ لَهَا وإِلْحَاحِهِ عَلَيْهَا، إِذْ أَصَرَّتْ عَلَى الخُرُوْجِ لِتُشَارِكَ فِي الجِهَادِ، لَا قِتَالاً ولَا ضَرْبَاً ولَا طَعْنَاً، بَلْ مُدَاوَاةً للجَرْحَى، وسِقَايَةً للعَطْشَى، وإِسْعَافَاً لِمَنْ هُوَ بِحَاجَةٍ إِلَى الإِسْعَافِ...

كَانَتْ تَمْضِي مَعَ النِّسْوَةِ فِي مُؤَخِّرَةِ الجَيْشِ الزَّاحِفِ إِلَى «أُحُدٍ» مَزْهُوَّةً بِرَجُلِهَا الذِي كَانَ يَسِيْرُ فِي المُقَدِّمَةِ حَامِلاً لِوَاءَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ، مُتَقَدِّمَاً الصُفُوْفَ، مُتَعَطِّشَاً إِلَى القِتَالِ ذَوْدَاً عَنْ دِيْنِ اللهِ...

ولَقدْ قَاتَلَ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ قِتَالاً بُطُولِيًّا رَائِعًا، حَتَّى إِذَا مَا انْتَصَرَ المُسْلِمُوْنَ وفَرَّ المُشْرِكُوْنَ، وغَرَّ بَعْضَ المُؤْمِنِيْنَ نَصْرُهُمْ فَخَالَفُوْا أَمْرَ نَبِيِّهِمْ، انْقَلَبَ مِيْزَانُ المَعْرَكَةِ لِغَيْرِ صَالِحِهِمْ.

الشَّهِيْدُ

كَانَ الرُّمَاةُ الذِيْنَ أَوْكَلَ إِلَيْهِمْ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ أَمْرَ حِمَايَةِ مُؤَخِّرَةِ الجَيْشِ الإِسْلَامِيِّ المُقَاتِلِ يُرَابِطُوْنَ فَوْقَ تَلٍّ مُرْتَفِعٍ، فَلَمَّا لَاحَ النَّصْرُ وبَدَتْ تَبَاشِيْرُهُ ، تَرَكُوْا أَمَاكِنَهُمْ ونَزَلُوْا إِلَى المَيْدَانِ لِيَفُوْزُوا بِالغَنَائِمِ قَبْلَ أَنْ يُجْهِزَ عَلَيْهَا الآخَرُوْنَ...

فالْتَفَّ عَلَيْهِمْ مِنْ خَلْفِهِم فُرْسَانُ قُرَيْشٍ وأَمْعَنُوْا فِيْهِمْ ضَرْبًا وتَقْتِيْلًا وأَفْقَدُوْا الجَيْشَ الإِسْلَامِيَّ نَشْوَةَ النَّصْرِ والظَّفَرِ، وأَوْقَعُوْا البَلْبَلَةَ فِي صُفُوْفِهِ...

فَفَرَّ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَلْوُوْنَ عَلَى شَيْءٍ، وسَقَطَ العَدِيْدُ مِنْ كِرَامِ الصَّحَابَةِ شُهَدَاءَ فِي المَيْدَانِ، وصَعَّدَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ مَعَ قِلَّةٍ قَلِيْلَةٍ فِي الجَبَلِ يَحْتَمُوْنَ بِهِ مِنَ الضَّرْبِ والطَّعْنِ والرَّمْيِ...

وكَانَ مُصْعَبٌ رضي الله عنه قَدْ تَعَرَّضَ لِأَقْسَى الهَجَمَاتِ، لِأَنَّهُ يَحْمِلُ اللِّوَاءَ، فَلَمَّا تَكَأْكَأَ عَلَيْهِ المُشْرِكُوْنَ وأَحَاطُوْا بِهِ، صَمَّمَ عَلَى الشَّهَادَةِ ضَنًّا بِرَايَةِ

رَسُوْلِ اللهِ أَنْ تَقَعَ وتَسْقُطَ...

قُطِعَتْ يَمِيْنُهُ...فَاحْتَضَنَ اللِّوَاءَ بِيَسَارِهِ، ثُمَّ قُطِعَتْ، فَاحْتَضَنَهُ بَيْنَ عَضُدَيْهِ حَتَّى جَاءَتْهُ الضَّرْبَةُ القَاتِلَةُ فَسَقَطَ مُضَرَّجاً بِدَمِهِ.

وكَانَتْ حَمْنَةُ فِي آخِرِ الصُّفُوْفِ تَسْعَى بَيْنَ الجَرْحَى والعَطْشَى، تُدَاوِي وتُسْعِفُ، وتَحُثُّ الجُنْدَ عَلَى القِتَالِ، وهِيَ لَا تَدْرِيْ مِنْ أَمْرِ زَوْجِهَا الحَبِيْبِ شَيئاً...

واحَرْبَاهُ !!!

قَامَتِ النِّسَاءُ حِيْنَ رَجَعَ رَسُوْلُ اللهِ مِنْ أُحُدٍ يَسْأَلْنَ النَّاسَ عَنْ أَهْلِيْهِنَّ فَلَمْ يُخْبَرْنَ حَتَّى أَتَيْنَ النَّبِيَّ ﷺ، فَلَا تَسْأَلُهُ امْرَأَةٌ إِلَّا أَخْبَرَهَا، فَجَاءَتْهُ حَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ.

فَقَالَ:

ـ يَا حَمْنَةُ احْتَسِبِي أَخَاكِ عَبْدَ اللهِ بنَ جَحْشٍ.

قَالَتْ:

ـ إِنَّا للهِ وإِنّا إِلَيْهِ رَاجِعُوْنَ، رَحِمَهُ اللهُ وغَفَرَ لَهُ

ثُمَّ قَالَ:

ـ يَا حَمْنَةُ احْتَسِبِي خَالَكِ حَمْزَةُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ.

قَالَتْ:

ـ إِنَّا للهِ وإِنّا إِلَيْهِ رَاجِعُوْنَ، رَحِمَهُ اللهُ وغَفَرَ لَهُ

ثمَّ قَالَ:

ـ يَا حَمْنَةُ احْتَسِبِي زَوْجَكِ مُصْعَبَ بنَ عُمَيْرٍ.

فَقَالَتْ:

ـ وا حَرْبَاهُ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

ـ إِنَّ لِلرَّجُلِ لَشُعْبَةً مِنَ المَرْأَةِ، هِيَ لَهُ شَيْءٌ.

وقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ:

ـ كَيْفَ قُلْتِ عَلَى مُصْعَبٍ مَا لَمْ تَقُوْلِي عَلَى غَيْرِهِ ؟

قَالَتْ:

ـ يَا رَسُوْلَ اللهِ ذَكَرْتُ يُتْمَ وَلَدِهِ.

أُمُّ اليَتِيْمَةِ

عَاشَتْ حَمْنَةُ بَعْدَ ذَلِكَ أَيَّاماً حَزِيْنَةً تَذْكُرُ مُصْعَباً وحُبَّهَا لَهُ، وتَتَرَاءَى لَهَا صُوْرَتُهُ فِي يَقَظَتِهَا ومَنَامِهَا بَيْنَ الحِيْنِ والحِيْنِ، فَتَذْرِفُ الدَّمْعَ السَّخِيْنَ، حَتَّى وَضَعَتْ، وكَانَ المُوْلُوْدُ بِنْتاً حُلْوَةً جَمِيْلَةً، فِيْها الكَثِيْرُ مِنْ قَسَمَاتِ

الأَبِ والأُمِّ...، فَكَانَتْ سَلْوَاهَا وعَزَاءَهَا.

المُجَاهِدَةُ

لَمْ تُقْعِدْهَا المُصِيْبَةُ الفَادِحَةُ عَنْ وَاجِبِهَا ورِسَالَتِهَا، فَقَدْ كَانَ إِيْمَانُهَا بِاللهِ قَوِيًّا مَتِيْنًا، تَلْجَأُ إِلَيْهِ فِي سَاعَةِ الشِّدَّةِ والمِحْنَةِ عَابِدَةً دَاعِيَةً، فَتَجِدُ فِي كَنَفِ المَوْلَى عَزَّ وَجَلَّ أَصْفَى الأَجْوَاءِ وأَطْيَبَهَا...

ثُمَّ كَانَتْ تَخْرُجُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ والمُسْلِمِيْنَ إِلَى القِتَالِ فِي غَزَوَاتِهِمْ وتُؤَدِّيْ قِسْطَهَا فِيْمَا اعْتَادَتْهُ مِنْ مُدَاوَاةِ الجَرْحَى وسِقَايَةِ العَطْشَى.

ولَقَدْ قَسَمَ لَهَا رَسُوْلُ اللهِ ﷺ يَوْمَ «خَيْبَرَ» وأَعْطَاهَا مِنَ المَغَانِمِ ثَلَاثِيْنَ وَسْقًا.

الزَّوْاجُ مِنْ طَلْحَةَ

وتَقَدَّمَ لَهَا «طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللهِ» رَاغِبًا فِيْهَا...، فَلَمْ تُمَانِعْ، وبَارَكَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا الزَّوْاجَ، فَعَاشَتْ حَمْنَةُ فِي كَنَفِهِ أَيَّامًا وسِنِيْنَ عَدَدًا.

ووَلَدَتْ لَهُ وَلَدَهُ «مُحَمَّدًا» السَّجَّادُ، الاِسْمُ المَشْهُوْرُ، لِمَا جُبِلَ عَلَيْهِ مِنَ الطَّاعَةِ والعِبَادَةِ والتَّقْوَى، والعِلْمِ والكَرَمِ.

ولَقَدْ عَوَّضَهَا اللهُ تَعَالَى عَنْ مُصْعَبٍ خَيْرَاً فَعَاشَتْ أَيَّامَاً طَيِّبَةً مَعَ طَلْحَةَ يُحِبُّهَا ويَحْدِبُ عَلَيْهَا، ويُقَدِّرُ مَنْزِلَتَهَا ومَكَانَتَهَا.

ولَكِنَّ الأَيَّامَ لَا تَمْضِيْ عَلَى وَتِيْرَةٍ وَاحِدَةٍ، فِهِيَ بَيْنَ صُعُوْدٍ وهُبُوْطٍ، وكَأَنَّ حَمْنَةَ المُؤْمِنَةَ كَانَتْ عَلَى مَحَكِّ الابْتِلَاءِ مِنَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، فَبَعْدَ اِسْتِشْهَادِ الخَلِيْفَةِ الثَّالِثِ «عُثْمَانَ بنِ عَفَّانَ» رضي الله عنه اِتَّخَذَ «طَلْحَةُ» و«الزُّبَيْرُ» مَعَ أُمِّ المُؤْمِنِيْنَ عَائِشَةَ رضي الله عنها مَوْقِفَ المُطَالَبَةِ بِدَمِ عُثْمَانَ وتَطَوَّرَ الخِلَافُ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ عَلِيٍّ رضي الله عنه إِلَى حَدِّ المُجَابَهَةِ العَسْكَرِيَّةِ.

وفِي مَعْرَكَةِ الجَمَلِ سَقَطَ طَلْحَةُ شَهِيْدَاً، وتَأَيَّمَتْ حَمْنَةُ للمَرَّةِ الثَّانِيَةِ، فانْكَفَأَتْ عَلَى نَفْسِهَا حَزِيْنَةً بَاكِيَةً، صَابِرَةً مُحْتَسِبَةً، تَلُوْذُ بِإِيْمَانِهَا...

النِّهَايَةُ

ولَا نَدْرِيْ بِالضَّبْطِ سَنَةَ وَفَاتِهَا رضي الله عنها، بَعْدَ أَنْ قَطَعَتْ شَوْطَ الحَيَاةِ.

ولَكِنَّا نَسْتَطِيْعُ القَوْلَ أَنَّ حَمْنَةَ فِي السَّابِقَاتِ مِنَ المُسْلِمَاتِ الصَّحَابِيَّاتِ، خَالِدَةٌ عَلَى مَرِّ التَّارِيْخِ، سَطَّرَتْ فِي سِجِلِّ الخُلُوْدِ صَفْحَةً نَاصِعَةً وأَثَرَاً عَظِيْمَاً.

رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وأَرْضَاهَا، وأَكْرَمَ نُزُلَهَا ومَثْوَاهَا، وبَوَّأَهَا مِنْ جِنَانِ الخُلْدِ مَقَامَهَا، وألْحَقَنَا بِهَا فِي الصَّالِحِيْنَ مِنْ عِبَادِهِ، إِنَّهُ أَكْرَمُ مَسْؤُوْلٍ وأَعْظَمُ مَأْمُوْلٍ، والحَمْدُ للهِ أَوَّلاً وآخِرَاً.

❊ ❊ ❊

هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَة

"زوجَة أبي سُفيَان"

إِنَّ الشَّخْصِيَةَ الإِنْسَانِيَّةَ التِي لا تَعْرِفُ حَدَّاً وَسَطَاً، تنْحَى فِي مَوْقِفِهَا السَّلْبِيِّ تُجَاهَ أَيِّ أَمْرٍ مِنَ الأُمُوْرِ إِلَى أَقْصَى طَاقَاتِهَا، وكَذَلِكَ تَفْعَلُ فِي مَوَاقِفِهَا الإِيْجَابِيَّةِ.

وكَذَلِكَ كَانَتْ «هِنْدٌ بِنْتُ عُتْبَةَ» غَفَرَ اللهُ لَهَا ورَضِيَ عَنْهَا...

فَهِيَ فِي مَوَاقِفِهَا العَدَائِيَّةِ للإِسْلَامِ وللرَّسُوْلِ ﷺ نَزَعَتْ إِلَى القِمَّةِ فَبَدَتْ رَأْسَ المُعَارَضَةِ، وعُنْصُراً مُبَادِيَاً فِي التَّحَدِّي والمُوْاجَهَةِ، بَلْ تَخَطَّتْ الكَثِيْرِيْنَ مِنْ رِجَالَاتِ قُرَيْشٍ وزَعَامَاتِهَا، قَوْلَاً وفِعْلَاً وتَدْبِيْرَاً...

تُحَرِّضُ بِلِسَانِهَا، وتُؤْذِي بِيَدِهَا مُشَارِكَةً فِي الحَرْبِ والمَعَارِكِ، وتَأْتَمِرُ مَعَ المُؤْتَمِرِيْنَ فَتُنَسِّقُ فِي خُطَطِ الغَدْرِ والمَكْرِ.

ولَمَّا أَذِنَ اللهُ تَعَالَى لَهَا بالهِدَايَةِ، والتَّوْبَةِ مِمَّا كَانَتْ فِيْهِ مِنَ الضَّلَالَةِ والشِّرْكِ، بَرَزَتْ بِشَخْصِيَّتِهَا القَوِيَّةِ عَلَى نَفْسِ المُسْتَوَى السَّابِقِ، تَأْيِيْدَاً لِلإِسْلَامِ و تَفَاعُلَاً مَعَ الإِيْمَانِ، وسَيْرَاً حَثِيْثَاً عَلَى طَرِيْقِ الرَّحْمَنِ.

كَانَتْ عَلَى رَأْسِ المُسْلِمَاتِ المُبَايِعَاتِ لِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ، بَلْ كَانَتْ المُحَاوِرَةَ الإِيْجَابِيَّةَ لِأَرْكَانِ البَيْعَةِ...

وحَطَّمَتْ بِيَدَيْهَا صَنَمَاً فِي بَيْتِهَا كَانَتْ تَعْكِفُ عَلَيْهِ، وتُخَاطِبُهُ:

ـ كُنَّا مِنْكَ فِيْ غُرُوْرٍ.

وشَارَكَتْ فِي القِتَالِ يَوْمَ اليَرْمُوْكِ ذَبَّاً عَنْ دِيْنِ اللهِ، وحَرَّضَتْ عَلَى الثَّبَاتِ والصَّبْرِ.

نَسَبُهَا

هِيَ: هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ بنِ رَبِيْعَةَ .

فَهِيَ «عَبْشَمِيَّةٌ»، والعَبْشَمِيُّوْنَ مِنْ قُرَيْشٍ هُمْ كُلُّ مَنْ انْتَسَبَ إِلَى عَبْدِ شَمْسٍ، وكَانُوْا فِي الذُّؤَابَةِ مِنَ القَوْمِ، مِثْلَ «بَنِيْ مَخْزُوْمٍ» و«بَنِي هَاشِمٍ» و«بَنِي تَمِيْمٍ»، ولِكُلِّ فَرِيْقٍ قِيَادَتُهُ ومَسْؤُولِيَّتُهُ.

وِلَادَتُهَا ونَشْأَتُهَا

وُلِدَتْ قَبْلَ البِعْثَةِ بِبِضْعَةِ سِنِيْنَ، وكَمَا يَقُوْلُوْنَ: وُلِدَتْ وفِي فَمِهَا مِلْعَقَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَقَدْ كَانَ وَالِدُهَا مِنْ أَثْرِيَاءِ مَكَّةَ، وسَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِهَا، يَتَمَتَّعُ بِنُفُوْذٍ وَاسِعٍ ورَأْيٍ مُطَاعٍ وسَطْوَةٍ بَالِغَةٍ...

وعَلَى عَادَةِ السُّرَاةِ فَقَدْ لَقِيَتْ «هِنْدٌ» مُنْذُ يَوْمِ وِلَادَتِهَا كُلَّ رِعَايَةٍ وحَدْبٍ وحَنَانٍ.

وكَانَتْ مَخَايِلُ الذَّكَاءِ والفِطْنَةِ تَلُوْحُ مِنْ خِلَالِ تَصَرُّفَاتِهَا، ونُضُوْجِهَا المُبَكِّرِ، ولَمْ تَكُنْ هَذِهِ الصِّفَاتُ وحْدَهَا هِيَ التِي تُبْرِزُ مَعَالِمَ شَخْصِيَّتِهَا، بَلْ كَانَتْ عَلَى جَانِبٍ مِنَ البَهَاءِ والحُسْنِ والجَمَالِ.

ولَقِيَتْ هِنْدٌ أَيْضَاً اهْتِمَامَ أَبِيْهَا فِي تَعْلِيْمِهَا وتَثْقِيْفِهَا، وقَلِيْلاً مَا كَانَتْ القِرَاءَةُ والكِتَابَةُ تَأْخُذُ طَرِيْقَهَا إِلَى البُيُوْتَاتِ القُرَشِيَّةِ، إِلَّا إِذَا كَانَ الأَفْرَادُ مُهَيَّئِيْنَ لَهَا، وعَلَى الخُصُوْصِ مِنْ بُيُوْتِ السَّادَةِ والكُبَرَاءِ.

ولَقَدْ أَتْقَنَتْ هِنْدٌ الفَصَاحَةَ والبَلَاغَةَ والبَيَانَ، وحَفِظَتْ كَثِيْرَاً مِنَ الشِّعْرِ، وكَانَتْ ذَوَّاقَةً فَنَظَمَتْ أَيْضَاً وأَنْشَدَتْ.

واكْتَمَلَتْ أُنُوْثَةً وجَمَالاً...

فَزَادَهَا كُلُّ ذَلِكَ اعْتِدَاداً بِشَخْصِيَّتِهَا واعْتِزَازاً وشُهْرَةً، وبَدَتْ فِي الوَسَطِ النِّسَائِيِّ فِي مَكَّةَ فَتَاةً يَتَمَنَّاهَا كَثِيْرٌ مِنَ الفِتْيَانِ زَوْجَةً لَهُ ورَفِيْقَةً لِعُمْرِهِ يَأْنَسُ بِهَا، ويَسْعَدُ بِعِشْرَتِهَا، وتَكُوْنُ مُوْئِلاً طَيِّباً لِأُسْرَةٍ سَعِيْدَةٍ فَذَّةٍ.

الزَّوَاجُ الأَوَّلُ

وتَقَدَّمَ لِخِطْبَتِهَا والزَّوْاجِ مِنْهَا أَحَدُ السَّادَةِ الأَثْرِيَاءِ، شَابٌّ نَابِهٌ وَاسِعُ الثَّرْوَةِ اسْمُهُ «الفَاكِهَةُ بنُ المُغِيْرَةِ» ويَنْتَسِبُ إِلَى «بَنِيْ مَخْزُوْمٍ»...

فاسْتَشَارَهَا وَالِدُهَا «عُتْبَةُ» فِي ذَلِكَ، فَوَافَقَتْ، وزُفَّتْ إِلَى الفَاكِهَةِ بنِ المُغِيْرَةِ.

وكَانَ الفَاكِهَةُ مُوْلَعاً ومُوَلَّهاً بِهِنْدٍ، شَدِيْدَ الغَيْرَةِ عَلَيْهَا، وبَادَلَتْهُ حُبّاً بِحُبٍّ وهَنِئَا بِهَذَا الزَّوَاجِ فَتْرَةً مِنَ الزَّمَنْ لَيْسَتْ بِالطَّوِيْلَةِ، لَمْ تَبْلُغِ السَّنَةَ.

وكَانَ الفَاكِهَةِ بَيْتٌ لِلضِّيَافَةِ بَارِزٌ مِنَ البُيُوْتِ، يَغْشَاهُ النَّاسُ مِنْ غَيْرِ إِذْنٍ، وهَذَا وَجْهٌ مِنْ وُجُوْهِ الكَرَمِ الذِي تَمَيَّزَ بِهِ الفَاكِهَةُ.

الشَّكُ والغَيْرَةُ

خَلَتْ دَارُ الضِّيَافَةِ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الزَّائِرِيْنَ، فَاضْطَجَعَ الفَاكِهَةُ مَعَ هِنْدٍ فِيْهِ، ثُمَّ قَامَ لِبَعْضِ حَاجَتِهِ...

وأَقْبَلَ ـ صُدْفَةً ـ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانُوْا يَغْشَوْنَ الدَّارَ، فَوَلِجَهُ وهُوَ لَا يَعْلَمُ وُجُوْدَ هِنْدٍ فِيْهِ، فَلَمَّا بَدَتْ لَهُ تَرَاجَعُ مُوَلِّيَاً.

فَأَبْصَرَهُ الفَاكِهَةُ فِي عَوْدَتِهِ مِن حَاجَتِهِ، وظَنَّ فِي الأَمْرِ سوْءاً، فَدَخَلَ

عَلَى هَنْدٍ يَشْتَعِلُ غَضَباً وغَيْرَةً ووَقَفَ فَوْقَ رَأْسِهَا وهِيَ لَا تَزَالُ مُسْتَلْقِيَةً، ثُمَّ رَفَسَهَا بِرِجْلِهِ، وقَالَ:

ـ مَنْ هَذَا الذِي خَرَجَ مِنْ عِنْدِكِ ؟

قَالَتْ ـ وقَدْ أَذْهَلَتْهَا المُفَاجَأَةُ ـ

ـ مَا رَأَيْتُ أَحَداً ولَا انْتَبَهْتُ حَتَّى أَنْبَهْتَنِي...

ومِنْ غَيْرِ تَثَبُّتٍ أَوْ رَوِيَّةٍ، ولَا تَدْقِيقٍ أَوْ تَحْقِيقٍ، قَالَ الفَاكِهَةُ لِهِنْدٍ:

ـ ارْجِعِي إِلَى أُمِّكِ.

وعَادَتْ هِنْدُ إِلَى دَارِ أَبِيْهَا عُتْبَةُ وقَدْ امْتَلَأَتْ نَفْسُهَا حَسْرَةً وأَلَماً، وغَيَّمَتْ عَلَى رُوْحِهَا ومَشَاعِرِهَا غُيُوْمُ الأَلَمِ والنَّدَمِ.

وزَادَ مِنْ تَأَثُّرِهَا بَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيْلَةٍ مَا كَانَتْ تُرَدِّدُهُ الأَلْسُنُ والأَفْوَاهُ عَنْ الحَادِثَةِ، ومَا يُشِيْعُوْنَهُ مِنْ أَقْوَالٍ وكَلَامٍ...

إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ تَتَمَاسَكُ وتَتَجَلَّدُ لِأَنَّهَا كَانَتْ وحْدَهَا فَقَطْ تَعْرِفُ مَدى طَهَارَتِهَا وبَرَاءَتِهَا...

غَضْبَةُ الأَبِ

وضَاقَ عُتْبَةُ ذَرْعَاً بِالوَضْعِ الشَّاذِّ، وثَارَتْ فِي وُجْدَانِهِ كُلُّ مَشَاعِرِ الكَرَامَةِ والأَنَفَةِ والعِزَّةِ، فَدَخَلَ عَلَى هِنْدٍ قَائِلَاً:

ـ يَا بُنَيَّةُ... إِنَّ النَّاسَ قَدْ أَكْثَرُوا فِيْكِ، فَأَبِيْنِيْ نَبَأَكِ...!! فَإِنْ يَكُنِ الرَّجُلُ عَلَيْكِ صَادِقاً دَسَسْتُ عَلَيْهِ مَنْ يَقْتُلُهُ فَتَنْقَطِعُ عَنْكِ المَقَالَةُ، وإِنْ يَكُ كَاذِباً حَاكَمْتُهُ إِلَى بَعْضِ كُهَّانِ اليَمَنِ.

فَقَالَتْ:

ـ لَا واللهِ مَا هُوَ عَلَيَّ بِصَادِقٍ !!

البَرَاءَةُ

وفِعْلًا دَبَّرَ عُتْبَةُ لِلْكَاهِنِ تَدْبِيْرَاً، نَجَحَ فِيْهِ الكَاهِنُ...

فَقَالَ لَهُ عُتْبَةُ: اُنْظُرْ فِي أَمْرِ هَؤُلَاءِ النِّسْوَةِ...

فَجَعَلَ الكَاهِنُ يَدْنُو مِنْ إِحْدَاهُنَّ فَيَضْرِبُ بِيَدِهِ عَلَى كَتِفِهَا ويَقُوْلُ: انْهَضِي، حَتَّى دَنَا مِنْ هِنْدٍ فَقَالَ لَهَا:

ـ انْهَضِي غَيْرَ رَسْحَاءَ[1] ولَا زَانِيَهْ، ولَتَلِدِنَّ مَلِكَاً يُقَالُ لَهُ «مُعَاوِيَهْ»...

فانْفَرَجَتْ أَسَارِيْرُ هِنْدٍ وكُلِّ مَنْ كَانَ مَعَهَا مِنْ أَهْلِهَا وقَرَابَتِهَا، وكَانَ وَالِدُهَا عُتْبَةُ أَكْثَرَهُمْ سَعَادَةً وحُبُوْرَاً...

وأَدْرَكَ الفَاكِهَةُ بنُ المُغِيْرَةِ أَنَّهُ قَدْ ظَلَمَهَا وتَعَجَّلَ الحُكْمَ عَلَيْهَا وأَنَّ

(١) ـ أي غَيْرَ آثِمَةٍ.

شَكَّهُ وغَيْرَتَهُ هُمَا سَبَبُ مَا هُوَ فِيْهِ مِنْ البَلَاءِ والخِزْيِ، فَنَدِمَ وقَامَ إِلَى هِنْدٍ يَسْتَرْضِيهَا...، ولَعَلَّهُ عِنْدَمَا سَمِعَ قَوْلَ الكَاهِنِ أَنَّهَا سَتَلِدُ مَلِكاً تَمَنَّى أَنْ يَكُوْنَ هُوَ أَبُوْهُ، فَمَدَّ يَدَهُ إِلَى يَدِهَا وكَأَنَّهُ يَسْتَغْفِرُهَا ويَسْتَسْمِحُهَا، فَقَالَتْ هِنْدُ:

ـ إِلَيْكَ عَنِّي فَوَاللهِ لَأَحْرِصُ أَنْ يَكُوْنَ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِكَ.

الزَّوَاجُ الثَّانِي

«أَبُوْ سُفْيَانَ» صَخْرُ بنُ حَرْبٍ.

بَعْدَ أَنْ ظَهَرَتْ لِلْمَلَأِ بَرَاءَةُ هِنْدٍ مِمَّا رَمَاهَا بِهِ الفَاكِهَةُ بنُ المُغِيْرَةِ، اِشْرَأَبَّتْ أَعْنَاقُ الشَّبَابِ والفِتْيَانِ مِنْ جَدِيْدٍ تَتَطَلَّعُ إِلَيْهَا وتَتَمَنَّاهَا...

ويَبْدُو أَنَّ طُلَّابَهَا كَانُوْا كَثِيْرِيْنَ، كَمَا يَبْدُوْ أَنَّ وَالِدَهَا عُتْبَةُ قَدْ حَدَّثَهَا بِهَذَا الصَّدَدِ، إِذْ قَالَتْ لَهُ ذَاتَ يَوْمٍ:

ـ إِنِّيْ امْرَأَةٌ قَدْ مَلَكْتُ أَمْرِيْ فَلَا تُزَوِّجْنِي رَجُلاً حَتَّى تَعْرِضَهُ عَلَيَّ...

وهِيَ بِهَذَا إِنَّمَا تُرِيْدُ التَّرَيُّثَ فِي الاخْتِيَارِ، كَمَا تُرِيْدُ أَيْضاً أَنْ يَكُوْنَ لَهَا الرَّأْيُ الأَوَّلُ دُوْنَ أَبِيْهَا...، فَقَالَ لَهَا:

ـ لَكِ ذَاكَ.

قَالَ لَهَا ذَاتَ يَوْمٍ:

ـ إِنَّكِ قَدْ خَطَبَكِ رَجُلَانِ مِنْ قَوْمِكِ، ولَسْتُ مُسَمِّيَاً لَكِ واحِدَاً مِنْهُمَا حَتَّى أَصِفْهُ لَكِ، أَمَّا الأَوَّلُ:

فَفِي الشَّرَفِ الصَّمِيْمِ والحَسَبِ الكَرِيْمِ، حَسَنُ الصِّحَابَةِ، سَرِيْعُ الإِجَابَةِ، إِنْ تَابَعْتِيْهِ تَبِعَكِ، وإِنْ مِلْتِ كَانَ مَعَكِ تَقْضِيْنَ عَلَيْهِ فِي مَالِهِ، وتَكُفِّيْنَ بِرَأْيِكِ عَنْ مَشُوْرَتِهِ.

وأَمَّا الآخَرُ:

فَفِي الحَسَبِ الحَسِيْبِ والرَّأْيِ الأَرِيْبِ بَدْرُ أَرُوْمَتِهِ وعِزُّ عَشِيْرَتِهِ، يُؤَدِّبُ أَهْلَهُ ولَا يُؤَدِّبُوْنَهُ، إِن اتَّبَعُوْهُ أَسْهَلَ بِهِمْ، وإِنْ جَانَبُوْهُ تَوَعَّرَ عَلَيْهِمْ، شَدِيْدُ الغَيْرَةِ، سَرِيْعُ الطَّيْرَةِ، صَعْبُ حِجَابِ القُبَّةِ، إِنْ حَاجَّ فَغَيْرُ مَنْزُوْرٍ، وإِنْ تَوَرَّعَ فَغَيْرُ مَقْهُوْرٍ، وقَدْ بَيَّنْتُ لَكِ كِلَيْهِمَا.

اِسْتَمَعَتْ هِنْدُ إِلَى هَذَا الوَصْفِ، ثُمَّ قَالَتْ:

أَمَّا الأَوْلُ:

فَسَيِّدٌ مِضْيَاعٌ لِكَرِيْمَتِهِ، مُؤَاتٍ لَهَا فِيْمَا عَسَى أَنْ تَقْتَصَّ أَنْ تَلِيْنَ بَعْدَ إِبَائِهَا وتَضِيْعَ تَحْتَ خِبَائِهَا، إِن جَاءَتْهُ بِوَلَدٍ أَحْمَقَتْ، وإِنْ أَنْجَبَتْ فَعَنْ خَطَأٍ مَا أَنْجَبَتْ، اِطْوِ ذِكْرَ هَذَا عَنِّي ولا تُسَمِّهِ لِي.

وأَمَّا الآخَرُ:

فَبَعْلُ الحُرَّةِ الكَرِيْمَةِ، إِنِّي لِأَخْلَاقِ هَذَا لَوَاقِعَةٌ، وإِنِّي لَهُ لَمُوَافِقَةٌ، وإِنِّي لَآخُذُهُ بِأَدَبِ البَعْلِ مَعْ لُزُوْمِي قُبَّتِي وقِلَّةِ تَلَفُّتِي، وإِنَّ السَّلِيْلَ بَيْنِي وبَيْنَهُ لَحَرِيٌّ أَنْ يَكُوْنَ المُدَافِعَ عَنْ حَرِيْمِ عَشِيْرَتِهِ الذَّائِدَ عَنْ كَتِيْبَتِهَا، المُحَامِيَ عَنْ حَقِيْقَتِهَا، المُتَشَبِّتَ لِأَرُوْمَتِهَا، غَيْرَ مُوَاكِلٍ ولَا زِمَّيْلٍ عِنْدَ صَعْصَعَةِ الحُرُوْبِ.

لَقَدْ آثَرَتْ هِنْدُ صَاحِبَ الشَّخْصِيَّةِ القَوِيَّةِ، فَكَانَ «أَبَا سُفْيَانَ» صَخْرَ بنَ حَرْبِ بنِ أُمَيَّةَ بنِ عَبْدِ شَمْسٍ.

رَبِيْبَةُ الجَاهِلِيَّةِ

وتَزَوَّجَا...

وعَاشَتْ هِنْدٌ فِي كَنَفِ أَبِي سُفْيَانَ غَيْرَ ذَائِبَةٍ أَوْ فَانِيَةٍ، بَلْ مُتَمَيِّزَةَ الشَّخْصِيَّةِ صَاحِبَةَ رَأْيٍ ورُؤْيَةٍ، خُصُوْصَاً عَلَى صَعِيْدِ مَا يُوْاجِهُ قُرَيْشَاً مِنْ تَغْيِيْرٍ جَذْرِيٍّ فِي مُعْتَقَدِهَا وأُسْلُوبِ حَيَاتِهَا، فَكَانَتْ عَنِيْفَةً شَدِيْدَةً فِي التَّصَدِّي لِلإِسْلَامِ والمُسْلِمِيْنَ، ذَاتَ بَأْسٍ وقُوَّةٍ، تَنْفُخُ رِيْحَ الحِقْدِ فِي نَارِ الغَضَبِ، فَيَزْدَادُ الكُرْهُ ويَعْلُوْ اللَّهَبُ...

حَتَّى كَانَ يُوْمُ الفَجِيْعَةِ الكُبْرَى لَهَا...

يَوْمُ «بَدْرٍ»، حِيْنَ قُتِلَ أَبُوْهَا «عُتْبَةُ»، وعَمُّهَا «شَيْبَةُ»، وأَخُوْهَا «الوَلِيْدُ»!!!

كَانَ زَوْجُهَا أَبُوْ سُفْيَانَ يَوْمَئِذٍ عَلَى أَمْوَالِ قُرَيْشٍ وتِجَارَتِهَا، غَائِبَاً عَنِ المَعْرَكَةِ، عَائِدَاً بِالقَافِلَةِ مِنَ الشَّامِ إِلَى الحِجَازِ، ولَقَدْ سَاحَلَ بِالعِيْرِ عِنْدَمَا عَلِمَ بِخُرُوْجِ النَّبِيِّ ﷺ والمُسْلِمِيْنَ للتَّصَدِّي لَهُ واعْتِرَاضِهِ، وأَرْسَلَ إِلَى قُرَيْشٍ فِي مَكَّةَ يَسْتَحِثُّهَا عَلَى إِنْقَاذِ أَمْوَالِهَا...

هَاجَتْ هَائِجَةُ النَّاسِ، وخَرَجُوْا خُرُوْجَهُمُ المَعْرُوْفَ المَشْهُوْرَ...

وأَصَرَّ «أَبُوْ جَهْلٍ» ـ عَمْرُو بنُ هِشَامٍ ـ عَلَى مُنَاحَرَةِ المُسْلِمِيْنَ ومُوَاجَهَتِهِمْ رُغْمَ نَجَاةِ القَافِلَةِ...

واسْتَنْصَرَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ رَبَّهُ عَلَى الأَعْدَاءِ، فَأَيَّدَهُ بِالمَلَائِكَةِ وثَبَّتَ القِلَّةَ المُؤْمِنَةَ، حَتَّى دَارَتِ الدَّائِرَةُ عَلَى المُشْرِكِيْنَ ، وسَقَطَ العَدِيْدُ مِنْهُمْ صَرْعَى مُعَفَّرِيْنَ بِالتُّرَابِ مُلَطَّخِيْنَ بِالدِّمَاءِ، وأُسِرَ الكَثِيْرُوْنَ، وفَرَّ البَاقُوْنَ لَا يَلْوُونَ عَلَى شَيْءٍ.

وكَانَ ـ كَما أَسْلَفْنا ـ مِنْ بَيْنِ القَتْلَى وَالِدُ «هِنْدٍ» وأَخُوْهَا وعَمُّهَا...

فَكَانَتْ ثَوْرَةُ النَّفْسِ عِنْدَهَا فِي الأَوْجِ، حُزْنَاً وهَمَّاً وغَمَّاً...

الحِقْدُ والثَّأْرُ

وبَعْدَ أَنْ تَقَصَّتْ هِنْدٌ أَنْبَاءَ مَعْرَكَةِ بَدْرٍ وعَرَفَتْ تَفَاصِيْلَهَا واسْتَقَرَّ لَدَيْهَا

أَنَّ «حَمْزَةَ بنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ» رضي الله عنه عَمَّ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ هُوَ الذِي قَتَلَ أَبَاهَا وفَعَلَ الأَفَاعِيْلَ فِي قُرَيْشٍ يَوْمَ بَدْرٍ، تَوَجَّهَ كُلُّ حِقْدِهَا نَحْوَهُ والثَّأْرَ مِنْهُ، وأَضْمَرَتْ أَنْ تُمَثِّلَ بِهِ وتَأْكُلَ مِنْ كَبِدِهِ، كَمَا أَفْرَى كَبِدَهَا غَمّاً وحُزْنَاً عَلَى أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْهَا.

فِي أُحُدٍ

وتَرْجَمَتْ هِنْدٌ حِقْدَهَا إِلَى ثَأْرٍ عَمَلِيٍّ...

فَقَدْ كَانَ لِـ«جُبَيْرِ بنِ المُطْعِمِ بنِ عَدِيٍّ» غُلَامٌ يُدْعَى «وَحْشِيَّ بنَ حَرْبٍ» مِنْ أَحَابِيْشِ مَكَّةَ، يَقْذِفُ بِالحَرْبَةِ قَذْفَ الأَحَابِيْشِ فَلَا يُخْطِئُ، وكَانَ قَدْ مَنَّاهُ مَوْلَاهُ جُبَيْرٌ بِالعِتْقِ والحُرِّيَّةِ إِنْ هُوَ قَتَلَ حَمْزَةَ بنَ عَبدِ المَطَّلِبِ، فِي مَعْرَكَةِ الثَّأْرِ المُنْتَظَرَةِ بَيْنَ قُرَيْشٍ والمُسْلِمِيْنَ...

وكَانَتْ قُرَيْشٌ تَسْتَعِدُّ لِذَلِكَ اليَوْمِ اِسْتِعْدَادَاً كَبِيْرَاً وهَائِلَاً، ومِنَ الصُّدَفِ أَنْ يُضْحِيَ أَبُوْ سُفْيَانَ زَوْجُ هِنْدٍ عَلَى رَأْسِ القِيَادَةِ السِّيَاسِيَّةِ والعَسْكَرِيَّةِ لِقُرَيْشٍ، بَعْدَ مَوْتِ أَبِيْ جَهْلٍ وغَيْرِهِ مِنَ الأَرْهَاطِ والسَّادَةِ فِي بَدْرٍ...

وكَانَتْ هِنْدٌ تَنْتَظِرُ اليَوْمَ بِفَارِغِ الصَّبْرِ، وتُذْكِي حَمَاسَ زَوْجِهَا وتَسْتَعْجِلُهُ وتَسْتَحِثُّهُ، وكَانَتْ كُلَّمَا رَأَتْ «وَحْشِيَّاً» شَجَّعَتْهُ، ووَعَدَتْهُ بِالعَطَاءِ الجَزِيْلِ، وتَقُوْلُ لَهُ:

ـ اشْفِ واشْتَفِ «أَبَا دَسْمَةَ»...

وخَرَجَتْ هِنْدٌ فِي خَمْسَ عَشْرَةَ امْرَأَةٍ مَعَ جَيْشِ المُشْرِكِيْنَ، ولَمَّا الْتَقَى الجَيْشَانِ، ودَنَا بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، قَامَتْ هِنْدُ فِي النِّسْوَةِ اللوَاتِي مَعَهَا يَضْرِبْنَ بِالدُّفُوْفِ خَلْفَ الرِّجَالِ ويُحَرِّضْنَهُمْ عَلَى القِتَالِ ويُنْشِدْنَ:

نَحْنُ بَنَاتُ طَارِقْ نَمْشِي عَلَى النَّمَارِقْ

إِنْ تُقْبِلُـوْا نُعَانِقْ أَوْ تُدْبِـرُوا نُفَارِقْ

فِرَاقَ غَيْرِ وَامِقْ

وكَانَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ المَعْرَكَةِ، مِنْ نَصْرِ المُسْلِمِيْنَ أَوَّلاً، ثُمَّ هَزِيْمَتِهِمْ، ووُقُوْعِ العَدِيْدِ مِنْهُمْ شُهَدَاءَ، وعَلَى رَأْسِهِمْ سَيِّدُهُمْ حَمْزَةُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ رضي الله عنه، الذِي تَحَيَّنَ لَهُ وَحْشِيُّ بنُ حَرْبٍ الفُرْصَةَ حَتَّى تَمَكَّنَ مِنْهُ فَقَذَفَهُ بِالحَرْبَةِ فَخَرَّ صَرِيْعَاً...

وأَقْبَلَتْ هِنْدٌ مَعَ النِّسْوَةِ يُمَثِّلْنَ بالقَتْلَى الشُّهَدَاءِ أَبْشَعَ تَمْثِيْلٍ، يَجْدَعْنَ الآذَانَ والأُنُوْفَ، حَتَّى اتَّخَذَتْ هِنْدٌ مِنْ آذَانِ الرِّجَالِ وأُنُفِهِمْ خِدْمَاً وقَلَائِدَ، ومَنَحَتْ وَحْشِيَّاً خِدْمَهَا وقَلَائِدَهَا وقِرْطَهَا وحُلِيَّهَا...

ثُمَّ بَقَرَتْ بَطْنَ حَمْزَةَ وأَخْرَجَتْ كَبِدَهُ فَلَاكَتْهَا فَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُسِيْغَهَا فَلَفَظَتْهَا.

دَوْلَةُ الإِسْلَامِ

واسْتَمَرَّ نَجْمُ الإِسْلَامِ فِي صُعُوْدٍ وأَخَذَتْ دَوْلَتُهُ وكَيَانُهَا فِي التَّبَلْوُرِ، خُصُوْصَاً بَعْدَ «الخَنْدَقِ» و«الحُدَيْبِيَةِ» و«عُمْرَةِ القَضَاءِ»، ودُخُوْلِ القَبَائِلِ فِي دِيْنِ اللهِ أَفْوَاجَاً...

وحَدَثَ أَنْ نَقَضَتْ قُرَيْشٌ عَهْدَ الحُدَيْبِيَةِ بِتَأْيِيْدِهَا قَبِيلَةَ «بَكْرٍ» عَلَى «خُزَاعَةَ»، فَشَدَّ أَبُوْ سُفْيَانَ الرَّحِيْلَ إِلَى المَدِيْنَةِ لِيَسُدَّ الثَّغْرَةَ، ولَكِنَّهُ لَمْ يَلْقَ الاسْتِقْبَالَ الحَسَنَ، فَارْتَدَّ عَلَى عَقِبَيْهِ إِلَى مَكَّةَ مَذْمُوْمَاً مَدْحُوْرَاً، خَالِيَ الوِفَاضِ، فَلَمَّا اسْتَمَعَتْ هِنْدٌ مِنْهُ الوَقَائِعَ والتَّصَوُّرَاتِ قَالَتْ لَهُ:

ـ قُبِّحْتَ مِنْ سَفِيْرِ قَوْمٍ...

إِسْلَامُهَا

ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وغَفَرَ لَهَا ـ

وهُنَا، نَدْخُلُ فِي الدَّوْرِ الثَّالِثِ مِنْ أَدْوَارِ حَيَاتِهَا، وهُوَ الدَّوْرُ الذِيْ يُشَرِّفُهَا فِعْلَاً، ويَرْفَعُ مَقَامَهَا حَقَّاً، إِنَّهُ دَوْرُ إِسْلَامِهَا وجِهَادِهَا فِي سَبِيْلِ اللهِ.

فَلَمَّا رَجَعَ أَبُوسُفْيَانَ سِلْمَاً مِنْ عَنْدِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى مَكَّةَ فِي لَيْلَةِ الفَتْحِ،

صَاحَ فِي أَنْدِيَةِ النَّاسِ قَائِلاً:

ـ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ...أَلَا إِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ فَأَسْلِمُوْا، فَإِنَّ مُحَمَّدَاً قَدْ أَتَاكُمْ بِمَا لَا قِبَلَ لَكُمْ بِهِ...، مَنْ دَخَلَ البَيْتَ فَهُوَ آمِنٌ، ومَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِيْ سُفْيَانَ فَهُوَ آمِن، ومَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ...

فُوْجِئَتْ هِنْدٌ بِمَا قَالَهُ، وكَأَنَّ نَازِلَةً مِنَ السَّمَاءِ خَرَّتْ عَلَيْهَا، فقَامَتْ فِي وَجْهِهِ كالمَجْنُوْنَةِ تَصْرُخُ وتَقُوْلُ:

ـ بِئْسَ طَلِيْعَةُ القَوْمِ أَنْتَ، واللهِ مَا خَدَشْتَ خَدْشَاً...، يَا أَهْلَ مَكَّةَ عَلَيْكُمْ بِالحَمِيْتِ[1] الدَّسِمِ فَاقْتُلُوهُ...

لَكِنَّ صَرْخَتَهَا هَذِهِ ذَهَبَتْ أَدْرَاجَ الرِّيَاحِ ولَمْ تَلْقَ مِنَ النَّاسِ آذَانَاً صَاغِيَةً... ودَخَلَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ والمُسْلِمُوْنَ مَعَهُ مَكَّةَ، كَمَا دَخَلَ النَّاسُ فِي دِيْنِ اللهِ أَفْوَاجَاً، وخَطَبَ ﷺ فِي الجُمُوْعِ، وعَفَا عَمَّنْ ظَلَمَهُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ بِقَوْلِهِ:

ـ اِذْهَبُوْا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ...

وفِي صَبَاحِ اليَوْمِ التَّالِي حَدَثَ الإِنْقِلَابُ العَظِيْمُ، إِذْ فَاجَأَتْ هِنْدٌ زَوْجَهَا أَبَا سُفْيَانَ بِقَوْلِهَا:

ـ إِنَّمَا أُرِيْدُ أَنْ أُتَابِعَ مُحَمَّدَاً...

---

(١) ـ الحميت: الشَّدِيد

فالْتَفَتَ إِلَيْهَا مُتَعَجِّباً وقَالَ:

ـ قَدْ رَأَيْتُكِ تَكْرَهِيْنَ هَذَا الحَدِيْثَ بِالأَمْسِ.

قَالَتْ:

ـ إِنِّي واللهِ مَا رَأَيْتُ أَنْ عُبِدَ اللهُ حَقَّ عِبَادَتِهِ فِي هَذَا المَسْجِدِ بلِ اللَّيلَةَ، واللهِ إِنْ يَأْتُوْا إِلَّا مُصَلِّيْنَ قِيَامَاً ورُكُوْعَاً وسُجُوْدَاً...

فَقَالَ لَهَا أَبُوْ سُفْيَانَ:

ـ إِنَّكِ قَدْ فَعَلْتِ مَا فَعَلْتِ فَاذْهَبِي بِرَجُلِ قَوْمِكِ مَعَكِ.

فَذَهَبَتْ إِلَى «عُثْمَانَ بنِ عَفَّانَ» رضي الله عنه فَذَهَبَ فَاسْتَأْذَنَ لَهَا فَدَخَلَتْ مُتَنَقِّبَةً مُتَنَكِّرَةً لِحَدَثِهَا، ومَا كَانَ مِنْ صَنِيْعِهَا بِحَمْزَةَ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ رضي الله عنه، فَهِيَ تَخَافُ أَنْ يَأْخُذَهَا رَسُوْلُ اللهِ ﷺ بِذَنْبِهَا ذَلِكَ.

فَقَالَتْ:

ـ يَا رَسُوْلَ اللهِ، الحَمْدُ للهِ الذِي أَظْهَرَ الدِّيْنَ الذِي اخْتَارَهُ لِنَفْسِهِ لِتَنْفَعَنِي رَحِمُكَ، يَا مُحَمَّدُ إِنِّي امْرَأَةٌ مُؤْمِنَةٌ باللهِ مُصَدِّقَةٌ بِرَسُوْلِهِ، ثُمَّ كَشَفَتْ عَنْ نِقَابِهَا وقَالَتْ:

ـ أَنَا هِنْدٌ بِنْتُ عَتْبَةَ.

فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ:

ـ مَرْحَباً بِكِ.

فَقَالَتْ:

ـ واللهِ مَا كَانَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ أَهْلُ خِبَاءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ يَذِلُّوْا مِنْ خِبَائِكَ، ولَقَدْ أَصْبَحْتُ ومَا عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ أَهْلُ خِبَاءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَعُزُّوْا مِنْ أَهْلِ خِبَائِكَ.

البَيْعَةُ والحِوَارُ

لَقَدْ جَاءَتْهُ ﵂ وغَفَرَ لَهَا مَعَ بَعْضِ النِّسْوَةِ يُعْلِنَّ إِسْلَامَهُنَّ ويُبَايِعْنَهُ، فَقَالَ لَهُنَّ ﷺ:

ـ تُبَايِعْنَنِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئَاً.

فَقَالَتْ هِنْدٌ:

ـ واللهِ إِنَّكَ لَتَأْخُذُ عَلَيْنَا أَمْرَاً مَا تَأْخُذُهُ عَلى الرِّجَالِ، وسَنُؤْتِيْكَهُ.

قَالَ:

ـ ولا تَسْرِقْنَ...

فَقَالَتْ:

ـ واللهِ إِنْ كُنْتُ لَأُصِيْبُ مِنْ مَالِ أَبِي سُفْيَانَ الهِنَةَ بَعْدَ الهِنَةِ[1]، ومَا

(١) ـ الهِنَةَ: الشيء القليل الهيِّنَ.

أَدْرِيْ أَكَانَ ذَلِكَ حَلَالاً لِي أَمْ لَا.

[ويَبْدُو أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ كَانَ قَدْ حَضَرَ المَجْلِسَ بَعْدَهُنَّ]

فَقَالَ:

ـ أَمَا مَا أَصَبْتِ فِيْمَا مَضَى فَأَنْتِ مِنْهُ فِي حِلٍّ.

فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ مُتَعَجِّبَاً مِنْ تَصَرُّفِ هِنْدٍ الثَّرِيَّةِ، العَزِيْزَةِ النَّفْسِ:

ـ وإِنَّكِ لَهِنْدٌ بِنْتُ عُتْبَةَ ؟؟!!

فقَالَتْ:

ـ وأَنَا هِنْدٌ بِنْتُ عُتْبَةَ فَاعْفُ عَمَّا سَلَفَ، عَفَا اللهُ عَنْكَ.

ثُمَّ تَابَعَ ﷺ المُبَايَعَةَ فَقَالَ:

ـ ولا تَزْنِيْنَ.

فَقَالَتْ هِنْدٌ:

ـ وهَلْ تَزْنِي الحُرَّةُ يَا رَسُوْلَ اللهِ ؟

ثُمَّ قَال ﷺ:

ـ ولا تَقْتُلْنَ أَوْلَادَكُنَّ...

فَقَالَتْ هِنْدٌ مُعَرِّضَةً:

ـ قَدْ رَبَّيْنَاهُمْ صِغَارَاً وقَتَلْتَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ كِبَارَاً، فَأَنْتَ وهُمْ أَعْلَم.

فَضَحِكَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه مِنْ قَوْلِهَا حَتَّى اسْتَغْرَبَ.

ثُمَّ تَابَعَ ﷺ يَقُوْلُ:

ـ ولَا تَأْتِيْنَ بِبُهْتَانٍ تَفْتَرِيْنَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُنَّ وأَرْجُلِكُنَّ.

فَقَالَتْ:

ـ واللهِ إِنَّ إِتْيَانَ البُهْتَانِ لَقَبِيْحٌ، ولَبَعْضُ التَّجَاوُزِ أَمْثَلُ.

قَالَ:

ـ ولَا تَعْصِيْنَنِي فِي مَعْرُوفٍ.

فَقَالَتْ:

ـ مَا جَلَسْنَا هَذَا المَجْلِسَ ونَحْنُ نُرِيْدُ أَنْ نَعْصِيَكَ فِي مَعْرُوفٍ.

فقَالَ ﷺ لِعُمَرَ:

ـ بَايِعْهُنَّ واسْتَغْفِرِ اللهَ لَهُنَّ.

فَبَايَعَهُنَّ عَمَرُ، ذَلِكَ أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ لِمْ يَكُنْ يُصَافِحُ النِّسَاءَ ولَا يَمسُّ امْرَأَةً ولَا تَمَسُّهُ، إِلَّا امْرَأَةً أَحَلَّها اللهُ لَهُ، أَوْ ذَاتِ مَحْرَمٍ مِنْهُ.

بَعْدَ الإِسْلَامِ

عُرِفَتْ هِنْدٌ رضي الله عنها كَمَا قُلْنَا بِتَطَرُّفِهَا وجُنُوْحِهَا إِلَى أَقْصَى حَدٍّ، سَوَاءٌ فِي جَاهِلِيَّتِهَا أَوْ إِسْلَامِهَا، لِذَلِكَ اشْتُهِرَتْ بِأَنَّهَا مُنْذُ أَسْلَمَتْ حَسُنَ إِسْلَامُهَا،

فَلَقَدْ عَادَتْ إِلَى دَارِهَا بَعْدَ المُبَايَعَةِ، وتَنَاوَلَتْ فَأْساً وراحَتْ تَضْرِبُ صَنَماً لَهَا فِي الدَّارِ وتَقُوْلُ لَهُ:

ـ كُنَّا مِنْكَ فِي غُرُورٍ.

وأَقَرَّ النَّبِيُّ ﷺ هِنْداً وأَبَا سُفْيَانَ عَلَى نِكَاحِهِمَا الأَوَّلَ.

وجَاءَتْ ذَاتَ يَوْمٍ إِلَى رَسُوْلِ اللهِ ﷺ تَقُوْلُ:

ـ يَا رَسُوْلَ اللهِ إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ مِسِّيْكٌ، فَهَلْ عَلَيَّ مِنْ حَرَجٍ أَنْ أُطْعِمَ مِنَ الذِي لَهُ عِيَالَنَا ؟

فَقَالَ:

ـ لَا حَرَجَ عَلَيْكِ أَنْ تُطْعِمِيْهِمْ بِالمَعْرُوْفِ، خُذِي مِنْ مَالِهِ مَا يَكْفِيْكِ أَنْتِ وولَدُكِ.

وبَعْدَ انْتِقَالِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى الرَّفِيْقِ الأَعْلَى ثَبَتَتْ هِنْدٌ رضي الله عنها عَلَى إِسْلَامِهَا ولَمْ تَرْتَدَّ وَلَمْ تَتَزَعْزَعْ فِي إِيْمَانِهَا.

شَهِدَتْ رضي الله عنها مَعْرَكَةَ اليَرْمُوْكِ، فَكَانَتْ كَمَا رُوِيَ تُحَرِّضُ المُؤْمِنِيْنَ عَلَى القِتَالِ وتَقُوْلُ:

ـ عَضِّدُوْا الغُلْفَانَ بِسُيُوْفِكُمْ يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِيْنَ.

فِي خِلَافَةِ عُمَرَ رضي الله عنه

يُرْوَى أَنَّ عُمَرَ رضي الله عنه نَهَى أَبَا سُفْيَانَ عَنْ رَشِّ بَابِ مَنْزِلِهِ ـ فِي مَكَّةَ ـ لِئَلَّا يَمُرَّ الحَاجُّ فَيَزْلَقُوْنَ فِيْهِ، فَلَمْ يَنْتَهِ...

ومَرَّ عَمَرُ فَزَلَقَ بِبَابِه فَعَلَاهُ بِالدِّرَّةِ وقَالَ لَهُ:

ـ أَلَمْ آمُرْكَ أَنْ لَا تَفْعَلَ هَذَا...؟!

فَوَضَعَ أَبُوْ سُفْيَانَ سَبَّابَتَهُ عَلَى فِيْهِ (خَشْيَةَ أَنْ تَسْمَعَ هِنْدٌ مِنَ الدَاخِلِ، فَتَشْمَتَ بِهِ).

فَقَالَ عَمَرُ: الحَمْدُ للهِ الذِي أَرَانِي أَبَا سُفْيَانَ بِبِطْحَاءِ مَكَّةَ أَضْرِبُهُ فَلَا يَنْتَصِرُ، وآمُرُهُ فَيَأْتَمِرُ.

وسَمِعَتْهُ هِنْدٌ فَقَالَتْ:

ـ اِحْمَدْهُ يَا عُمَرُ فَإِنَّكَ إِنْ تَحْمَدْهُ فَقَدْ أُوْتِيْتَ عَظِيْمَاً

(أَيْ احْمَدِ اللهَ تَعَالَى).

النُّفُوْرُ بَيْنَ هِنْدٍ وأَبِيْ سُفْيَانَ

وهَبَّتْ رِيْحُ الشَّحْنَاءِ والبَغْضَاءِ بَيْنَ هِنْدٍ وأَبِيْ سُفْيَانَ...

ولَمَّا وَلَّى عُمَرُ بنُ الخَطَّاب رضي الله عنه «يَزِيْدَ بنَ أَبِي سُفْيَانَ» مَا ولَّاهُ مِنَ الشَّامِ

خَرَجَ إِلَيْهِ أَخُوْهُ «مُعَاوِيَةُ»، فَقَالَ أَبُوْ سُفْيَانَ لِهِنْدٍ مُدِلًّا:

ـ كَيْفَ تَرَيْنَ ؟! صَارَ اِبْنُكِ تَبَعاً لِاِبْنِي[1] !!

فَقالَتْ:

ـ إِنِ اضْطَرَبَ حَبْلُ العَرَبِ فَسَتَعْلَمُ أَيْنَ يَقَعُ ابْنُكَ مِمَّا يَكُوْنُ فِيْهِ اِبْنِيْ.

وكَأَنَّ هِنْدَاً كَانَتْ تَتَطَلَّعُ مِنْ زَمَنٍ بَعِيْدٍ إِلَى الإِرْهَاصَاتِ التِي سَمِعَتْهَا عَنْ صُعُوْدِ نَجْمِ مُعَاوِيَةَ، وأَنَّهُ سَوْفَ يَكُوْنُ ذَا شَأْنٍ عَظِيْمٍ.

وتُوُفِّيَ يَزِيْدُ بنُ أَبِي سُفْيَانَ رضي الله عنه فَوَلَّى عُمَرُ مُعَاوِيَةَ مَكَانَهُ.

فَقَالَتْ هِنْدٌ لِوَلَدِهَا نَاصِحَةً:

ـ واللهِ يَا بُنَيَّ لَقَلَّ مَا وَلَدَتْ حُرَّةٌ مِثْلَكَ، وقَدْ اِسْتَنْهَضَكَ هَذَا الرَجُلُ «عُمَرُ» فَاعْمَلْ بِمُوَافَقَتِهِ أَحْبَبْتَ أَمْ كَرِهْتَ.

السَّاعِيَةُ عَلَى نَفْسِهَا

افْتَرَقَ الزَّوْجَانِ، هِنْدٌ فِي طَرِيقٍ وأَبُو سُفْيَانَ فِي طَرِيْقٍ آخَرٍ...

وتَأَبَى عَزِيْزَةُ النَّفْسِ أَنْ تَكُوْنَ عَالَةً عَلَى أَحَدٍ، فَجَاءَتْ هِنْدٌ إِلَى أَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه فاسْتَقْرَضَتْهُ مِنْ بَيْتِ المَالِ أَرْبَعَةَ آلافِ دِرْهَمٍ، تَتَّجِرُ فِيهَا وتَضْمَنُهَا، فَأَقْرَضَهَا.

(١) ـ كان يزيد ومعاوية كلا من أم

فَخَرَجَتْ بِالمَالِ إِلَى بِلَادِ «كَلْبٍ» فَاشْتَرَتْ وبَاعَتْ، ثُمَّ بَلَغَهَا أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ ووَلَدَهُ «عَمْراً» قَدْ أَتَيَا مُعَاوِيَةَ فِي الشَّامِ، فَخَشِيَتْ أَنْ يُعْطِيَهُمَا شَيْئَاً مِنْ بَيْتِ مَالِ المُسْلِمِيْن، ثُمَّ يُحَاسِبُهُ عَلَيْهِ عُمَرُ أَشَدَّ الحِسَابِ فَأَتَتْ دِمَشْقَ مُسْرِعَةً، ودَخَلَتْ عَلَى مُعَاوِيَةَ الذِي فُوْجِئَ بِقُدُوْمِهَا.

فَقَالَ لهَا:

ـ مَا أَقْدَمَكِ يَا أُمَّه ؟!

فَقَالَتْ:

ـ النَّظَرُ إِلَيْكَ... ، أَي بُنَيَّ إِنَّهُ عُمَرُ... وإِنَّمَا يَعْمَلُ لله، وقَدْ أَتَاكَ أَبُوْكَ فَخَشِيْتُ أَنْ تُخْرِجَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وأَهْلُ ذَلِكَ هُوْ، فَلَا يَعْلَمُ النَّاسُ مِنْ أَيْنَ أَعْطَيْتَهُ، فَيُؤَنِّبُكَ عَمَرُ فَلَا يَسْتَقِيْلُهَا أَبَدَاً...

فَبَعَثَ مُعَاوِيَةُ إِلَى أَبِيْهِ وأَخِيْهِ بِمِائَةِ دِيْنَارٍ وكَسَاهُمَا وحَمَّلَهُمَا ، فَتَعَظَّمَهَا عَمْرٌو وتَأَلَّمَ فِي نَفْسِهِ، كَيْفَ يَسْتَخِفُّ بِهِمَا مُعَاوِيَةُ ويُقَلِّلُ مِنْ شَأْنِهِمَا، فَقَالَ لَهُ أَبُوْهُ:

ـ لَا تُعَظِّمْهَا... فَإِنَّ هَذَا عَطَاءٌ لَمْ تَغِبْ عَنْهُ هِنْدٌ ومَشُوْرَةٌ قَدْ حَضَرَتْهَا.

تُوُفِّيَتْ هِنْدٌ رضي الله عنها فِي خِلَافَةِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ، فِي اليَوْمِ الذِي مَاتَ فِيْهِ «أَبُوْ قُحَافَةَ» والِدُ الصِّدِّيْقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِيْنَ.

غَفَرَ اللهُ لَهَا ورَحِمَهَا ورَضِيَ عَنْهَا.

وآخِرُ دَعْوَانَا أَنْ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينْ.

❊ ❊ ❊

أُمامَة

"حَفِيدَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ"

قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾

(ٱلأَحْزَاب: 33).

أُمَامَةُ رضي الله عنها ثَمَرَةُ حُبٍّ كَبِيْرٍ، تَجَلَّتْ فِيْهِ العَوَاطِفُ السَّامِيَةُ والقُلُوْبُ الكَبِيْرَةُ، وتَرَفَّعَتِ النُّفُوْسُ المُؤْمِنَةُ عَنْ الدَّنَايَا والصَّغَائِرِ، وسَمَتْ عَنْ سَفْسَافِ المَفْهُوْمِ الحَيْوَانِيِّ للحُبِّ والعَلَائِقِ الجَسَدِيَّةِ.

فَفِي قِصَّةِ أُمِّهَا زَيْنَب رضي الله عنها، مَعَ زَوْجِهَا أَبِي العَاصِ بنِ الرَّبِيْعِ قَبْلَ الهِجْرَةِ وبَعْدَهَا دَلَالَاتٌ وَاضِحَاتٌ عَلَى مَا قَدَّمْنَا وأَسْلَفْنَا.

وفِي التَّطَوُّرَاتِ والأَحْدَاثِ بَعْدَ ذَلِكَ مَوَاقِفَ وأَحْكَامٍ، تَبْقَى عَلَى الدَّهْرِ مَنْهَجَاً ومَعْلَمَاً لِكُلِّ مُسْلِمٍ يَسْتَهْدِيْهِمَا فِيْ شُؤُوْنِ حَيَاتِهِ ووَاقِعِهِ.

كَمَا أَنَّ صَاحِبَ القَلْبِ الكَبِيْرِ الذِي خَاطَبَهُ رَبُّهُ بِقَوْلِهِ:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ (ٱلقَلَم: 4).

وقَوْلُهُ:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾

(آلِ عِمْرَانَ: 159).

وقوله:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأَنْبِيَاء: 107).

وقَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ (التَّوبَة: 128).

صَاحِبَ القَلْبِ الكَبِيْرِ ﷺ يَرْتَفِعُ ويَرْتَفِعُ فِي جَوِّ الأَحْدَاثِ، أَحْدَاثِ القِصَّةِ، وفَوْقَهَا إِلَى أَعْلَى عِلِّيِّيْنَ.

نَسَبُهَا وولَادَتُهَا

هِيَ: أُمَامَةُ بِنْتُ أَبِي العاصِ بنِ الرَّبِيْعِ.

وأُمُّهَا: زَيْنَبُ بِنْتُ أَشْرَفِ الخَلْقِ مُحَمَّدٍ ﷺ بنِ عَبْدِ اللهِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ بنِ هَاشِمٍ.

وُلِدَتْ سَنَةَ ثَمَانٍ مِنَ الهِجْرَةِ.

ثَمَرَةُ الإِسْلَامِ والحُبِّ

وتُطِلُّ عَلَيْنَا أُمَامَةُ...

تُطِلُّ عَلَيْنَا مَوْلُوْدَةً صَغِيْرَةً، وأُمُّهَا عَلَى فِرَاشِ المَرَضِ، تُعَانِي مِنْ حُمَّى شَدِيْدَةٍ، ثُمَّ مَا تَلْبَثُ أَنْ يَتَوَفَّاهَا اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ...

ولَقَدْ حَزِنَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ عَلَى زَيْنَبَ حُزْنَاً بَالِغَاً، فَهِيَ كُبْرَى بَنَاتِهِ مِنْ خَدِيْجَةَ، ولَقَدْ قِيْلَ إِنَّهَا أَكْثَرُ أَخَوَاتِهَا شِبْهَاً بِأُمِّهَا، لِذَا كَانَتْ فِي صُوْرَتِهَا وهَيْئَتِهَا وحَرَكَاتِهَا تُذَكِّرُهُ ﷺ بِأَحَبِّ أَزْوَاجِهِ إِلَى قَلْبِهِ، تِلْكَ السَّيِّدَةُ العَاقِلَةُ النَّاضِجَةُ، المُؤْمِنَةُ الصَّالِحَةُ، التِي وَاسَتْهُ بِنَفْسِهَا ومَالِهَا، والتِي ثَبَّتَتْهُ وشَدَّتْ مِنْ عَزِيْمَتِهِ وقَوَّتْ مِنْ يَقِيْنِهِ بِرَبِّهِ...

ولَقَدْ سَبَقَ زَيْنَبَ إِلَى جِوارِ اللهِ أُخْتاهَا «رُقَيَّةُ» و«أُمُّ كُلْثُوْمٍ»... فَتَرَكْنَ فِي قَلْبِ أَبِيْهِنَّ المُصْطَفَى ﷺ نُدُوْبَاً وحُزْنَاً، وقَدِ اِحْتَسَبَهُنَّ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى... الذِيْ لَا تَضِيْعُ لَدَيْهِ الأَمَانَاتُ، فللَّهِ مَا أَعْطَى ولِلَّهِ مَا أَخَذَ وكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ.

أَمَّا زَيْنَبُ رضي الله عنها فَقَدْ خَلَّفَتْ مِنْ وَرَائِهَا زَهْرَةً، مُطَبَّقَةَ الأَكْمَامِ، يَكَادُ أَرِيْجُهَا يَبْدُو ويَظْهَرُ ويَتَسَلَّلُ إِلَى قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ، لِيَرْتَسِمَ مِنْ ثَمَّ عَلَى ثَغْرِهِ الشَّرِيْفِ بَسْمَةَ أَمَلٍ كُلَّمَا رَأَى أُمَامَةَ، ودُعَابَةً طَيِّبَةً وكَلِمَةً حُلْوَةً كُلَّمَا

احْتَضَنَهَا فِي حِجْرِهِ، أَوْ أَخَذَهَا عَلَى عَاتِقِهِ...

للهِ أَنْتَ يا سَيِّدِي يَا رَسُوْلَ اللهِ، يَا سَيِّدَ الخَلْقِ وحَبِيْبَ الحَقِّ، بِكَ تَشْرُفُ الأُبُوَّةُ، وبِكَ يَتَعَاظَمُ الحَنَانُ، ومِنْكَ يَسْتَقِي نَبْعُ المَحَبَّةِ، وفِي قَلْبِكَ الكَبِيْرِ تَتَأَصَّلُ مَعَانِي العَطْفِ...

يُرْوَى أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَأْخُذُ أُمَامَةَ عَلَى عَاتِقِهِ وهُوَ يُؤَدِّي صَلَاتَهُ، يَرْفَعُهَا إِذَا قَامَ، ويُمْسِكُ بِهَا إِذَا وَضَعَ رَاكِعَاً أَوْ سَاجِدَاً، وهَكَذَا حَتَّى يَفْرُغَ مِنْ صَلَاتِهِ.

رَوَى ذَلِكَ أَكْثَرُ مِنْ مَصْدَرٍ، وتَحَدَّثَتْ عَنْ ذَلِكَ أَكْثَرُ مِنْ جِهَةٍ والكُلُّ يَرْوِي بِإِكْبَارٍ وإِعْجَابٍ سُمُوَّ النَّبِيِّ ﷺ ورِقَّتَهُ وحَنَانَهُ فِي مُعَامَلَتِهِ لِأُمَامَةَ ـ حَفِيْدَتِهُ ـ .

كَيْفَ لَا وهُوَ الذِي تَنَزَّلَ عَلَيْهِ وَحْيُ اللهِ تَعَالَى يُخَاطِبُهُ بِهِ:

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾﴾ ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾﴾

(ٱلضُّحَى: 6 - 9).

كَيْفَ لَا... وهُوَ القَائِلُ فِي الحَدِيْثِ الشَّرِيْفِ:

ـ «أَنَا وَكَافِلُ اليَتِيْمِ فِي الجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ»... ثُمَّ قَرَنَ أُصْبُعَيهُ السَّبَّابَةَ والوُسْطَى.

الشَابَّةُ والفَتَاةُ النَّاضِجَةُ

ولَحِقَ جَدُّهَا المُصْطَفَى ﷺ بالرَّفِيْقِ الأَعْلَى...

جَدُّهَا الذِي دَخَلَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وقَدْ جَاءَتْهُ هَدِيَّةُ النَّجَاشِيِّ ـ مَلِكِ الحَبَشَةِ ـ

ـ قِلَادَةٌ مَنْ جَزَعٍ، فَقَال لَهُنَّ، وهِيَ فِي يَدِهِ:

ـ لأَدْفَعَنَّهَا إِلَى أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ...

فَقُلْنَ فِيْمَا بَيْنَهُنَّ:

ـ ذَهَبَتْ بِهَا ابْنَةُ «أَبِي قُحَافَةَ»...

أَيْ عَائِشَةُ رضي الله عنها لِأَنَّهَا كَمَا هُوَ مَشْهُوْرٌ ومَعْلُوْمٌ، كَانَتْ آثَرَ نِسَائِهِ عَنْدَهُ ﷺ وأَحَبُّهُنَّ إِلَى قَلْبِهِ بَعْدَ خَدِيْجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ جَمِيْعَاً.

لَكِنَّهُ ﷺ لَمْ يُعْطِهَا إِحْدَاهُنَّ، ولَا عَائِشَةَ، ثُمَّ نَادَى أُمَامَةَ حَفِيْدَتَهُ، وكَانَتْ لَا تَزَالِ طِفْلَةً صَغِيْرَةً، فَأَعْلَقَهَا فِي عُنُقِهَا...وكَانَ عَلَى إِحْدَى عَيْنَيْ أُمَامَةَ غَمَصٌ فَمَسَحَهُ بِيَدِهِ الشَّرِيْفَةِ.

لَحِقَ الرَّسُوْلُ ﷺ بالرَّفِيْقِ الأَعْلَى...

فانْقَطَعَتْ أَخْبَارُ أُمَامَةَ عَنَّا تَمَامَاً...، لَا نَدْرِيْ أَيْنَ أَقَامَتْ ؟ وفِي كَنَفِ مَنْ عَاشَتْ، ولَا مَنْ كَفِلَهَا بَعْدَ جَدِّهَا...؟

حَتَّى تُفَاجِئَنَا رِوَايَاتُ التَّارِيْخِ ومَصَادِرُهُ بِأَنَّ عَلِيًّا رضي الله عنه تَزَوَّجَهَا بَعْدَ وَفَاةِ فَاطِمَةَ رضي الله عنها وأَنَّ هَذَا الزَّوَاجَ كَانَ أَوَّلَ زَوَاجٍ لَهَا...

ويَبْدُو أَنَّ زَوَاجَ عَلِيٍّ مِنْهَا لَمْ يَكُنْ بَعْدَ وَفَاةِ فَاطِمَةَ مُبَاشَرَةً، لِأَنَّهَا حَسْبَ تَارِيْخِ وِلَادَتِهَا لَمْ تَكُنْ مُؤَهَّلَةً لِسِنِّ الزَّوَاجِ، وأَنَّ ذَلِكَ قَدْ تَأَخَّرَ بَعْضَ الوَقْتِ...

ويَبْدُو أَيْضاً أَنَّ أُمَامَةَ رضي الله عنها قَدْ أَلِفَتْ بَعْدَ وَفَاةِ جَدِّهَا المُصْطَفَى ﷺ بَيْتَ خَالَتِهَا فَاطِمَةَ، فَكَانَتْ تَكِنُّ فِيْهِ وتَحِنُّ إِلَيْهِ، وتَشْعُرُ بِدِفْءِ حَنَانِ الأُمُوْمَةِ فِي كَلِمَاتِ فَاطِمَةَ رضي الله عنها وحُسْنِ مُعَامَلَتِهَا، ومُوَاصَلَتِهَا لَهَا...

ويَبْدُو كَذَلِكَ أَنَّهَا فِي كُعُوْبِهَا ونُضُوْجِهَا وأُنُوْثَتِهَا، وفُقْدَانِ العَائِلِ... قَدْ بَاتَ مِنَ الشَّهَامَةِ والوَفَاءِ أَنْ يَقْتَرِنَ بِهَا عَلِيٌّ رضي الله عنه.

ولَكِنْ مِمَّنْ يَخْطِبُهَا ؟

تَقُوْلُ بَعْضُ الرِوَايَاتِ بَأَنَّ أَبَاهَا «أَبَا العَاصِ بنِ الرَّبِيْعِ» قَدْ وَصَّى بِهَا الزُّبَيْرَ بنَ العَوَّامِ رضي الله عنه لِذَا خَطَبَهَا عَلِيٌّ مِنَ الزُّبَيْرِ وَلِيِّهَا.

فِيْ بَيْتِ عَلِيٍّ رضي الله عنه

رَافَقَتْ أُمَامَةُ رضي الله عنها عَلِيًّا رضي الله عنه فِي أَشَدِّ فَتَرَاتِ حَيَاتِهِ حَرَجاً، وكَانَتْ رضي الله عنها نِعْمَ الزَّوْجَةُ الصَّالِحَةُ ، مِنْ حَيْثُ الطَّاعَةِ والتَّدْبِيْرِ وحُسْنِ العِشْرَةِ،

رُغْمَ أَنَّهَا كَانَتْ عَلَى عَلَاقَاتٍ أُسَرِيَّةٍ واجْتِمَاعِيَّةٍ بِالذِيْنَ خَاصَمُوْا عَلِيَّاً وعَارَضُوْهُ، فَكَانَتْ لَا تُعِيْرُ اعْتِبَارَاً إِلَّا لِمَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ وَضْعٍ يَقْتَضِيْ مِنْهَا خُلَاصَةُ وُجْدَانِهَا ومَحَبَّتِهَا وعَاطِفَتِهَا.

التَّأَيُّمُ

كَأَنَّهُ قَدْ كُتِبَ عَلَى أُمَامَةَ أَلَّا تَخْرُجَ مِنْ حُزْنٍ حَتَّى تَدْخُلَ فِي آخَرَ، وأَلَّا تَنْتَهِي مِنْ مِحْنَةٍ حَتَّى تَعِيْشَ فِي أُخْرَى... وهَكَذَا المُؤْمِنُ ـ عَزِيْزِي القَارِئَ ـ مُبْتَلَىً دَائِمَاً، لِأَنَّ الصَّبْرَ عَلَى لَأْوَاءِ المِحَنِ مَحَكُّ الإِيْمَانِ

«لِيَعْلَمَ اللهُ الذِيْنَ صَدَقُوْا»...

فَكَانَتْ رضي الله عنها تَتَلَقَّى كُلَّ ذَلِكَ بِقَلْبٍ مُسْتَسْلِمٍ لِقَضَاءِ اللهِ وقَدَرِهِ...وهَا هِيَ الآنَ تَدْخُلُ تَجْرِبَةً جَدِيْدَةً...

لَقَدْ خَرَجَ زَوْجُهَا أَمِيْرُ المُؤْمِنِيْنَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه لِيُؤَدِّيْ بِالمُسْلِمِيْنَ صَلَاةَ الفَجْرِ، فَإِذَا بِالخَارِجِيِّ «عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ مُلْجِمٍ» يَطْعَنُهُ بِخِنْجَرٍ مَسْمُوْمٍ...، فَيُنْقَلُ إِلَى بَيْتِهِ وهُوَ يُعَانِيْ سَكَرَاتِ المَوْتِ.

فَاجْتَمَعَ أَهْلُهُ حَوْلَهُ فِي بُكَاءٍ وحُزْنٍ وتَضَرُّعٍ، وأَقَامَتْ أُمَامَةُ عِنْدَ رَأْسِهِ دَامِعَةَ العَيْنِ مُنْكَسِرَةَ القَلْبِ، صَابِرَةً مُحْتَسِبَةً...

ثُمَّ فَتَحَ عَيْنَيْهِ رضي الله عنه ونَظَرَ إِلَى الجَمِيْعِ وأَعْطَى لِكُلٍّ وَصِيَّتَهُ ونَصِيْحَتَهُ، وكَانَ مِمَّا قَالَهُ لِأُمَامَةَ:

ـ إِنِّي لَا آمَنُ أَنْ يَخْطِبَكِ هَذَا الطَّاغِيَةُ بَعْدَ مَوْتِي (يَعْنِي مُعَاوِيَةَ بنَ أَبِي سُفْيَانَ)، فَإِنْ كَانَ لَكِ فِي الرِّجَالِ حَاجَةٌ فَقَدْ رَضِيْتُ لَكِ المُغِيْرَةَ بنَ نَوْفَلٍ عَشِيْرَاً.

وقَضَى عَلِيٌّ رضي الله عنه وصَعَدَتْ رُوْحُهُ إِلَى بَارِئِهَا...

وتَأَيَّمَتْ أُمَامَةُ رضي الله عنها.

عِنْدَ المُغِيرَةِ

ولَقَدْ كَانَتْ تَوَقُّعَاتُ عَلِيٍّ رضي الله عنه فِي مَحَلِّهَا، حَسْبَ مَا جَاءَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ، مِنْ أَنَّ مُعَاوِيَةَ بنَ أَبِي سُفْيَانَ كَتَبَ إِلَى «مَرْوَانَ بنِ الحَكَمِ» وَالِيْهِ عَلَى المَدِيْنَةِ يَأْمُرُهُ أَنْ يَخْطِبَ لَهُ أُمَامَةَ ويَبْذُلَ لَهَا مِائَةَ أَلْفِ دِيْنَارٍ، وكَانَتْ قَدِ انْقَضَتْ عِدَّتُهَا، وبِنَاءً عَلَى وَصِيَّةِ عَلِيٍّ رضي الله عنه أَرْسَلَتْ إِلَى المُغِيْرَةِ بنِ نَوْفَلٍ تَقُوْلُ لَهُ:

ـ إِنْ هَذَا، (يَعْنِي مُعَاوِيَةَ) قَدْ أَرْسَلَ يَخْطِبُنِيْ فَإِنْ كَانَ لَكَ بِنَا حَاجَةٌ فَأَقْبِلْ.

ويَبْدُو مِنْ صِيْغَةِ الرِّوَايَةِ أَنَّ المُغِيْرَةَ كَانَ يُقِيْمُ خَارِجَ المَدِيْنَةِ، وأَنَّهُ

كَانَ يَرْغَبُ فِي أُمَامَةَ، فَبَادَرَ إِلَيْهَا وهُوَ يَقُوْلُ:

ـ أَتَتَزَوَّجِيْنَ اِبْنَ آكِلَةِ الأَكْبَادِ[1]، فَلَوْ جَعَلْتِ ذَلِكَ إِلَيَّ...؟

قَالَتْ:

ـ نَعَمْ

قَالَ:

ـ تَزَوَّجْتُكِ.

وفِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ لَمْ يَخْطِبْهَا إِلَى نَفْسِهَا، بَلَ خَطَبَهَا مِنْ «الحَسَنِ بنِ عَلِيٍّ» رضي الله عنه فَزَوَّجَهَا إِيَّاهُ، وهَذِهِ الرِّوَايَةُ بَعِيْدَةٌ فِي نَظَرِنَا عَنْ الوَاقِعِ والحَقِيْقَةِ لِأَنَّهُ لَا وِلَايَةَ للحَسَنِ رضي الله عنه عَلَيْهَا، إِلَّا أَنْ تَكُوْنَ هِيَ قَدْ أَوْلَتْهُ ذَلِكَ.

تَزَوَّجَتْ رضي الله عنها مِنَ المُغِيْرَةِ بنِ نُوْفَلٍ وأَقَامَتْ عِنْدَهُ، وظَلَّتْ كَمَا عَهِدْنَاهَا مِنْ قَبْلُ فِي عِشْرَةِ عَلِيٍّ، الزَّوْجَةَ الصَّالِحَةَ، المُخْلِصَةَ الطَّائِعَةَ...

وكَمَا لَمْ تُرْزَقْ مِنْ عَلِيٍّ بِالأَوْلَادِ، كَذَلِكَ ظَلَّتْ عَقِيْمَاً مِنَ المُغِيْرَةِ حَتَّى تَوَفَّاهَا اللهُ تَعَالَى، واخْتَارَهَا إِلَى جِوَارِهِ.

رَضِيَ اللهُ عَنْ أُمَامَةَ حَفِيْدَةِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ، والأَحَبِّ إِلَى قَلْبِهِ... ورَفَعَ مَنْزِلَتَهَا ومَقَامَهَا.

(١) ـ إِشَارَة إلى هند بنت عتبة عندما حاولت أنت تلوك كبد حمزة بن عبد المطلب يوم أحد.

الخَنْسَاءُ

تُمَاضِرُ بِنْتُ عَمْرِو بنِ الشَّرِيْدِ رضي الله عنها

نَسَبُهَا وَنَشْأَتُهَا

هِيَ: تُمَاضِرُ بِنْتُ عَمْرِو بنِ الحَارِثِ بنِ الشَّرِيْدِ، مِنْ قَبِيْلَةِ بَنِيْ سُلَيْمٍ.

وعُرِفَتْ واشْتُهِرَتْ بِلَقَبِهَا «الخَنْسَاءُ»، والخَنْسَاءُ فِي اللُّغَةِ هِيَ التِي تَأَخَّرَ أَنْفُهَا عَنْ وَجْهِهَا مَعَ ارْتِفَاعٍ فِي الأَرْنَبَةِ.

ولَعَلَّ وَجْهَ الخَنْسَاءِ كَانَ فِيْهِ شَيْءٌ مِنْ تِلْكَ الصِّفَاتِ فَلُقِّبَتْ بِهَذَا اللَّقَبِ.

نَشَأَتْ فِي دِيَارِ «بَنِيْ سُلَيْمٍ»، فِي بَوَادِي الجَزِيْرَةِ العَرَبِيَّةِ، وكَانَتْ أَكْثَرُ القَبَائِلِ تَعْتَمِدُ عَلَى المَوَاشِيَ فِي شُؤُوْنِ حَيَاتِهَا الإِقْتِصَادِيَّةِ والمَعِيْشِيَّةِ، لِذَا كَانَتْ تَنَقُّلَاتُهُمْ كَثِيْرَةً طَلَبَاً لِلعُشْبِ والمَرْعَى.

وفِي البَادِيَةِ يَصْفُوْ وَجْهُ السَّمَاءِ، وتَزْدَانُ الرَّوَابِيْ فِي فَتَرَاتٍ مِنَ السَّنَةِ بِالخُضْرَةِ السُنْدُسِيَّةِ، ويَتَكَاثَرُ النَّاسُ حَوْلَ الوَاحَاتِ التِي يَتَوَاجَدُ فِيْهَا المَاءُ، سَوَاءً كَانَ مِنَ المَطَرِ أَوْ مِنَ اليَنَابِيْعِ الجَوْفِيَّةِ.

هَذِهِ الطَّبِيْعَةُ الرَّقِيْقَةُ حِيْنَاً والجَّافَةُ القَاسِيَةُ أَحْيَانَاً جَعَلَتْ مِنَ الأَعْرَابِ سُكَّانِ البَوَادِي أَهْلَ طَبْعٍ شَاعِرِيٍّ وفُرْسَانَاً أَشِدَّاءَ أَقْوِيَاءَ يَتَّسِمُوْنَ بِسِمَاتٍ مِنْ غِلْظَةِ التَّعَامُلِ وخُشُوْنَةِ التَّوَاصُلِ.

فِي هَذَا الجَوِّ... نَشَأَتِ الخَنْسَاءُ وتَأَقْلَمَتْ وتَتَطَبَّعَتْ.

وبِالإِضَافَةِ إِلَى مَا ذَكَرْنَا مِنْ أَجْوَاءَ طَبِيْعِيَّةٍ وإِقْلِيْمِيَّةٍ تُسَيْطِرُ عَلَى البَادِيَةِ وأَهْلِهَا، كَانَ هُنَاكَ شَيْءٌ آخَرُ، هُوَ فَصَاحَةُ اللِسَانِ واسْتِقَامَةُ البَيَانِ، فَلَا يَعْرِفُ اللَّحْنُ سَبِيْلَاً إِلَى أَلْسِنَتِهِمْ...

ومِنْ هَذَا النَّبْعِ الرَّقْرَاقِ النَّمِيْرِ اِسْتَقَتِ الخَنْسَاءُ سَلَامَةَ مَنْطِقِهَا واسْتِوَاءَ بَيَانِهَا.

فَمَا كَادَتْ تَشُبُّ وتَنْهَضُ حَتَّى ظَهَرَتْ مَخَايِلُ شَاعِرِيَّتِهَا فِيْ أَبْيَاتٍ تَقُوْلُهَا فِي المُنَاسَبَاتِ، لَا تَزِيْدُ عَنْ البَيْتَيْنِ أَوْ الثَّلَاثَةِ، تُصَوِّرُ مِنْ خِلَالِهَا المُنَاسَبَةَ وانْعِكَاسَهَا عَلَى نَفْسِيَّتِهَا ومَشَاعِرِهَا.

سَوَاءً كَانَتْ صُوْرَةً طَبِيْعِيَّةً، أَوْ حَرَكِيَّةً...، أَوْ وَاقِعَةً وُجْدَانِيَّةً.

إِسْلَامُهَا

مَرَّتْ عَلَى الخَنْسَاءِ سَنَوَاتٌ طَوِيْلَةٌ مِنْ عُمْرِهَا، طُفُوْلَةً وصِبَاً وشَبَابَاً، ثُمَّ تَفَجُّعَاً وحَسْرَةً عَلَى أَخَوَيْهَا «صَخْرٍ» و«مُعَاوِيَةَ»... وهِيَ فِي مَنْأَىً عنِ

الإِسْلَام الذِي اِمْتَدَّ مَدَاهُ وأَورَفَ ظِلُّهُ فِيْ كَثِيْرٍ مِنْ أَنْحَاءِ شِبْهِ الجَزِيْرَةِ...

ولَكِنَّهَا كَانَتْ فِي غَيْبَةٍ عَنْهُ، وذَلِكَ لِسَبَبَيْنِ، أَوَّلُهُمَا تَأَخُّرُ إِسْلَامِ قَوْمِهَا «بَنِي سُلَيْم» وثَانِيْهِمَا حُزْنُهَا عَلَى أَخَوَيْهَا الذِي شَغَلَ كُلَّ حَيَاتِهَا وعَطَّلَ العَقْلَ وشَلَّهُ تَمَامَاً...

ثُمَّ وَفَدَتْ مَعَ قَوْمِهَا إِلَى المَدِيْنَةِ عَامَ ثَمَانٍ مِنَ الهَجْرَةِ، وكَانَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ فِي اِسْتِعْدَادِهِ لِلْفَتْحِ، فَتْحِ مَكَّةَ فَانْضَمُّوْا إِلَيْهِ، وحَسُنَ إِسْلَامُهُمْ، وشَارَكُوْا فِي كُلِّ الغَزَوَاتِ بَعْدَ ذَلِكَ.

تَقْدِيْرُ النَّبِيِّ ﷺ لِلخَنْسَاءِ

كَانَتْ شُهْرَتُهَا رضي الله عنها قَدْ ذَاعَتْ وطَارَ صِيْتُهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ، وخَاصَّةً مِنْ خِلَالِ مَرَاثِيْهَا التِي سَارَتْ بِهَا الرُّكْبَانُ، وهِيَ إِلَى شَاعِرِيَّتِهَا صَاحِبَةُ شَخْصِيَّةٍ قَوِيَّةٍ، تَتَمَتَّعُ بِالفَضَائِلِ والأَخْلَاقِ العَالِيَةِ، والرَّأْيِ الحَصِيْفِ.

لِذَا أَكْرَمَهَا النَّبِيُّ ﷺ، وقَدَّرَ مَنْزِلَتَهَا ومَقَامَهَا فِي العَرَبِ وقَوْمِهَا، فَبَادَلَتْ الخَنْسَاءُ كُلَّ ذَلِكَ الإِكْرَامِ والتَّقْدِيْرِ بِمَا يَلِيْقُ.

وكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحِبُّ أَنْ يَسْتَمِعَ مِنَ الخَنْسَاءِ نَفْسِهَا مَا قَالَتْهُ فِي أَخَوَيْهَا، فَكَانَتْ تُنْشِدُ بَيْنَ يَدَيْهِ قَصَائِدَهَا.

والرَّسُوْلُ ﷺ قَدْ أُوْتِيَ جَوَامِعَ الكَلِمِ، يُقَدِّرُ حَقَّ التَّقْدِيْرِ القِيْمَةَ البَلَاغِيَّةَ والبَيَانِيَّةَ ويَعْرِفُ مَنْزِلَةَ الفَصِيْحِ مِمَّنْ يَتَفَاصَحُ، فَكَانَ إِذَا سَمِعَ الخَنْسَاءَ أَعْجَبَتْهُ واسْتَزَادَهَا بِقَوْلِهِ:

هِيْهِ يَا خُنَاسُ ، ثُمَّ يُحَرِّكُ يَدَيْهِ بِإِشَارَاتٍ تُنَبِّئُ عَنْ اِسْتِحْسَانِهِ...

ويُرْوَى أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ لَمَّا وَفَدَ عَلَيْهِ «بَنُوْ طَيْءٍ» مُسْلِمِيْنَ، قَالَ لَهُ عَدِيُّ بنُ حَاتِمٍ الطَّائِيُّ:

ـ يَا رَسُوْلَ اللهِ إِنَّ فِيْنَا أَشْعَرُ النَّاسِ وأَسْخَى النَّاسِ وأَفْرَسُ النَّاسِ.

فَقَالَ لَهُ ﷺ:

ـ سَمِّهِمْ...

فَقَالَ عَدِيٌّ:

ـ أَمَّا أَشْعَرُ النَّاسِ فـ «امْرُؤُ القَيْسِ»، وأَمَّا أَسْخَى النَّاسِ فـ «حَاتِمُ بنُ سَعْدٍ» ـ يَعْنِي أَبَاهُ ـ وأَمَّا أَفْرَسُ النَّاسِ فـ «عَمْرُو بنُ مَعْدِي كَرِبٍ».

فَقَالَ لَهُ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ:

ـ لَيْسَ كَمَا قُلْتَ يَا عَدِيُّ...، أَمَّا أَشْعَرُ النَّاسِ فَالخَنْسَاءُ بِنْتُ عَمْرٍو، وأَمَّا أَسْخَى النَّاسِ فَـ مُحَمَّدٌ ﷺ، وأَمَّا أَفْرَسُ النَّاسِ فَـ«عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ».

الحِكْمَةُ عَلَى لِسَانِهَا

ويَبْدُو أَنَّ شِدَّةَ وَجْدِهَا عَلَى أَخَوَيْهَا قَدْ أَلْهَبَتْ مَشَاعِرَهَا وأَحَاسِيْسَهَا وصَقَلَتْهَا وهَذَّبَتْهَا، ثُمَّ فجَّرَتْهَا ـ كَمَا أَسْلَفْنَا ـ فَجَرَتْ حِكَماً بَالِغَةً نَطَقَ بِهَا لِسَانُهَا.

الاِنْقِلَابُ العَظِيْمُ

مَعَ مَا رأَيْنَا آنِفَاً مِنْ مَعَالِمِ شَخْصِيَّةِ الخَنْسَاءِ فِي بَدَاوَتِهَا، وجُمُوْحِهَا، وفَصَاحَتِهَا وعَاطِفَتِهَا، وشَاعِرِيَّتِهَا، ورِثَائِهَا الطَّوِيْلِ وقَلْبِهَا العَلِيْلِ...

مَعَ كُلِّ ذَلِكَ حَدَثَ انْقِلَابٌ عَظِيْمٌ فِي حَيَاتِهَا مُنْذُ أَسْلَمَتْ وآمَنَتْ وبَايَعَتْ، ثُمَّ فَقِهَتْ وتَفَهَّمَتْ دِيْنَ اللهِ، وأَضْحَتْ إِنْسَاناً آخَرَ.

تَخْضَعُ كُلُّ الأُمُوْرِ عِنْدَهَا، شَخْصِيَّةً أَوْ عَامَّةً، لِكِتَابِ اللهِ وشَرْعِهِ، فهُوَ المِقْيَاسُ الأَوْحَدُ ولَا شَيْءَ سِوَاهُ.

قَالَ لَهَا سَيِّدُنَا عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه ذَاتَ يَوْمٍ:

ـ مَا أَقْرَحَ مَآقِي عَيْنَيْكِ ؟

فَقَالَتْ:

ـ بُكَائِي علَى السَّادَاتِ مِنْ «مُضَرٍ»...

فَقَالَ لَهَا:

ـ يَا خَنْسَاءُ إِنَّهُمْ فِي النَّارِ !!

فَأَجَابَتْ:

ـ ذَاكَ أَطْوَلُ لِعَوِيْلِيَ عَلَيْهِمْ، وكُنْتُ أَبْكِي لِـ «صَخْرٍ» عَلَى الحَيَاةِ فَأَنَا اليَوْمَ أَبْكِيْ لَهُ مِنَ النَّارِ.

بَعْدَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ

وأَقَامَتِ الخَنْسَاءُ وَفِيَّةً عَلَى عَقِيْدَتِهَا، مُتَشَبِّثَةً بِدِيْنِهَا وإِيْمَانِهَا، وغَذَّتْ أَبْنَاءَهَا بِحُبِّ اللهِ والجِهَادِ فِي سَبِيْلِهِ، ورَبَّتْهُمْ عَلَى الفَضَائِلِ والأَخْلَاقِ.

ولَمَّا كَانَ يَوْمُ «القَادِسِيَّةِ» خَرَجَتِ الخَنْسَاءُ مَعَ المُسْلِمِيْنَ، وفِيْهِمْ قَوْمُهَا «بَنِيْ سُلَيْم» إِلَى العِرَاقِ، وكَانَ مَعَهَا أَبْنَاؤُهَا الأَرْبَعَةُ، وقَدْ أَضْحَوْا رِجَالاً، مُسْلِمِيْنَ شُجْعَانًا.

وهُنَاكَ وقَبْلَ بَدْءِ القِتَالِ وَصَّتْهُمْ فَقَالَتْ:

ـ يَا بَنِيَّ... لَقَدْ أَسْلَمْتُمْ طَائِعِيْنَ، وهَاجَرْتُمْ مُخْتَارِيْنَ، ووَاللَّهِ الذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنَّكُمْ بَنُوْ امْرَأَةٍ واحِدَةٍ مَا خُنْتُ أَبَاكُمْ، ولَا فَضَحْتُ خَالَكُمْ، ولَا هَجَّنْتُ حَسَبَكُمْ، ولَا غَيَّرْتُ نَسَبَكُمْ، وقَدْ تَعْلَمُوْنَ مَا أَعَدَّ اللهُ للمُسْلِمِيْنَ مِنَ الثَّوَابِ الجَزِيْلِ فِي حَرْبِ الكَافِرِيْنَ، واعْلَمُوْا أَنَّ الدَّارَ البَاقِيَةَ خَيْرٌ مِنَ الدَّارِ الفَانِيَةِ،

يَقُوْلُ اللهُ تَعَالَى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾

(آلِ عِمْرَان: 200).

فإِذَا أَصْبَحْتُمْ غَدَاً إِنْ شَاءَ اللهُ سَالِمِيْنَ، فاغْدُوْا إِلَى قِتَالِ عَدُوِّكُمْ مُسْتَبْصِرِيْنَ وبِاللهِ عَلَى أَعْدَائِهِ مُسْتَنْصِرِيْنَ، فإِذَا رَأَيْتُمُ الحَرْبَ قَدْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا، واضْطَرَمَتْ لَظَىً عَلَى سِيَاقِهَا، وجَعَلَتْ نَاراً عَلَى أَرْوَاقِهَا، فَتَيَمَّمُوْا وَطِيْسَهَا، وجَالِدُوْا رَئِيْسَهَا عَنْدَ احْتِدَامِ خَمِيْسِهَا، تَظْفَرُوْا بَالغُنْمِ والكَرَامَةِ فِي دَارِ الخُلْدِ والمُقَامَةِ.

وخَرَجَ الأَبْنَاءُ الأَرْبَعَةُ وَاحِداً تِلْوَ الآخَرِ للقِتَالِ، وحِيْنَ خَرَجَ أَوَّلُهُمْ أَنْشَدَ:

يَا إِخْوَتِي إِنَّ العَجُوْزَ النَّـاصِحَةَ

قَـدْ نَصَحَتْنَـا إِذْ دَعَتْنَـا البَارِحَـةَ

مَقَالَـةٌ ذَاتُ بَيَـانٍ وَاضِـحَةٍ

فَبَاكِرُوْا الحَرْبَ الضُّرُوْسَ الكَالِحَةَ.

وتَقَدَّمَ إِلَى المَيْدَانِ، ومَا زَالَ يُقَاتِلُ ويُطَاعِنُ حَتَّى اسْتُشْهِدَ.

ثُمَّ تَبِعَهُ الثَّانِيَ، وقَاتَلَ حَتَّى اسْتُشْهِدَ.

فَنَزَلَ الثَّالِثُ إِلَى المَيْدَانِ، وحَمَلَ حَمْلَاتٍ شَدِيْدَةٍ عَلَى الكَافِرِيْنَ، ثُمَّ سَقَطَ شَهِيْدَاً.

فَتَبِعَهُ الرَّابِعُ إِلَى المَيْدَانِ، وقَاتَلَ هُوَ أَيْضَاً حَتَّى قُتِلَ...

وحُمِلَ الخَبَرُ المُفْجِعُ إِلَى الخَنْسَاءِ، ولَكِنَّهَا تَلَقَّتْهُ بَصَبْرٍ وَجَلَدٍ، وكَأَنَّهَا تَتَلَقَّى نَبَأَ زِفَافِ كُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ إِلَى عَرُوْسِهِ فِي الجَنَّةِ.

وقَالَتْ بِصِدْقِ إِيْمَانٍ ووَفَاءٍ ويَقِيْنٍ.

ـ الحَمْدُ للهِ الذِي شَرَّفَنِي بَمَوْتِهِمْ، وأَرْجُوْ مِنْ رَبِّيَ أَنْ يَجْمَعَنِي بِهِمْ فِي مُسْتَقَرِّ رَحْمَتِهِ.

وهَذِهِ العِبَارَةُ ـ عَزِيزِي القارئَ ـ هِيَ العَنْوَانُ الأَكْبَرُ عَلَى الانْقِلَابِ العَظِيْمِ فِي حَيَاةِ الخَنْسَاءِ، فَلَمْ تَقُلْ شِعْرَاً ولَا نَطَقَتْ بِبَيْتٍ مِنْهُ، فِيْهِ رِثَاءٌ عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَوْلَادِهَا، ولَكِنَّهَا قَالَتْ قَوْلَةَ الإِسْلَامِ...

وهَذِهِ عِنْدَنَا أَبْلَغُ وأَعْظَمُ وأَسْمَى مِنْ كُلِّ مَا أَنْشَدَتْ وقَالَتْ.

الوَفَاةُ

وقَفَلَتْ الخَنْسَاءُ عَنْ مَيْدَانِ «القَادِسِيَّةِ» وقَدْ فَتَحَ اللهُ عَلَى المُسْلِمِيْنَ.

عَادَتْ إِلَى المَدِيْنَةِ فاسْتَقْبَلَهَا سَيِّدُنَا عُمَرُ رضي الله عنه وعَزَّاهَا فِي أَبْنَائِهَا، ورَتَّبَ لَهَا أُعْطِيَاتِهِمْ...

ثُمَّ انْصَرَفَتْ إِلَى البَادِيَةِ، إِلَى مَضَارِبِ قَوْمِهَا «بَنِي سُلَيْمٍ»، وقَدْ أَنْهَكَتْهَا الأَيَّامُ والأَعْوَامُ، وجَفَّتْ مِيَاهُ الحَيَاةِ ودِمَاؤُهَا مِنْ عُرُوْقِهَا...ومَا لَبِثَتْ أَنْ فَارَقَتْ الحَيَاةَ مَعَ مَطْلَعِ خِلَافَةِ سَيِّدِنَا عُثْمَانَ رضي الله عنه.

رَضِيَ اللهُ عَنْ تُمَاضِرَ بِنْتِ عَمْرِو بنِ الشَّرِيْدِ، ـ الخَنْسَاءِ ـ المُؤْمِنَةِ المُسْلِمَةِ، وغَفَرَ لَهَا ورَحِمَهَا... ، ووَفَّاهَا بِمَا أَسْلَفَتْ مُقَامَاً كَرِيْمَاً فِي جَنَّاتِ النَّعِيْمِ.

❊ ❊ ❊

كُعَيْبَةُ الأَسْلَمِيَّةُ

- رَضِيَ اللهُ عَنْهَا -

حَدِيْثُ القَلْبِ

وقَالَتْ الفَتَاةُ تُحَدِّثُ صَاحِبَتَهَا...

ـ لَوْ رَأَيْتِهِ يَا كُعَيْبَةُ... !! لَا يَسْتَطِيْعُ الإِنْسَانُ مَهْمَا أُوْتِيَ مِنْ مَتَانَةِ الأَعْصَابِ وقُوَّةِ الإِرادَةِ ونُفُوْذِ البَصَرِ أَنْ يُحَدِّقَ فِي وجْهِهِ الشَّرِيْفِ، نُوْرٌ غَامِرٌ وشُعَاعٌ بَاهِرٌ، تَذُوْبُ النُّفُوْسُ رِقَّةً وحَيَاءً بَيْنَ يَدَيْهِ، ويُحِسُّ الإِنْسَانُ بِخِفَّةٍ فِي كِيَانِهِ وبَدَنِهِ، فَكَأَنَّهُ يُحَلِّقُ فِي عَالَمٍ عُلْوِيٍّ شَفِيْفٍ، ولَا تَمْلِكُ النَّفْسُ البَشَرِيَّةُ إِلَّا التَسْلِيْمَ...

لَوْ رَأَيْتِهِ يَا كُعَيْبَةُ...!!

فَقَالَتْ كُعَيْبَةُ وهِي تَتَمَلْمَلُ فِي مَقْعَدِهَا:

ـ لَقَدْ شَوَّقْتِنِي يَا أُخْتَاهُ إِلَى هَذَا اللِقَاءِ، وإِنَّنِي لَأَشْعُرُ بِنَدَمٍ شَدِيْدٍ إِذْ فَاتَنِيْ اليَوْمَ شَرَفُ الاسْتِقْبَالِ العَظِيْمِ، ولَوْلَا أَنَّ اللَيْلَ قَدْ دَخَلَ وعَمَّ الظَّلَامُ لَسَعَيْتُ إِلَيْهِ فِي دَارِ ضِيَافَتِهِ عِنْدَ «أَبِي أَيُّوْبٍ» مُرَحِّبَةً ومُبَايِعَةً...

فَقَالَتْ مُحَدِّثَتُهَا مُقَاطِعَةً:

ـ أَمَّا الاِسْتِقْبَالُ يَا كُعَيْبَةُ فَحَدِّثِي عَنْهُ ولَا حَرَجَ، لَقَدْ كَانَتْ يَثْرِبُ كُلُّهَا فِي شَرَفِ الاِسْتِقْبَالِ، شِيْبُهَا وشُبَّانُهَا، نِسَاؤُهَا ورِجَالُهَا، أَطْفَالُهَا وشُيُوْخُهَا، حَتَّى اليَهُوْدُ خَرَجُوْا مِنْ قَبِيْلِ حُبِّ الاِسْتِطْلَاعِ...

لَقَدْ كَانَ مَهْرَجَانَاً رَائِعَاً لَمْ تَشْهَدْهُ يَثْرِبُ مِنْ قَبْلُ...

قَالَتْ كُعَيْبَةُ وقَدْ جَرَى الدَّمْعُ مِنْ مُقْلَتَيْهَا:

ـ أَلِهَذَا الحَدِّ يَا أُخْتَاهُ...!! هَنِيْئَاً لَكَ يَا رَسُوْلَ اللهِ...وهَنِيْئَاً لِيَثْرِبَ، أَوْسِهَا وخَزْرَجِهَا بِكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ الكَرِيْمُ، والرَّسُوْلُ العَظِيْمُ...

وتَعْسَاً لَكِ يَا كُعَيْبَةُ ـ قَالَت تُخَاطِبُ نَفْسَهَا ـ، لَقَدْ فَاتَكِ يَوْمُ العُمْرِ.

فَقَالَتْ الأُخْرَى:

ـ لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكِ يَا كُعَيْبَةُ، فَإِنَّ غَدَاً لِنَاظِرِهِ قَرِيْبٌ.

قَالَتْ كُعَيْبَةُ:

ـ تَعْلَمِيْنَ يَا أُخْتَاهُ أَنَّنِي لَوْلَا انْشِغَالِي فِي مُعَالَجَةِ ومُدَاوَاةِ قَرِيْبٍ لِي يَكَادُ يُشْرِفُ عَلَى الهَلَاكِ لَمَا تَأَخَّرْتُ عَنْ اِسْتِقْبَالِ الرَّسُوْلِ الحَبِيْبِ، والتَّشَرُّفِ بِطَلْعَتِهِ...

ولَسَوْفَ أُبَكِّرُ غَدَاً ـ إِنْ شَاءَ اللهُ ـ فِي المُثُوْلِ بَيْنَ يَدَيْهِ ومُبَايَعَتَهُ، فَإِنَّ شَوْقِيَ لَا يُوْصَفُ، ومَحَبَّتِي لَا تُقَدَّرُ...

بَيْنَ يَدَيْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ

لَمْ تَنَمْ كُعَيْبَةُ لَيْلَتَهَا...

فَقَدْ كَانَتْ تَنْتَظِرُ بُزُوْغَ الفَجْرِ وإِشْرَاقَ الصَّبَاحِ لِتُبَادِرَ بِالذَّهَابِ إِلَى دَارِ «خَالِدِ بنِ زَيْدٍ» ـ أَبِي أَيُّوْبَ الأَنْصَارِيِّ ـ رضي الله عنه، حَيْثُ يَنْزِلُ النَّبِيُّ ﷺ ضَيْفَاً...، كَيْ تَسْعَدَ بِاللِّقَاءِ، وتَحْظَى بِالشَّرَفِ العَظِيْمِ، وتُعَاهِدَ المُصْطَفَى ﷺ عَلَى خِدْمَةِ الإِسْلَامِ والمُسْلِمِيْنَ، وبَذْلِ الوُسْعِ والطَّاقَةِ لِرَفْعِ رَايَةِ الحَقِّ...

وعَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَانَةَ كُعَيْبَةَ فِي المَدِيْنَةِ، وخُصُوْصَاً فِي قَوْمِهَا «بَنِيْ أَسْلَمَ» إِذْ كَانَتْ عَارِفَةً وخَبِيْرَةً فِي شُؤُوْنِ عِلَاجِ المَرْضَى ومُدَاوَاتِهِم، ومُتَخَصِّصَةً فِي هَذَا المَيْدَانِ، قَدْ أُوْتِيَتْ مَهَارَةً وحِذْقَاً...

لَمْ تَدْرُسْ فِي مَعْهَدٍ، وَلَمْ تَتَخَرَّجْ فِي كُلِّيَّةٍ، وَلَمْ تَتَدَرَّبْ فِي مُسْتَشْفَى...، ولَكِنَّها بِذَكَائِهَا الفِطْرِيِّ ووَعْيِهَا ونَبَاهَتِهَا اِسْتَطَاعَتْ أَنْ تَكُوْنَ «طَبِيْبَةَ» أَهْلِ المَدِيْنَةِ دُوْنَ مُنَازِعٍ، ومَوْضِعَ ثِقَتِهِمُ الكُبْرَى.

اِسْتَقْبَلَهَا ﷺ ورَحَّبَ بِهَا... وبَايَعَهَا عَلَى الإِسْلَامِ.

ومَا كَانَ أَسْعَدَهَا فِيْ ذَلِكَ اليَوْمِ الذِي حَظِيَتْ فِيْهِ بِتَقْدِيْرِ النَّبِيِّ واحْتِرَامِهِ ومَحَبَّتِهِ، ودُعَائِهِ لَهَا بَالخَيْرِ والبَرَكَةِ.

بَيْنَهَا وبَيْنَ نَفْسِهَا

فَخَرَجَتْ مِنْ حَضْرَتِهِ وهِيَ مُمْتَلِئَةٌ عِزَّةً بِاللهِ ورَسُوْلِهِ، فَرِحَةً جَذِلَةً، تَكَادُ لَا تُحِسُّ بِقَدَمَيْهَا تَطَآنِ الأَرْضَ، فَكَأَنَّهَا مَلَاكٌ يَرِفُّ بِجَنَاحَيْهِ فِي عَنَانِ السَّمَاءِ، ويُحَوِّمُ فِي الفَضَاءِ... عَالِيَاً... عَالِيَاً...فَوْقَ مَادِّيَّةِ الكُوْنِ والنَّاسِ.

فِي مَوْكِبِ الإِيْمَانِ

وَسَارَتْ كُعَيْبَةُ مَعَ مَوْكِبِ المُؤْمِنِيْنَ والمُؤْمِنَاتِ...

تَتَفَقَّهُ فِي كِتَابِ اللهِ، وتَسْمَعُ مِنْ رَسُوْلِ اللهِ، وتُشَارِكُ مَعَ أَخَوَاتِهَا فِي تَشْيِيْدِ صَرْحِ الوُجُوْدِ الإِسْلَامِيِّ فِي المَدِيْنَةِ لَبِنَةً لَبِنَةً...، وتَرْفَعُ مَعَهُمْ ومَعَهُنَّ بُنْيَانَهُ عَالِيَاً سَامِقَاً.

وحِيْنَ أَذَّنَ مُؤَذِّنُ الجِهَادِ، وأُذِنَ لِلمُسْلِمِيْنَ فِي القِتَالِ ورَدِّ عُدْوَانِ المُعْتَدِيْنَ ونَشْرِ تَعَالِيْمِ الدِّيْنِ، ورَفْعِ رَايَةِ سَيِّدِ المُرْسَلِيْنَ، وتَحْطِيْمِ طَوَاغِيْتِ الشِّرْكِ فِي نُفُوْسِ الكَافِرِيْنَ.

عَنْدَئِذٍ شَمَّرَتْ «كُعَيْبَةُ» عَنْ سَاعِدِ الجِدِّ، إِذْ جَاءَ دَوْرُهَا، وحَانَ حِيْنُ نَشَاطِهَا.

خَيْمَةُ كُعَيْبَةَ

نَصَبَتْ فِي فِنَاءِ المَسْجِدِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيْفِ خَيْمَةً كَبِيْرَةً كَانَتْ عِنْدَهَا، ثُمَّ جَهَّزَتْ جَانِبًا مِنْهَا بِبَعْضِ «الأَسِرَّةِ الخَشَبِيَّةِ»...، جَعَلَتْ فَوْقَهَا فِرَاشًا حَشْوُهُ اللِّيْفُ وغَيْرُهُ، وفِي جَانِبٍ آخَرَ بَعْضَ العَقَاقِيْرِ والأَدْوِيَةِ... والأَدَوَاتِ اللَّازِمَةِ لِمُدَاوَاةِ الجَرْحَى والمُصَابِيْنَ، بِحُدُوْدِ مَا كَانَتْ تَسْمَحُ بِهِ إِمْكَانِيَّاتُ تِلْكَ الأَيَّامِ...

إِذَنْ...، كَانَتْ خَيْمَتُهَا فِي فِنَاءِ المَسْجِدِ بِمَثَابَةِ مُسْتَشْفَىً عَسْكَرِيًّا...، وكَانَتْ هِيَ رضي الله عنها أَوَّلُ طَبِيْبَةٍ لِجُنْدِ اللهِ.

أَوَّلُ العَمَلِ

اِسْتَقْبَلَتْ بَعْضَ جَرْحَى مَعْرَكَةِ «بَدْرٍ»، فَعَالَجَتْهُمْ ووَاسَتْهُمْ، وأَشْرَفَتْ عَلَى رَاحَتِهِمْ والعِنَايَةِ بِهِمْ حَتَّى تَمَّ شِفَاؤُهُمْ، وأَمْضُوْا فَتْرَةَ نَقَاهَتِهِمْ، ثُمَّ غَادَرُوْا المُسْتَشْفَى (الخَيْمَةَ) إِلَى مَنَازِلِهِمْ ودُوْرِهِمْ.

وكَمْ كَانَتْ سَعَادَتُهَا غَامِرَةً، وَنَفْسُهَا بِالفَرْحَةِ عَامِرَةً وهِيَ تَرَى رَسُوْلَ اللهِ ﷺ يَدْخُلُ الخَيْمَةَ لِيَحْنُوَ عَلَى إِخْوَانِهِ وأَصْحَابِهِ، فَيُشْرِقُ النُّوْرُ فِي أَنْحَاءِ الخَيْمَةِ، ويَسْرِي فِيْهَا مِنْ بَرَكَةِ النَّبِيِّ ﷺ مَا يَجْعَلُهَا أَهْلًا لِلثِّقَةِ،

ومَوْطِناً لِلبُرْءِ والشِّفَاءِ.

وبِهَذَا كَانَتْ تَزْدَادُ فَعَالِيَةُ نَشَاطِهَا، وفَرْحَةُ فُؤَادِهَا، وخُصُوْصَاً عِنْدَمَا كَانَتْ تَسْمَعُ دَعَواتِ النَّبِيِّ ﷺ لَهَا بِالخَيْرِ واليُمْنِ والتَّوْفِيْقِ.

يَوْمُ أُحُدٍ

أَمَا يُوْمُ «أُحُدٍ» فَقَدْ كَانَ يَوْمَ الحُزْنِ الكَبِيْرِ فِي حَيَاتِهَا...

لَقَدْ أَصَرَّ شَبَابُ المُسْلِمِيْنَ عَلَى الخُرُوْجِ مِنَ المَدِيْنَةِ لِمُلَاقَاةِ أَعْدَائِهِمْ، ومُوَاجَهَةِ قُرَيْشٍ...، حَتَّى لَا يُنْعَتَ المُسْلِمُوْنَ بَالجُبْنِ والخَوْفِ.

وكَانَ اللِقَاءُ بَيْنَ المُؤْمِنِيْنَ والمُشْرِكِيْنَ عِنْدَ جَبَلِ أُحُدٍ وهُنَاكَ اسْتَطَاعَ المُسْلِمُوْنَ أَنْ يَرْبَحُوْا الجَوْلَةَ الأُوْلَى مِنَ المَعْرَكَةِ ويُلْحِقُوْا بِقُرَيْشٍ هَزِيْمَةً مُنْكَرَةً، إِلّا أَنَّ تَخَلِّيَ رُمَاةِ المُسْلِمِيْنَ عَنْ مَوَاقِعِهِمْ الاِسْتِرَاتِيْجِيَّةِ التِي حَدَّدَهَا لَهُمْ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ بَدَّلَتْ المَوْقِفَ ورَجَّحَتْ كِفَّةُ المُشْرِكِيْنَ، ومُنِيَ المُسْلِمُوْنَ يَوْمَئِذٍ بِخَسَارَةٍ لَمْ يَعْرِفُوْهَا مِنْ قَبْلُ...

لَقَدْ تَفَشَّى القَتْلُ فِيْهِمْ حَتَّى جَاوَزَ عَدَدُ شُهَدَائِهِمْ السَّبْعِيْنَ شَهِيْدَاً، عَلَى رَأْسِهِمْ أَسَدُ اللهِ ورَسُوْلِهِ «حَمْزَةُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ» عَمُّ النَّبِيِّ ﷺ.

ولَمْ يَسْتَطِعْ المُسْلِمُوْنَ نَقْلَ مَنْ أُثْخِنَ مِنْ جَرْحَاهُمْ إِلَى المَدِيْنَةِ...،

ولَفَظَ أَكْثَرُهُمْ أَنفَاسَهُم الزَّكِيَّةَ الطَّاهِرَةَ فِي المَيْدَانِ، وتَخَضَّبَتْ الأَرْضُ بِدِمَائِهِمْ الغَالِيَةِ...

فَكَانَ ذَلِكَ مَدْعَاةَ حُزْنِ كُعَيْبَةَ، ولَوْ أَنَّهَا كَانَتْ قَرِيْبَةً بِخَيْمَتِهَا مِنْ سَاحَةِ القِتَالِ لَأَسْعَفَتْ بَعْضَهُمْ وأَنْقَذَتْهُمْ مِنْ بَرَاثِنِ المُوْتِ، ولَكِنَّ قَضَاءَ اللهِ تَعَالَى كَانُ لَهُمْ بَالمِرْصَادِ، فَنَالُوْا الشَّهَادَةَ... ، وتَفَتَّحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ...، وازَّيَّنَتْ لَهُمُ الجِنَانُ.

وأَكَبَّتْ المُؤْمِنَةُ الدَّؤُوْبُ «كُعَيْبَةُ بِنْتُ سَعْدٍ الأَسْلَمِيَّةُ» عَلَى مُدَوَاةِ ومُعَالَجَةِ بَعْضِ الجَرْحَى، وسَهِرَتْ عَلَى رَاحَتِهِمْ وأَتَمَّتْ مُهِمَّتَها بِنَجَاحٍ.

دَرْسُ أُحُدٍ

ولَقَدْ تَعَلَّمَتْ مِنْ أُحُدٍ دَرْسَاً...

لَقَدْ تَعَلَّمَتْ أَنْ تَكُوْنَ بِخَيْمَتِهَا قَرِيْبَةً مِنْ مَيْدَانِ القِتَالِ، ومَعْنَى ذَلِكَ أَنْ تَكُوْنَ خَيْمَتُهَا «مُسْتَشْفَىً مَيْدَانِيَاً» بِالتَّعْبِيْرِ الاِصْطِلَاحِيِّ الحَدِيْثِ، مُسْتَشْفَىً مُتَنَقِّلَاً... خَفِيْفَاً... ، لَا يَعُوقُهُ عَنْ أَدَاءِ مُهِمَّتِهِ أَيُّ عَائِقٍ...

ولَكَ أَنْ تَتَصَوَّرَ ـ عَزِيْزِي القَارِئَ ـ كَمْ لَاقَتْ كُعَيْبَةُ رضي الله عنها مِنَ المَتَاعِبِ والمَصَاعِبِ لِتَأْمِيْنِ ذَلِكَ، وفِي عَصْرٍ كَانَتْ وَسِيْلَةُ التَّنَقُّلِ فِيْهِ... الجِمَالُ فَقَطْ.

يُوْمُ الخَنْدَقِ

فَفِي يَوْمِ الخَنْدَقِ خَرَجَتْ كُعَيْبَةُ بِخَيْمَتِهَا مَعَ الجَيْشِ ونَصَبَتْهَا عِنْدَ الخَطِّ الخَلْفِيِّ لِلقُوَّاتِ الإِسْلَامِيَّةِ، واسْتَعَدَّتْ لِلعَمَلِ إِذَا مَا وَجَبَ ذَلِكَ.

ولَقَدْ كَانَ مِنْ نَصِيْبِهَا أَنْ تَقُوْمَ بِرِعَايَةِ بَطَلٍ مِنْ أَبْطَالِ المُسْلِمِيْنَ، وسَيِّدٍ مِنْ سَادَاتِ الأَنْصَارِ، ومُؤْمِنٍ نَذَرَ نَفْسَهُ للهِ...، هُوَ «سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ» رضي الله عنه، لَقَدْ أُصِيْبَ بِسَهْمٍ فِي ذِرَاعِهِ، وكَانَتْ الإِصَابَةُ بَالِغَةً شَدِيْدَةً، فَتَلَقَّتْهُ كُعَيْبَةُ فِي مُسْتَشْفَاهَا المُتَنَقِّلِ، وبَذَلَتْ كُلَّ مَا فِي وُسْعِهَا، ومَا حَصَّلَتْهُ مِنْ خِبْرَةٍ ومَهَارَةٍ ومَعْرِفَةٍ لِمُعَالَجَةِ البَطَلِ وإِنْقَاذِ حَيَاتِهِ...

ولَقَدْ اِكْتَظَّتْ خَيْمَتُهَا أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ بِالقَادَةِ والزَّائِرِيْنَ يَطْمَئِنُّوْنَ عَلَى سَعْدٍ، وشَرُفَتْ بِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ يَزُوْرُ سَعْدَاً ويُوَاسِيْهِ ويَمْسَحُ رَأْسَهُ بِيَدِهِ الشَّرِيْفَةِ ويَدْعُوْ لَهُ بِالشِّفَاءِ العَاجِلِ...، ويُثْنِي عَلَى كُعَيْبَةَ ونَشَاطِهَا وخَدَمَاتِهَا الجُلَّى...

عَطَاؤُهَا

وكَمَا أَعْطَى ﷺ للجُنْدِ أَسْهُمَاً ونَصِيْبَاً مِنْ المَكَاسِبِ والمَغَانِمِ وأَسْلَابِ العَدُوِّ أَعْطَى كُعَيْبَةَ وخَصَّهَا بِنَصِيْبٍ وَافِرٍ، جَزَاءً وِفَاقَاً لِمَا كَانَتْ تَبْذُلُهُ مِنْ

عَظِيْمِ الجَهْدِ والعَطَاءِ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهَا.

ولَئِنْ كَانَ وُجُوْدُهَا مَعَ خَيْمَتِهَا يَوْمَ الخَنْدَقِ فِي المَيْدَانِ، وقَرِيْباً مِنَ المَعْرَكَةِ...مَدْعَاةَ فَخْرٍ واعْتِزَازٍ ومَوْضِعَ إِكْبَارٍ وإِعْجَابٍ...

فَمَاذَا تَقُوْلُ فِي يَوْمِ خَيْبَرَ ؟

إِلَى خَيْبَرَ

خَيْبَرُ البَعِيْدَةُ عَنِ المَدِيْنَةِ المُنَوَّرَةِ قُرَابَةَ مِائَةٍ وسِتِّيْنَ كِيْلُومِتْرَاً...، تَنْتَقِلُ إِلَيْهَا كُعَيْبَةُ بِمُسْتَشْفَاهَا المَيْدَانِيِّ وكَامِلِ تَجْهِيْزَاتِهِ لِتُؤَدِّيَ واجِبَهَا نَحْوَ اللهِ تَعَالَى وإِخْوَانِهَا فِي الإِسْلَامِ ، تِلْكَ ـ لَعَمْرِيَ ـ أُسْطُوْرَةٌ مِنْ أَسَاطِيْرِ التَّارِيْخِ، ومُعْجِزَةٌ مِنْ مُعْجِزَاتِ الدِّيْنِ الحَنِيْفِ الذِي كَوَّنَ الإِنْسَانَ تَكْوِيْنَاً جَدِيْدَاً وفَرِيْدَاً...

ولَقَدْ كَانَ يَوْمُ خَيْبَرَ بِمَعَارِكِهِ العَدِيْدَةِ، وأَيَّامِهِ المَجِيْدَةِ مِنْ أَيَّامِ كُعَيْبَةَ إِذْ أَدَّتْ يَوْمَئِذٍ وَاجِبَهَا عَلَى أَتَمِّ وَجْهٍ وأَكْمَلِهِ...

فَنَفَلَهَا رَسُوْلُ اللهِ ﷺ كَمَا نَفَلَ الفُرْسَانَ الأَبْطَالَ، وشَكَرَ لَهَا سَعْيَهَا، وسَهَرَهَا، وجُهْدَهَا، ودَعَا لَهَا بَالخَيْرِ والبَرَكَةِ، وهَذَا أَعْظَمُ النَّفْلِ وأَكْبَرُ العَطَاءِ.

ولَقَدْ ظَلَّتْ رضي الله عنها أَمِيْنَةً عَلَى رِسَالَتِهَا التِي نَذَرَتْ لَهَا نَفْسَهَا وضَحَّتْ بِكُلِّ مُتْعَةٍ مِنْ مُتَعِ الحَيَاةِ فِي سَبِيْلِ ابْتِغَاءِ وَجْهِ رَبِّهَا، وجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاواتُ والأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِيْنَ.

وإِنِّي لَأَتَخَيَّلُ كُعَيْبَةَ رضي الله عنها فِي جِنَانِ الخُلْدِ، تُظَلِّلُهَا خَيْمَةٌ مِنَ الرِّضَى والرِّضْوَانِ...

نَسِيْجُهَا مِنَ النَّعِيْمِ، تَحُفُّهَا وتَغْمُرُهَا يَدُ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ، وتَمُدُّهَا بِكُلِّ عَطَاءٍ كَرِيْمٍ.

مِسْكُ الخِتَامِ

ويَسْكُتُ التَّارِيْخُ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ بَاقِي أَيَّامِ كُعَيْبَةَ، ويَصْمُتُ صَمْتاً مُطْبِقاً، فَلَا نَسْمَعُ ولَا نَقْرَأُ عَنْ بَاقِي أَيَّامِ عُمْرِهَا، سَوَاءً فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، أَوْ بَعْدَ لُحُوْقِهِ بِالرَّفِيْقِ الأَعْلَى...

وكَأَنَّهَا رضي الله عنها قَدْ أَدَّتْ قِسْطَهَا لِلعُلَى، واكْتَفَى المَجْدُ مِنْهَا بِأَيَّامٍ غُرٍّ خَتَمَتْهَا فِي خَيْبَرَ.

حَمَلَ الأَنْصَارُ لِوَاءَ الدَّعْوَةِ، واحْتَضَنُوْا صَاحِبَهَا بَيْنَ جَوَانِحِهِمْ، وجَعَلُوْهُ فِي سُوَيْدَاءِ قُلُوْبِهِمْ، وبَذَلُوْا كُلَّ غَالٍ ونَفِيْسٍ فِي سَبِيْلِ الإِسْلَامِ ومَجْدِهِ.

رِجَالاً وشُيُوخَاً، شُبَّانَاً وفِتْيَانَاً، شِيْبَاً وكُهُوْلَاً ونِسَاءً...، ومِنْ بَيْنِ أُلَئِكَ النِّسْوَةِ: كُعَيْبَةُ بِنْتُ سَعْدٍ رضي الله عنها.

لَقَدْ عَاشَت الدَّعْوَةَ فِي صَمِيْمِ قَلْبِهَا، وتَغَذَّتْ مِنْ دِمَائِهَا وَدَفْقِ عَوَاطِفِهَا، وأَعْطَتْ كُعَيْبَةُ لَرَبِّهَا ورَسُوْلِهَا أَقْصَى العَطَاءِ، وبَذَلتْ فِي سَبِيْلِهِمَا غَايَةَ المُنَى، لَا طَمَعَاً فِي كَسْبٍ، ولَا حُبَّاً فِي مَغْنَمٍ، بَلْ سَعْيَاً إِلَى الجَنَّةِ .

❊ ❊ ❊

المُمْتَحَنَةُ

أمّ كُلثُومٍ بنتُ عُقبَةَ

رَضِيَ اللهُ عَنهَا

وِلَادَتُهَا

فِي بَيْتِ «عُقْبَةَ» الذِي كَانَ مَوْئِلاً لِلأَوْثَانِ وأَتْبَاعِهَا مِنَ الكُفَّارِ والمُشْرِكِيْنَ...، والذِي كَانَ مَحْضِنَ كُلِّ مُؤَامَرَةٍ عَلَى الإِسْلَامِ ورَسُوْلِهِ وفَتْنَةِ المُؤْمِنِيْنَ...

فِي هَذَا البَيْتِ الذِي كَانَتْ تَحُفُّهُ، وتَنْبُتُ فِي أَرْجَائِهِ وزَوَايَاهُ الأَشْوَاكُ، نَبَتَتْ وَرْدَةٌ، زَهْرَةٌ فَوَّاحَةٌ عَطِرَةٌ...، زَاهِيَةُ الأَلْوَانِ...، عَبِقَةُ الأَرِيْجِ... طَيِّبَةُ الأَرْدَانِ...طَاهِرَةٌ مُطَهَّرَةٌ....

فِي هَذَا البَيْتِ وُلِدَتْ أُمُّ كُلْثُوْمٍ بِنْتُ عُقْبَةَ...، المُسْلِمَةُ المُؤْمِنَةُ الخَالِدَةُ... «المُمْتَحَنَةُ»...

وأَنْتَ، وَلَا شَكَّ ـ أَيُّهَا القَارِئُ العَزِيْزُ ـ تَعْرِفُ سُوْرَةَ «المُمْتَحَنَةِ»، إِحْدَى سُوَرِ القُرْآنِ الكَرِيْمِ، وكِتَابَ اللهِ العَظِيْمِ، الذِيْ لَا يَأْتِيْهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ولَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيْلٌ مِنْ حَكِيْمٍ حَمِيْدٍ...

هَذِهِ السُّوْرَةُ الكَرِيْمَةُ تَحْكِيْ قِصَةَ «أُمِّ كُلْثُوْمٍ بِنْتِ عُقْبَةَ» رضي الله عنها، فَكَيْفَ امْتُحِنَتْ؟ ولِمَاذَا ؟ ومَا هِيَ قِصَّةُ حَيَاتِهَا المَجِيْدَةُ ؟ ومَا ظُرُوْفُهَا ووَقَائِعُهَا وأَحْدَاثُهَا؟ وإِلَى مَاذَا انْتَهَتْ إِلَيْهِ؟

النَّشْأَةُ

فَتَحَتْ أُمُّ كُلْثُوْمٍ عَيْنَيْهَا عَلَى بَيْتٍ رَحْبٍ كَبِيْرٍ، وَاسِعِ الأَرْجَاءِ، كَثِيْرِ الغُرَفِ، ظَاهِرِ الغِنَى والعِزِّ والرَّفَاهِيَةِ، فِيْهِ الأَثَاثُ الفَاخِرُ والرِّيَاشُ، وتَقُوْمُ فِي بَعْضِ جَوَانِبِهِ ونَوَاحِيْهِ نُصُبٌ كَثِيْرَةٌ وتَمَاثِيْلُ...

كَمَا فَتَحَتْ عَيْنَيْهَا أَيْضاً عَلَى أَبٍ حَدِيْدِيِّ النَّظَرَاتِ، فِي صَوْتِهِ نَبْرَةُ الزَّعَامَةِ وقُوَّةُ السِّيَادَةِ، ولَهْجَةُ الأَمْرِ والنَّهْيِ.

يُحِيْطُ بِهِ الأَتْبَاعُ، ويَمْتَثِلُ لِأَوَامِرِهِ العَبِيْدُ، يَغُضُّوْنَ أَبْصَارَهُمْ ويَحْفَظُوْنَ رُؤُوْسَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ رَهْبَةً وخَوْفاً.

فَكَانَتْ أُمُّ كُلْثُوْمٍ تَرْتَعُ فِي بَحْبُوْحَةٍ مِنَ العَيْشِ، وتَسْعَدُ بِهَذَا العِزِّ الوَافِرِ والغِنَى الظَّاهِرِ، ولَكِنَّهَا... كَانَتْ تَشْعُرُ بِالرَّعْشَةِ تَسْرِي فِي كَيَانِهَا كُلَّمَا وَقَعَ نَظَرُهَا عَلَى وَجْهِ وَالِدِهَا... وتَغْرَقُ خَوْفاً كُلَّمَا وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ تَسْتَمِعُ لِكَلِمَاتِهِ وتَوْجِيْهَاتِهِ ونَصَائِحِهِ...

لَقَدْ كَانَ الجَزَعُ أَبْرَزَ مَظَاهِرِ الاِحْتِرَامِ عِنْدَهَا، إِنْ أَطَاعَتْ واسْتَمَعَتْ فَإِنَّمَا تَفْعَلُ ذَلِكَ بِدَافِعِ الحِرْصِ عَلَى أَنْ لَا تُؤْذَى...، لَا حُبًّا ولا تَعَاطُفًا.

تَعَلُّمُهَا

تَعَلَّمَتْ ودَرَسَتْ وحَفِظَتْ...

وقَلِيْلاً مَا كَانَ يُعْتَنَى بِأَمْثَالِهَا مِنَ الإِنَاثِ، فَلَوْلَا نَجَابَتُهَا وذَكَاؤُهَا وحُبُّهَا لِلمَعْرِفَةِ لَمْ يَتَسَنَّ لَهَا ذَلِك.

تَعَلَّمَتْ القِرَاءَةَ والكِتَابَةَ، وأَتْقَنَتْ ذَلِكَ، ودَرَسَتْ بَعْضَ العُلُوْمِ المَعْرُوْفَةِ فِي تِلْكَ الأَيَّام.

وحَفِظَتْ الشِّعْرَ والحِكَمَ والأَمْثَالَ، وتَارِيْخَ العَرَبِ، واطَّلَعَتْ عَلَى بَعْضِ جَوَانِبِ دِيَانَاتِ أَهْلِ الكِتَابِ، مِنَ اليَهُوْدِ والنَّصَارَى، فَكَانَتْ وَاحِدَةً مِنَ القَلَائِلِ الذِيْنَ يَعْرِفُوْنَ.

حَالَةُ المَخَاضِ

فِي هَذِهِ المَرْحَلَةِ مِنَ العُمُرِ والتَّحْصِيْلِ، كَانَتْ أُمُّ كُلْثُوْمٍ فِي حَالَةِ تَمَزُّقٍ فِكْرِيٍّ، ونَفْسِيٍّ، لأَنَّ تَفَتُّحَهَا العَقْلِيَّ والذِّهْنِيَّ كَانَا أَكْبَرَ بَكَثِيْرٍ مِنَ الأَوْثَانِ

وطُقُوْسِ عِبَادَتِهَا...، تَرَى أَهْلَ الدَّارِ يُقَدِّمُوْنَ الذَّبَائِحَ والقَرَابِيْنَ والنُّذُوْرَ، ويُحْرِقُوْنَ البُخُورَ تَحْتَ أَقْدَامِ هَذِهِ النُّصُبِ فَتَثُوْرُ فِي أَعْمَاقِ وُجْدَانِهَا وضَمِيْرِهَا ثَوْرَةُ العَقْلِ والوَعْيِ...

لَكِنَّهَا تَكْبِتُهَا بَيْنَ حَنَايَا ضُلُوْعِهَا خَوْفاً مِنْ أَبِيْهَا عُقْبَةُ، ولَوْ قُدِّرَ لَهَا أَنْ تَصْرُخَ فِي وَجْهِهِ: أَنْ كَفَى جَاهِلِيَّةً...، لَفَعَلَتْ، ولَكِنْ مَا باليَدِ حِيْلَةٌ.

الإِيْمَانُ والإِسْلَامُ

وبُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ ونُبِّئَ سَيِّدُ الأَنَامِ...، ودَعَا النَّاسَ إِلَى الإِسْلَامِ، ونَبْذِ الأَصْنَامِ وتَحْطِيْمِ الأَوْثَانِ، وإِخْلَاصِ العُبُوْدِيَّةِ للهِ الوَاحِدِ الدَّيَّانِ.

فَسَمِعَتْ بِهِ وبِدَعْوَتِهِ، وكَانَتْ تَسْمَعُ مِنْ قَبْلُ عَنْ صِفَاتِهِ وأَخْلَاقِهِ، ومَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ عَنْهُ، ومَا يَمْتَدِحُوْنَهُ بِهِ، فَتَاقَتْ نَفْسُهَا إِلَى مُشَافَهَتِهِ والتَّحَدُّثِ إِلَيهِ وسَمَاعِهِ...، وكَانَتْ قَدْ شَبَّتْ وكَبِرَت، وبَلَغَتْ مَبْلَغَ الإِنَاثِ، ولَكِنْ...! كَيْفَ السَّبِيْلُ إِلَى ذَلِكَ؟

ومَاذَا لَوْ عَرَفَ أَبُوْهَا عُقْبَةُ... وأَخَوَاهَا «الوَلِيْدُ» و«عُمَارَةُ» بِالأَمْرِ؟

وهُمْ مَنْ هُمْ فِي عَدَاوَتِهِمْ للدِّيْنِ الجَدِيْدِ، وتَمَسُّكِهِمْ بِدِيْنِ الآبَاءِ والأَجْدَادِ، وعُكُوْفِهِمْ عَلَى الأَنْصَابِ والأَوْثَانِ وكُلِّ بِدَعِ الجَاهِلِيَّةِ التِي مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ.

اللِّقَاءُ

مَرَّتْ عَلَى أُمِّ كُلْثُوْمٍ أَيَّامٌ حَسِبَتْهَا دَهْرَاً بِكَامِلِهِ، وهِيَ تُفَكِّرُ فِي طَرِيْقَةٍ تُوْصِلُهَا إِلَى رَسُوْلِ اللهِ ﷺ، دُوْنَ أَنْ يَعْرِفَ أَحَدٌ.

وأَخِيْرَاً اهْتَدَتْ.

إِذْ ارْتَدَتْ ثِيَابَ خَادِمَتِهَا، وتَلَثَّمَتْ، وخَرَجَتْ مِنَ الدَّارِ قَاصِدَةً بَيْتَ «الأَرْقَمِ بنِ أَبِي الأَرْقَمِ»

وهُنَاكَ قَدَّمَتْ نَفْسَهَا وعَرَّفَتْ بِشَخْصِيَّتِهَا !!

فَتَقَبَّلَهَا رَسُوْلُ اللهِ ﷺ بِقَبُوْلٍ حَسَنٍ، وهَشَّ لَهَا وبَشَّ، وشَرَحَ لَهَا مَبَادِئَ مَا يَدْعُوْ إِلَيْهِ، وتَلَا عَلَيْهَا بَعْضَاً مِنْ آيِ القُرْآنِ الكَرِيْمِ، ثُمَّ دَعَاهَا إِلَى الإِسْلامِ، فَآمَنَتْ، وصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا... وكَانَتْ مِنَ القَانِتِيْنَ.

الطُّمَأْنِيْنَةُ

ولا يَفُوْتُنَا فِي هَذَا المَجَالِ أَنْ تَتَصَوَّرَ وتَتَخَيَّلَ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ أُمُّ كُلْثُوْمٍ مِنْ فَرْحَةٍ وسَعَادَةٍ وصَفَاءِ نَفْسٍ...

لَقَدْ وَجَدَتْ ضَالَّةَ نَفْسِهَا بَعْدَ طُوْلِ حَيْرَةٍ وقَلَقٍ...

كَانَتْ فِيْمَا سَبَقَ كَأَنَّهَا فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ تَتلَاطَمُ أَمْوَاجُهُ...تَعْلُوْ...ثُمَّ تَنْخَفِضُ...، وتُرْغِي... ثُمَّ تُزْبِدُ...، لَا تَعْرِفُ سَبِيْلًا للنَّجَاةِ...، أَوْ شَاطِئَ أَمَانٍ تَبْلُغُهُ لِتَأْوِيْ إِلَيْهِ... فَتَنْجُوَ وتَسْتَقِرَّ...، وهَا هِيَ الآنَ قَدْ بَلَغَتْ مُسْتَقَرَّهَا ومُسْتَوْدَعَهَا، وحَطَّتْ رِحَالَهَا بَعْدَ طُوْلِ تَجْوَالٍ...

لَقَدْ نَفَذَ شُعَاعُ النُّبُوَّةِ إِلَى صَمِيْمِ قَلْبِهَا، وسَرَتْ أَضْوَاءُ الرِّسَالَةِ إِلَى أَعْمَاقِ فُؤَادِهَا، فَاسْتَنَارَ كُلُّ ذَلِكَ بَعْدَ ظُلْمَةٍ دَامِسَةٍ وسَوَادٍ حَالِكٍ...

ورَأَتْ ذَاتَهَا تَسِيْرُ عَلَى المَحَجَّةِ البَيْضَاءِ، دُوْنَ خَوْفٍ أَوْ زَيْغٍ أَو اضْطِرَابٍ.

وَدَّعَتْهُ ﷺ وخَرَجَتْ مِنْ دَارِ الأَرْقَمِ، وقَدْ شُحِنَتْ بِطَاقَةٍ هَائِلَةٍ مِنَ الإِيْمَانِ ودُفْعَةٍ عَظِيْمَةٍ مِنَ اليَقِيْنِ.

خَرَجَتْ لَا كَمَا جَاءَتْ...، لَقَدْ نَزَعَتْ لِثَامَهَا، ورَفَعَتْ رَأْسَهَا، وشَمَخَتْ بِأَنْفِهَا وكَأَنَّهَا تَتَحَدَّى الكُفْرَ كُلَّهُ...، والشِّرْكَ وأَعْوَانَهُ...ولَوْ كَانَ فِيْهِمْ والِدُهَا عُقْبَةُ وأَخَوَاهَا الوَلِيْدُ وعُمَارَةُ.

التَّحَدِّي وَجْهاً لِوَجْهٍ

دَخَلَتِ الدَّارَ، وأَعْلَنَتْ بِكُلِّ صَرَاحَةٍ ووُضُوْحٍ وجُرْأَةٍ إِسْلَامَهَا، مِنْ غَيْرِ تَلَجْلُجٍ أَوْ تَرَدُّدٍ...

فَنَزَلَ الخَبَرُ عَلَى عُقْبَةَ نُزُوْلَ الصَّاعِقَةِ...، وأَحَسَّ كَأَنَّ الأَرْضَ تَتَزَلْزَلُ

مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْهِ وتَمِيْدُ بِهِ مَيْدَاً...، أَوْ كَأَنَّ دُوْارَاً يَعْصِفُ بِرَأْسِهِ...، فَغَامَتْ عَيْنَاهُ ولَمْ يَعُدْ يُمَيِّزُ الأَشْيَاءَ إِذْ كَيْفَ تَخْرُجُ اِبْنَتُهُ أُمُّ كُلْثُوْمٍ عَنْ طَاعَتِهِ وتَنِدُّ عَنْ قَطِيْعِهِ ؟!

كَيْف تَتَحَدَّاهُ وهُوَ الذِي تَخَافُهُ وتَرْهَبُهُ قُرَيْشٌ جَمِيْعُهَا؟ ثُمَّ... كَيْفَ يَوَاجِهُ أَنْدَادَهُ مِنَ السَّادَةِ والزُّعَمَاءِ بِهَذَا المَوْقِفِ؟ وهَلْ يَقْبَلُ أَنْ يَكُوْنَ مَوْضِعَ تَنَدُّرِهِم وسُخْرِيَاتِهِمْ...؟

اِرْتَفَعَتْ يَدُهُ إِلَى أَعْلَى، وهُوَ لَا يَدْرِيْ مَاذَا يَفْعَلُ، يُرِيْدُ أَنْ يَضْرِبَ بِهَا وَجْهَ أُمِّ كُلْثُوْمٍ ويَصْفَعَهَا صَفْعَةً يُعِيْدُ بِهَا إِلَيْهَا صَوَابَهَا عَلَى حَدِّ زَعْمِهِ...، لَكِنَّ صَلَابَةَ أُمِّ كُلْثُوْمٍ وشَجَاعَتَهَا ونَظَرَاتِهَا، وعَدَمَ اخْتِلَاجِهَا أَمَامَهُ، جَعَلَتْ يَدَهُ تَرْتَدُّ وتَتَخَاذَلُ...

ثُمَّ يَتَهَالَكُ عَلَى مَقْعَدٍ قَرِيْبٍ أَمَامَهُ... وقُضِيَ الأَمْرُ.

مَاذَا يَفْعَلُ؟

لَمْ يَكُنْ عُقْبَةُ يَمْلِكُ مِنْ وَسَائِلِ القَسْرِ والإِكْرَاهِ، بِالنِّسْبَةِ لِإِبْنَتِهِ المُتَحَدِّيَةِ، أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُضَيِّقَ عَلَيْهَا الخِنَاقَ، ويُقَيِّدَ مِنْ حُرِّيَةِ حَرَكَتِهَا، يَحْبِسُهَا فِي الدَّارِ حَتَّى لَا تَخْرُجَ ولَا تَجْتَمِعَ بِمُحَمَّدٍ، أَوْ بِأَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ وأَتْبَاعِهِ، ولَكِنَّهَا ﵂ لَمْ تَكُنْ تَعْدَمُ وَسِيْلَةَ الاِتِّصَالِ، وتَبَلُّغِ مَا يَسْتَجِدُّ مِنْ وَحْيٍ

يُوْحَى بِهِ إِلَى رَسُوْلِ اللهِ ﷺ، فَتَحْفَظَ وتَعي...، وتَزْدَادُ عِلْمَاً، وفِقْهَاً وإِيْمَانَاً.

سِجْنُ المُؤْمِنِ خَلْوَةٌ مَعَ اللهِ

ولَقِيَ الضُّعَفَاءُ مِنَ المُسْلِمِيْنَ صُنُوْفَاً مِنَ العَذَابِ، وأَلْوَانَاً مِنَ الشِّدَّةِ والقَسْوَةِ لَا تَطَاقُ، فَهَاجَرَ مَنْ هَاجَرَ إِلَى الحَبَشَةِ بِمَشُوْرَةٍ مِنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ، وبَقِيَ مِنْهُمْ فِي مَكَّةَ مَنْ بَقِي...

ثُمَّ كَانَتْ القَطِيْعَةُ لِـ «بَنِيْ هَاشِمٍ» فِي شِعْبِ «أَبِيْ طَالِبٍ»، وارْتَحَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الطَّائِفِ مُؤَمِّلَاً مِنْ أَهْلِهَا خَيْراً...، ثُمَّ عَادَ صِفْرَ اليَدَيْنِ إِلّا مِنْ عِنَايَةِ الرَّحْمَنِ، ورِعَايَةِ المَوْلَى الدَّيَّانِ.

وفِي مَوْسِمِ الحَجِّ عَرَضَ نَفْسَهُ ودَعْوَتَهُ عَلَى القَبَائِلِ، فَلَقِيَ تَجَاوُبَاً مِنْ وَفْدِ أَهْلِ يَثْرِبَ.

وبَعْدَ مُرُورِ عَامَيْنِ كَانَتْ طَلَائِعُ المُسْلِمِيْنَ المُهَاجِرِيْنَ تُغَادِرُ مَكَّةَ بِاتِّجَاهِ المَدِيْنَةِ، ثُمَّ هَاجَرَ المُصْطَفَى ﷺ إِلَى دِيَارِ الذِيْنَ بَايَعُوْهُ وعَاهَدُوْهُ عَلَى حَرْبِ الأَحْمَرِ والأَسْوَدِ مِنَ النَّاسِ، وعَلَى نُصْرَةِ الإِسْلَامِ.

مَوْتُ عُقْبَةَ عَلَى الكُفْرِ

وأُذِنَ للمُسْلِمِيْنَ بِالقِتَالِ...

فَكَانَتْ غَزْوَةُ «بَدْرٍ» أُوْلَى المَعَارِكِ، وفِيْهَا انْدَحَرَ المُشْرِكُوْنَ وهُزِمُوْا هَزِيْمَةً مُنْكَرَةً، وانْتَصَرَ المُسْلِمُوْنَ وعَزُّوا...

فِي هَذِهِ المَعْرَكَةِ مَاتَ «عُقْبَةُ بنُ أَبِي مُعَيْطٍ» فَحَزِنَتْ اِبْنَتُهُ أُمُّ كُلْثُوْمٍ لِمَوْتِهِ كَافِرًا، وكَمْ كَانَتْ تَتَمَنَّى أَنْ يَهْدِيَ اللهُ قَلْبَهُ للإِيْمَانِ، ولَكِنْ ما بِاليَدِ حِيْلَةٌ.

اِشْتِدَادُ الأَذَى

بَعْدَ مَوْتِ عُقْبَةَ انْتَقَلَتْ الوَلَايَةُ عَلَى أُمِّ كُلْثُوْمٍ مِنْهُ إِلَى وَلَدَيْهِ: الوَلِيْدِ وعُمَارَةَ، فَكَانَا أَشَدَّ فِي التَّضْيِيْقِ والإِيْذَاءِ، فَظَلَّتْ صَابِرَةً ثَابِتَةً تَحْتَسِبُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى بَلَاءَهَا، ومَا تُلَاقِيْهِ مِنْ شِدَّةٍ وعُنْفٍ وقَسْوَةٍ.

ثُمَّ كَانَتْ غَزْوَتَا «أُحُدٍ» و«الخَنْدَقِ» فَكَانَ أَخَوَاهَا الوَلِيْدُ وعُمَارَةُ فِي طَلِيْعَةِ المُشْرِكِيْنَ الخَارِجِيْنَ لِقِتَالِ المُسْلِمِيْنَ...

فِي كُلِّ تِلْكَ المَرَاحِلِ كَانَتْ أُمُّ كُلْثُوْمٍ رضي الله عنها حَبِيْسَةً لَا تَعْرِفُ سَبِيْلًا إِلَى الخَلَاصِ، ولَا طَرِيْقًا إِلَى النَّجَاةِ والفِرَارِ...

كَمَا كَانَتْ ﵂ تَوَّاقَةً إِلَى مَعْرِفَةِ الأَخْبَارِ والتَطَوُّرَاتِ، ضَنِيْنَةً بِالمُسْلِمِيْنَ أَنْ يُصَابُوْا أَوْ يُهْزَمُوْا، يَسْتَبِدُّ بِهَا الشَّوْقُ إِلَى لِقَاءِ النَّبِيِّ ﷺ، الذِي تَرَكَتْ شَخْصِيَّتُهُ فِي قَلْبِهَا ونَفْسِهَا أَعْمَقَ الأَثَرِ.

المُهَاجِرَةُ

وظَلَّتْ ﵂ عَلَى حَالَتِهَا تِلْكَ، حَتَّى كَانَ «عَهْدُ الحُدَيْبِيَةِ»، وسَبَبُهُ أَنَّ الرَّسُوْلَ ﷺ قَدْ خَرَجَ بِأَصْحَابِهِ مِنَ المَدِيْنَةِ قَاصِداً مَكَّةَ لِأَدَاءِ العُمْرَةِ وزِيَارَةِ بَيْتِ اللهِ الحَرَامِ (الكَعْبَةِ) وتَعْظِيْمِهَا...

لَكِنَّ قُرَيْشَاً قَالُوْا: لَنْ يَدْخُلَهَا (أَي مَكَّةَ) عَلَيْنَا عُنْوَةً...، لِذَا تَوَقَّفَ الرَّسُوْلُ ﷺ ومَنْ مَعَهُ فِي مَكَانٍ يُدْعَى «الحُدَيْبِيَةِ» بَيْنَ مَكَّةَ والمَدِيْنَةِ...

ولَمْ تُفْلِحْ المُفَاوَضَاتُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنَ فِي السَّمَاحِ للمُسْلِمِينَ بِالقُدُوْمِ إِلَى مَكَّةَ ثُمَّ اتَّفَقُوْا أَخِيْرَاً عَلَى أَنْ يَعُوْدَ المُسْلِمُوْنَ إِلَى المَدِيْنَةِ عَامَهُمْ هَذَا، وفِي العَامِ القَابِلِ يَأْتُوْنَ للعُمْرَةِ...

واتَّفَقُوْا أَيْضَاً عَلَى غَيْرِ ذَلِكْ، ووَضَعُوْا الاِتِّفَاقَ فِي صِيْغَةِ بُنُوْدٍ وشُرُوْطٍ عُرِفَتْ بِـ«عَهْدِ الحُدَيْبِيَةِ» أَوْ «صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ».

وكَانَ مِنْ بَيْنِ تِلْكَ الشُّرُوْطِ:

أَنَّ مَنْ جَاءَ إِلَى المَدِيْنَةِ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ هَارِبَاً أَوْ لَاجِئَاً أَوْ مُهَاجِرَاً فَعَلَى رَسُوْلِ اللهِ ﷺ أَنْ يُعِيْدَهُ ويَرُدَّهُ إِلَى قُرَيْشٍ، أَو يُسَلِّمَهُ إِلَى أَهْلِهِ، وأَوْلِيَائِهِ.

أَمَا مَنْ جَاءَ مِنَ المَدِيْنَةِ إِلَى مَكَّةَ هَارِبَاً أَوْ لَاجِئَاً... فَلَا تَرُدُّهُ قُرَيْشٌ إِلَى المُسْلِمِيْنَ !

وعَلَى الرُّغْمِ مِمَّا كَانَ فِي عَهْدِ الحُدَيْبِيَةِ مِنْ إِجْحَافٍ وتَسْلِيْمٍ ـ فِي الظَاهِرِ ـ بِحَقِّ المُسْلِمِيْنَ، إِلَّا أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ كَانَ وَاثِقَاً مِنْ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى، لِهَذَا رَدَّ عَلَى سَيِّدِنَا الفَارُوْقِ رضي الله عنه، وغَيْرِهِ، مِمَّنَ عَارَضُوْا هَذَا الاِتِّفَاقَ بِقَوْلِهِ:

ـ أَنَا عَبْدُ اللهِ ورَسُوْلُهُ ولَنْ يُضَيِّعَنِيْ...

وسَنَحَتْ الفُرْصَةُ لِأُمِّ كُلْثُوْمٍ رضي الله عنها بِالهُرُوْبِ مِنْ مَكَّةَ، والهِجْرَةِ إِلَى المَدِيْنَةِ، إِذْ لَمْ تَعُدْ تُطِيْقُ صَبْرَاً أَوْ بُعْدَاً عَنْ إِخْوَانِهَا المُسْلِمِيْنَ، ومُوَاكَبَةِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ والاِسْتِمْتَاعِ بِمُرَافَقَتِهِ وصُحْبَتِهِ، والمُسَاهَمَةِ فِي النِّضَالِ...، فَفَرَّتْ هَارِبَةً مِنْ مَكَّةَ إِلَى المَدِيْنَةِ...

وهُنَاكَ رَحَّبَ بِهَا رَسُوْلُ اللهِ ﷺ وأَكْرَمَ نُزُلَهَا ومَثْوَاهَا، ووَصَّى بِهَا أَهْلَهُ وأَصْحَابَهُ، فَارْتَاحَتْ نَفْسُهَا بَعْدَ طُوْلِ عَنَاءٍ وشَقَاءٍ.

المُمْتَحَنَةُ

وذَاتَ يَوْم، وبَيْنَمَا رَسُوْلُ اللهِ ﷺ فِي مَسْجِدِهِ الشَّرِيْفِ وفَدَ عَلَيْهِ الوَلِيْدُ ابنُ عُقْبَةَ بنِ أَبِي مُعَيْطٍ ومَعَهُ أَخُوْهُ عُمَارَةُ... يَطْلُبَانِ تَسْلِيْمَ أَخْتِهِمَا الفَارَّةِ أُمِّ كُلْثُوْمٍ تَنْفِيْذاً لِأَحَدِ بُنُوْدِ الاتِّفَاقِ (صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ)...

ولَمْ يَكُنْ أَمَامَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ بَمُوْجِبِ العَقْدِ المُبْرَمِ إِلَّا التَّنْفِيْذُ... والتَّسْلِيْمُ...، إِلّا أَنَّ دُمُوْعَ أُمِّ كُلْثُوْمٍ وتَوَسُّلَاتِهَا إِلَى النَّبِيِّ الكَرِيْمِ جَعَلَتْهُ يَتَرَيَّثُ قَلِيْلاً، ويُرْجِئُ الطَّالِبَيْنِ إِلَى اليَوْمِ التَّالِي...

ويَبْدُو أَنَّ حَرَارَةَ الدَّمْعِ الغَزِيْرِ والدُّعَاءِ إِلَى اللهِ تَعَالَى قَدْ فَعَلَا فِعْلَهُمَا، ولَا نَشُكُّ أَبَداً بِأَنَّ «أُمَّ كُلْثُوْمٍ» رضي الله عنها كَانَتْ تُعَانِي مِنْ ظُلْمِ المُشْرِكِيْنَ، ودُعَاءُ المَظْلُوْمِ كَمَا أَنْبَأَنَا الرَّسُوْلُ الأَعْظَمُ ﷺ، لَيْسَ بَيْنَهُ وبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ...

فَنَزَلَ القَوْلُ الكَرِيْمُ عَلَى قلب النَّبِيِّ العَظِيْمِ يَقُوْل:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ (المُمْتَحَنَة: 3).

عِنْدَئِذٍ قَامَ النَّبِيُّ ﷺ بِالاِمْتِحَانِ المَطْلُوْبِ، ولَمْ تَكُنْ أُمُّ كُلْثُوْمٍ رضي الله عنها بِحَاجَةٍ إِلَى الاِمْتِحَانِ، فَقَدْ كَانَتْ وقَائِعُ حيَاتِها فِيما سَبَقَ هِجْرَتَهَا إِلَى المَدِيْنَةِ المُنَوَّرَةِ أَعْظَمَ اِمْتِحَانٍ.

ونَجَحَتْ وتَخَطَّتْ مَرْحَلَةَ الاِبْتِلَاءِ إِلَى مَرْحَلَةِ الفُوْزِ.

وحِيْنَمَا جَاءَ أَخَواهَا فِي اليَوْمِ التَّالِيَ إِلَى المَسْجِدِ لِمُقَابَلَةِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ، وتَنْفِيْذِ الوَعْدِ، رَفَضَ أَنْ يُسَلِّمْهُمَا أُمَّ كُلْثُوْمٍ فَقَدْ فَرَّقَ بَيْنَهَا وبَيْنَهُمَا الإِسْلَامُ، ثُمَّ قَالَ:

ـ يَأْبَى اللهُ ذَلِكَ...

فَخَرَجَا مِنَ المَدِيْنَةِ خَائِبَيْنِ، وعَادَا مِنْ حَيْثُ قَدِمَا بِخُفَّيْ حُنَيْنٍ.

وانْتَظَمَتْ أُمُّ كُلْثُوْمٍ رضي الله عنها فِي سِلْكِ عِقْدِ الإِيْمَانِ، ومَوْكِبِ النُّوْرِ، مُؤْمِنَةً صَابِرَةً مُجَاهِدَةً.

الزَّوْجَةُ

ومَا زَالَتْ رضي الله عنها حَتَّى الحِيْنِ عَزْبَاءَ...

فَتَقَدَّمَ لِخِطْبَتِهَا والزَّوَاجِ مِنْهَ «زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ» رضي الله عنه، حِبُّ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ، بَعْدَ فِرَاقِهِ مِنْ «زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ».

فَقَبِلَتْهُ، وهُوَ المُوْلَى...وهِيَ بِنْتُ السَّيِّدِ القُرَشِيِّ...، لَقَدْ أَضْحَتْ رضي الله عنها عَلَى مُسْتَوَىً مِنَ الإِيْمَانِ رَفِيْعٍ لَا تَتَأَثَّرُ بِعَنْعَنَاتِ الجَاهِلِيَّةِ، ولَيْسَ ذَلِكَ بِغَرِيْبٍ عَلَيْهَا، فَقَدْ نَشَأَتْ عَاقِلَةً نَاضِجَةً، وأَسْلَمَتْ طَائِعَةً قَانِعَةً...

لَكِنَّ هَذَا الزَّوْاجَ لَمْ يَدُمْ طَوِيْلَاً، فَقَدْ اِسْتُشْهِدَ زَيْدٌ يَوْمَ «مُؤْتَةَ» رضي الله عنه، فَبَكَتْهُ أُمُّ كُلْثُوْم وحَزِنَتْ أَشَدَّ الحُزْنِ لِفِرَاقِهِ...

وكَانَتْ أُمُّ كُلْثُوْمٍ رضي الله عنها بِالإِضَافَةِ إِلَى مَكَانَتِهَا ونُضُوْجِهَا ذَاتَ جَمَالٍ وخُلُقٍ، يَطْمَعُ الكَثِيْرُوْنَ أَنْ يَسْكُنُوْا إِلَيْهَا ويَسْعَدُوْا بِالاِسْتِقْرَارِ مَعَهَا فِي بَيْتِ الزَّوْجِيَّةِ.

فَخَطَبَهَا الزُّبَيْرُ بنُ العَوَّام وتَزَوَّجَهَا، فَوَلَدَتْ لَهُ اِبْنَتَهُمَا «زَيْنَبُ» وكَانَ فِي طَبْعِ الزُّبَيْرِ شِدَّةٌ وغَيْرَةٌ، مِمَّا جَعَلَ أُمَّ كُلْثُوْمٍ تَضِيْقُ وتَتَبَرَّمُ، فَطَلَبَتْ الفِرَاقَ، لَكِنَّ الزُّبَيْرَ أَبَى.

وفِي ذَاتِ يَوْم، وكَانَتْ حَامِلَاً تُعَانِي مِنْ أَلَمِ الطَّلْقِ، أَلَحَّتْ عَلَيْهِ واشْتَدَّتْ فِي طَلَبِ التَّفْرِيْقِ، وكَانَ يَتَوَضَّأُ، فَطَلَّقَهَا تَطْلِيْقَةً...

وخَرَجَتْ... فَوَضَعَتْ...، وجَاءَ إِلَى الزُّبَيْرِ مَنْ يُخْبِرُهُ بِذَلِكَ فَثَارَ وغَضِبَ ثُمَّ قَالَ: خَدَعَتْنِي خَدَعَهَا اللهُ...

وقَصَدَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يُخْبِرُهُ بِمَا حَدَثَ،

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ:

ـ سَبَقَ فِيْهَا كِتَابُ اللهِ...، فاخْطُبْهَا !!

فَقَالَ الزُّبَيْرُ:

ـ لَا تَرْجِعْ إِلَيَّ أَبَدَاً...

ثُمَّ رَغِبَ فِيْهَا «عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ» رضي الله عنه فَتَزَوَّجَهَا، فَأَقَامَا فِي أَسْعَدِ حَالٍ، وأَهْنَأِ بَالٍ، ووَلَدَتْ لَهُ وَلَدَيْهِ «إِبْرَاهِيْمُ» و«حُمَيْدَاً»، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى جِوَارِ رَبِّهِ...

ثُمَّ تَزَوَّجَهَا «عَمْرُو بنُ العَاصِ»، وبَقِيَتْ فِي عِصْمَتِهِ إِلَى أَنْ أَدْرَكَتْهَا المَنِيَّةُ، وأَسْلَمَتِ الرُّوْحَ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً.

رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وأَرْضَاهَا، وأَعْلَى فِي الجَنَّةِ مَثْوَاهَا، وأَلْحَقَنَا بِهَا فِي الصَّالِحِيْنَ مِنْ عِبَادِهِ، وحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيْقَاً.

❊ ❊ ❊

أُمُّ الفَضْلِ

زَوجَةُ العَبّاسِ بنِ عَبدِ المطّلِب

رضي الله عنهما

يَكْفِي أُمَّ الفَضْلِ رضي الله عنها فَخْراً وعِزّاً أَنْ تَكُوْنَ قَدْ أَنْجَبَتْ وَلَدَهَا «عَبْدَ اللهِ» حَبْرُ الأُمَّةِ، وتُرْجُمَانُ القُرْآنِ كَمَا لَقَّبَهُ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ.

ويَكْفِي أُمَّ الفَضْلِ سُؤْدَدَاً وسُمْعَةً طَيِّبَةً أَنْ تَكُوْنَ قَدْ أَرْضَعَتْ «الحسَيْنَ ابنَ عَلِيٍّ» رضي الله عنه وغَذَّتْهُ بِلَبَنِ الشَّهَامَةِ والشَّجَاعَةِ والشَّهَادَةِ.

ويَكْفِي أُمَّ الفَضْلِ افْتِخَاراً وتِيْهَاً بِعُمْقِ الإِيْمَانِ وحُسْنِ الإِسْلَامِ، شَهَادَةُ المُصْطَفَى ﷺ حِيْنَ ذُكِرَتْ لَهُ مَعَ أَخَواتِهَا:

«مَيْمُونَةَ، ولُبَابَةَ الصُغْرَى، وهُزَيْلَةَ، وعَزَّةَ، وأَسْمَاءَ، وسَلْمَى»

أَنْ قَالَ فِيْهِنَّ:

ـ إِنَّ الأَخَوَاتِ لَمُؤْمِنَاتٍ...

ويَكْفِي أُمَّ الفَضْلِ ذَكَاءً ونَبَاهَةً لَمَّا سَمِعَتْ قَوْلَ اللهِ تَعَالَى:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (ٱلْمَائِدَةُ: 3).

أَنْ أَدْرَكَتْ دُنُوَّ أَجَلِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ، والْتِحَاقَهُ بِالرَّفِيْقِ الأَعْلَى، فَبَكَتْ، ولَمَّا سَأَلَهَا ﷺ عَنْ سَبَبِ بُكَائِهَا قَالَتْ:

ـ إِنَّ اللهَ نَعَاكَ إِلَيْنَا.

ويَكْفِي أُمَّ الفَضْلِ مَجْدَاً أَنَّ أَحْفَادَهَا (العَبَّاسِيِّيْنَ) قَدْ شَغَلُوْا حَيِّزَاً كَبِيْرَاً مِنْ تَارِيْخِ الإِسْلَامِ، وسُمِّيَ عَصْرُ أَحَدِهِمْ [1] بِالعَصْرِ الذَهَبِيِّ.

ويَكْفِي أُمَّ الفَضْلِ خُلُوْدَاً فِي التَّارِيْخِ أَنَّهَا مِنَ المُسْلِمَاتِ المُؤْمِنَاتِ القَانِتَاتِ العَابِدَاتِ، السَّابِقَاتِ المُهَاجِرَاتِ... اللوَاتِي عِشْنَ حَيَاتَهُنَّ للهِ وللدِّيْنِ، فَأَثَابَهُنَّ المَوْلَى سُبْحَانَهُ أَعْظَمَ الأَجْرِ:

جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها أبدًا

نَسَبُهَا

هِيَ لُبَابَةُ الكُبْرَى [2] ابنَةُ الحَارِثِ

أَمَّا أُمُّهَا فـ: خَوْلَةُ بِنْتُ عَوْفِ بنِ زُهَيْرٍ.

وانْتِسَابُ أَبِيْهَا إِلَى مُضَرَ وانْتِسَابُ أُمِّهَا إِلَى حِمْيَرَ يَدُلَّانِ عَلَى عُلُوِّ النَّسَبِ وشَرَفِ الأُرُوْمَةِ، وهَذِهِ اعْتِبَارَاتٌ وعَادَاتٌ قَبَلِيَّةٌ كَانَتْ فِي المَقَامِ الأَسْمَى عِنْدَهُمْ.

(١) ـ هو هارون الرشيد

(٢) ـ سميت بالكبرى لأن لها أختًا تدعى لُبابة أيضًا، وهي الصغرى (أم خالد بن الوليد).

إِسْلَامُهَا

ومِنْ خِلَالِ هَذَيْنِ النَّسَبَيْنِ نُدْرِكُ نَوْعِيَّةَ النَّشْأَةِ التِي شَبَّتْ عَلَيْهَا، وفِيْ أَيِّ الأَجْوَاءِ الاجْتِمَاعِيَّةِ تَفَتَّحَتْ عَيْنَاهَا عَلَى الحَيَاةِ.

تَزَوَّجَهَا العَبَّاسُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ ﵁، عَمُّ النَّبِيِّ ﷺ، فَوَلَدَتْ لَهُ: «الفَضْلَ» وبِهِ كَانَتْ تُكَنَّى، و«عبدَ الله ، وعُبَيْدَ الله، ومَعْبَدَاً، وقُثَمَ، وعَبْدَ الرحمَنِ، وأُمَّ حَبِيْبٍ» وكَانُوْا جَمِيْعَاً ذَوِيْ شَأْنٍ ومَقَامٍ.

والمَشْهُوْرُ عَنْ إِسْلَامِهَا ـ فِي أَكْثَرِ الرِّوَايَاتِ ـ أَنَّها ﵂ أَوَّلَ امْرَأَةٍ أَسْلَمَتْ بَعْدَ خَدِيْجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ ﵂ زوْجِ النَّبِيِّ ﷺ.

فهِيَ عَلَى هَذَا، لَيْسَتْ مِنَ السَّابِقَاتِ فَقَطْ...، بَلْ أَوَّلَ السَّابِقَاتِ، وهُوَ مَقَامٌ كَرِيْمٌ وفُوْزٌ عَظِيْمٌ، ومَنْزِلَةٌ لَمْ تَبْلُغْهَا امْرَأَةٌ قَطُّ.

إِسْلَامُ العَبَّاسِ

كَثُرَ القَوْلُ فِي وَقْتِ إِسْلَامِ العَبّاسِ ﵁، وقِيْلَ فِيْهِ الكَثِيْرُ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ إِسْلَامَهُ تَأَخَّرَ إِلَى قُبَيْلَ فَتْحِ مَكَّةَ، وهَذَا مُسْتَغْرَبٌ جِدَّاً عَلَى رَجُلٍ لَمْ يَتْرُكِ ابْنَ أَخِيْهِ يَمْضِيْ إِلَى لِقَاءِ الأَنْصَارِ فِي يَوْمِ بَيْعَةِ العَقَبَةِ دُوْنَ أَنْ يُرَافِقَهُ، ثُمَّ يُحَاوِرَ وَفْدَ يَثْرِبَ ويُنَاقِشَهُمْ لِيَسْتَوْثِقَ مِنْ التِزَامِهِمْ بالوَفَاءِ بِعُهُوْدِهِمْ وبَيْعَتِهِمْ...

ومُسْتَغْرَبٌ أَيْضاً عَلَى رَجُلٍ تَعِيْشُ زَوْجَتُهُ إِسْلَامَهَا مُنْذُ الأَيَّامِ الأُوْلَى للبِعْثَةِ، تَعِيْشُهُ بِكُلِّ الانْفِعَالَاتِ والتَطَوُّرَاتِ، سَلْبِيَّةً كَانَتْ أَمْ إِيَجَابِيَّةً، تَتَأَثَّرُ بِهَا وتُؤَثِّرُ فِيْهَا، دُوْنَمَا تَخَفٍّ أَوْ خَشْيَةٍ...، مُسْتَغْرَبٌ عَلَيْهِ أَنْ يَتَأَخّرَ إِسْلَامُهُ...!؟

ولَقَدْ جَاءَ فِي السِّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ «لابنِ هِشَام» مَا نَصُّهُ:

[قَالَ أَبُوْ رَافِعٍ ـ مَوْلَى رَسُوْلِ اللهِ ﷺ: كُنْتُ غُلَامَاً للعَبَّاسِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وكَانَ الإِسْلَامُ قَدْ دَخَلَنَا أَهْلَ البَيْتِ، فَأَسْلَمَ العَبَّاسُ وأَسْلَمَتْ أُمُّ الفَضْلِ وأَسْلَمْتُ، وكَانَ العَبَّاسُ يَهَابُ قَوْمَهُ ويَكْرَهُ خِلَافَهُمْ، وكَانَ يَكْتُمُ إِسْلَامَهُ، وكَانَ ذَا مَالٍ كَثِيْرٍ مُتَفَرِّقٍ فِي قَوْمِهِ].

إِذَاً...

هَذَا هُوَ الأَوْلَى والأَجْدَرُ بِالعَبَّاسِ، أَنْ يَكُوْنَ قَدْ أَسْلَمَ مُبَكِّرَاً ولَكِنَّهُ يَكْتُمُ إِسْلَامَهُ للأَسْبَابِ التِي ذَكَرهَا أَبُوْ رَافِعٍ مَوْلَى رَسُوْلِ اللهِ ﷺ.

تَأَخُّرُ هِجْرَةِ أُمِّ الفَضْلِ

اشْتَدَّ أَذَى قُرَيْشٍ للمُسْلِمِيْنَ، فَذَاقُوْا مِنَ العَذَابِ والتَنْكِيْلِ أَنْوَاعَاً وأَلْوَانَاً، وتَكَاتَفَتْ عَلَيْهِمُ المَتَاعِبُ والمَصَاعِبُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ،

فَاضْطُرَّ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ أَنْ يَعْرِضَ نَفْسَهُ ودَعْوَتَهُ عَلَى وُفُوْدِ القَبَائِلِ فِي المَوَاسِمِ لَعَلَّهُ يَجِدُ لَدَى بَعْضِهَا الإِيْمَانَ والتَّجَاوُبَ والنُّصْرَةَ، وكَانَ وَفْدُ الأَوْسِ والخَزْرَجِ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ مِنْ بَيْنِ تِلْكَ الوُفُوْدِ، وقَدْ لَقِيَتْ دَعْوَتُهُ ﷺ لَدَيْهِمْ تَجَاوُبَاً...

وتَمَّتِ البَيْعَةُ بَيْنَهُ وبَيْنَهُمْ، وبِحُضُوْرِ عَمِّهِ العَبَّاسِ ـ كَمَا أَسْلَفْنَا ـ وبَدَأَتْ الهِجْرَةُ، هِجْرَةُ المُسْلِمِيْنَ إِلَى المَدِيْنَةِ، ثُمَّ لَحِقَ بِهِمْ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ.

لَكِنَّ بَيْتَ العَبَّاسِ بَقِيَ فِي مَكَّةَ، ولَعَلَّ اعْتِبَارَاتِ كَتْمِ الإِسْلامِ، والخَشْيَةِ مِنْ إِرْهَابِ قُرَيْشٍ وبَطْشِهَا، وتَفَرُّقِ مَالِهِ الكَثِيْرِ دُيُوْنَاً عِنْدَ بَعْضِ النَّاسِ، هِيَ التِي أَخَّرَتْ هِجْرَتَهُمْ، أَوْ لَعَلَّ اتِّفَاقَاً (تَكْتِيْكِيَّاً سِرِّيَّاً) بَيْنَهُ وبَيْنَ ابنِ أَخِيْهِ كَانَ مِنْ جُمْلَةِ العَوَامِلِ للاسْتِفَادَةِ فِي الاِطِّلَاعِ عَلَى تَحَرُّكَاتِ قُرَيْشٍ ونَوَايَاهَا ومَا تُبَيِّتُهُ.

وبَقِيَتْ أُمُّ الفَضْلِ فِي مَكَّةَ وهِيَ تَتَطَلَّعُ شُوْقَاً إِلَى لِقَاءِ النَّبِيِّ ﷺ ومُوَاكَبَةِ مَسِيْرَةِ الإِسْلَامِ ولَكِنْ مَا بِاليَدِ حِيْلَةٌ.

وآنَ الأَوانُ

آنَ الأَوَانُ لِهِجْرَةِ أُمِّ الفَضْلِ ولَكِنْ بَعْدَ أَحْدَاثٍ وأَحْدَاثٍ...

ولَيْسَ مِنْ أُصُوْلِ البَحْثِ وتَسَلْسُلِ الحَدِيْثِ أَنْ نُغْفِلَهَا فإِنَّ لَهَا عَلاَقَةً وَطِيْدَةً بِاسْتِمرَارِ إِقَامَةِ بَيْتِ العَبَّاسِ فِي مَكَّةَ.

مِنْ ذَلِكَ ـ مَثَلاً ـ أَحْدَاثُ غَزْوَةِ «بَدْرٍ».

فقَدْ رَأَتْ «عَاتِكَةُ بِنتُ عبْدِ المُطَّلِبِ»(١) عَمَّةُ النَّبِيِّ ﷺ رُؤْيَا أَفْزَعَتْهَا، رَأَتْ كَأَنَّ صَخْرَةً كَبِيْرَةً تَدَأْدَأَتْ مِن جَبَلِ «أَبِي قُبَيْسٍ» فِي مَكَّة ثُمَّ تَفَتَّتَتْ أَحْجَارَاً صَغِيْرَةً دَخَلَتْ بُيُوْتَ النَّاسِ...

فَرَوَتْ تِلْكَ الرُّؤْيَا عَلَى أَخِيْهَا العَبَّاسِ فَأَوَّلَهَا أَنَّ مُصَابَاً كَبِيْرَاً سَوْفَ يُصِيْبُ قُرَيْشَاً، ثُمَّ طَلَبَ إِلَيْهَا أَنْ تَكْتُمَ ذَلِكَ.

وكَانَتْ قُرَيْشٌ تَسْتَعِدُّ للخُرُوْجِ إِلَى بَدْرٍ لِحِمَايَةِ تِجَارَتِهَا فِي القَافِلَةِ العَائِدَةِ مِنَ الشَّامِ بِقِيَادَةِ وحَرَاسَةِ «أَبِي سُفْيَانَ».

لَكِنَّ خَبَرَ الرُّؤْيَا شَاعَ وذَاعَ وانْتَشَرَ، وبَلَغَ مَسَامِعَ «أَبِي جَهْلٍ» الذِي لَقِيَ العَبَّاسَ فَسَخِرَ مِنْهُ وتَهَكَّمَ عَلَيْهِ قَائِلاً بَأَنَّ بَنِي هَاشِمٍ لَمْ يَكْتَفُوْا أَنْ يَتَنَبَّأَ رِجَالُهُمْ فَإِذَا بِنِسَائِهِمْ تَتَنَبَّأُ أَيْضَاً !!

(١) ـ كَانت ممن لا يزالون يقيمون في مكة.

ثُمَّ تَهَدَّدَهُ بِأَنَّهُ سَوْفَ يَفْضَحُهُ هُوَ وقَبِيْلَتُهُ فِي الغَدِ القَرِيْبِ، ويُسِجِّلُ عَلَيْهِمْ لَدَى العَرَبِ جَمِيْعَاً أَنَّهُمْ (أَي بنِي هَاشِم) أَكْذَبُ النَّاسِ.

ومَرَّتْ أَحْدَاثُ بَدْرٍ وهُزِمَ المُشْرِكُوْنَ شَرَّ هَزِيْمَةٍ وأَنْكَرِهَا، وكَانَ العَبَّاسُ فِي تِلْكَ الفَتْرَةِ يُعَانِي مِنْ مَوْقِفِهِ الضَّعِيْفِ المُهْزُوْمِ تُجَاهَ أَبِي جَهْلٍ وقُصُوْرِهُ عَنْ مُوَاجَهَتِهِ وتَحَدِّيَهُ، وقَدْ لَقِيَ كَثِيْرَاً مِنَ اللَّوْمِ مِنْ قَرَابَتِهِ لِأَنَّهُ جَبُنَ عَنِ الدِّفَاعِ...

أَمَّا أُمُّ الفَضْلِ رضي الله عنها فَقَدْ كَانَتْ تُوَاسِيْهِ ولَا تَشْتَدُّ عَلَيْهِ، وتَنْفُخُ فِي رُوْحِهِ وأَنْفَاسِهِ مَعَانِيَ العَزْمِ والثَّبَاتِ، مِمَّا يُخَفِّفُ عَنْهُ آلَامَ قَلْبِهِ وأَحْزَانِهِ...

وجَاءَتْ النَّتِيْجَةُ بَعْدَ بَدْرٍ عَلَى خَيْرِ مَا يَشْتَهِي العَبَّاسُ ويَتَمَنَّى...

كُلُّ ذَلِكَ تَرَكَ فِي بَيْتِ العَبَّاسِ آثَارَهُ الطَّيِّبَةَ الحَمِيْدَةَ، وَأَصْبَحَ الجَمِيْعُ يَتَنَفَّسُوْنَ بِشَيْءٍ مِنَ الحُرِّيَّةِ، فِي القَوْلِ والفِعْلِ والحَرَكَةِ.

ومَرَّتِ الأَيَامُ...

ولا يَزَالُ مَوْقِعُ بَيتِ العبَّاسِ فِي مَكَّةَ مَعِيْنَاً مِنْ الأَخْبَارِ السِّرِّيَّةِ عَنْ تَحَرُّكَاتِ قُرَيْشٍ ونَوَايَاهَا...

مِنْ أُحُدٍ إِلَى الخَنْدَقِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ...

ثُمَّ كَانَتْ «خَيْبَرُ»...

ولنَا مَعَهَا وَقْفَةُ تَأَمُّلٍ، ذَلِكَ أَنَّ بَيْتَ العَبَّاسِ كَانَ لَهُ دُوْرٌ... وأَيُّ دُوْرٍ...

كَانَتْ قُرَيْشُ جِدُّ سَعِيْدَةٌ بالمواجَهَةِ بَيْنَ المُسْلِمِيْنَ واليَهُوْدِ فِي «خَيْبَرَ»...

وكَانَتْ أَيَّامُ الحِصَارِ وطُوْلُ المُوَاجَهَةِ مَدْعَاةَ بَلْبَلَةٍ فِي الأَخْبَارِ عَنِ المَعَارِكِ...

ثُمَّ وَصَلَتْ أَنْبَاءٌ مَغْلُوْطَةٌ كَاذِبَةٌ إِلَى قُرَيْشٍ تَقُوْلُ بَأَنَّ مُحَمَّداً ﷺ قَدْ قُتِلَ وأَنَّ المُسْلِمِيْنَ قَدْ هُزِمُوْا وتَشَتَّتُوْا...

وبَدَأَتِ الشَّمَاتَةُ والتَّحَدِّي لِـ العَبَّاسِ الذِي أُصِيْبَ بَصَدْمَةٍ كَبِيْرَةٍ، وتَمُرُّ أَيَامٌ طِوَالٌ لَا يَهْنَأُ لَهُ بَالٌ ولَا يَقَرُّ لَهُ قَرَارٌ ولَا يَسْتَرِيْحُ لِشَيْءٍ، لَوْلَا أَنَّ أُمَّ الفَضْلِ رضي الله عنها كَانَتْ تُثَبِّتُهُ وتُزَيِّلُ كَدَرَ نَفْسِهِ.

حَتَّى جَاءَهُ سِرّاً مِنْ يُخْبِرُهُ الخَبَرَ اليَقِيْنَ، عَنْ انْتِصَارِ المُسْلِمِيْنَ ونَجَاةِ رَسُوْلِ رَبِّ العَالَمِيْنَ، وأَنَّهُ قَدْ حَازَ المَغَانِمَ والأَسْلَابَ والخَيْرَ العَمِيْمَ، وأَنَّهُ ﷺ قَدْ تَزَوَّجَ مِنْ «صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيِيِّ بنِ أَخْطَبٍ» ـ زَعِيْمِ اليَهُوْدِ ـ...

عِنْدَئِذٍ خَرَجَ العَبَّاسُ عَلَى النَّاسِ فِي مَكَّةَ، ولَعَلَّ أُمَّ الفَضْلِ رضي الله عنها كَانَ لَهَا بَعْضُ المَشُوْرَةِ فِي ذَلِكَ الخُرُوْجِ...

خَرَجَ إِلَى النَّاسِ مُتَجَمِّلاً مُتَزَيِّناً مُتَطَيِّباً يَتَبَخْتَرُ فِي الأَسْوَاقِ، حَتَّى أَتَى المَسْجِدَ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُهُمْ، وهُمْ لَا يَدْرُوْنَ الحَقِيْقَة:

هَكَذَا يَكُوْنُ الرِّجَالُ يَا «أَبَا الفَضْلِ» يَتَحَمَّلُوْنَ المُصِيْبَةَ ولَا يَجْزَعُوْنَ، تَهَكُّماً وسُخْرِيَةً فَرَدَّ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ الأَمْرَ عَلَى غَيْرِ مَا يَعْلَمُوْنَ ويَشْتَهُوْنَ، فَقَدْ نَصَرَ اللهُ المُسْلِمِيْنَ، وحَفِظَ رَسُوْلَهُ ﷺ وأَنَّهُ الآنَ مُعَرِّسٌ بِـصَفِيَّةَ بِنْتِ مَلِكِ اليَهُوْدِ...

ولَدَى ظُهُورِ الحَقِيْقَةِ الجَلِيَّةِ انْكَفَأَ النَّاسُ عَنِ العَبَّاسِ، وعَنْ بَيْتِهِ، ولَزِمُوْا مَوَاقِعَهُمْ الذَّلِيْلَةَ، وشَمَخَ رَأْسُ العَبَّاسِ ومَنْ مَعَهُ.

الحُدَيْبِيَةُ وعُمْرَةُ القَضَاءِ

لِمَاذَا كَانَ هَذَا التَطْوِيْلُ ؟

سُؤَالٌ قَدْ يَتَبَادَرُ إِلى الذِّهْنِ، ولَكِنَّا نُجِيْبُ بِأَنَّ ضَرُوْرَةَ البَحْثِ تَقْتَضِيْ ذَلِكَ فَقَدْ كَانَ لِـ أُمِّ الفَضْلِ رضي الله عنها دَوْرٌ فِي ذَلِكَ .

خَرَجَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ مِنَ المَدِيْنَةِ قَاصِداً مَكَّةَ تَعْظِيْماً لِبَيْتِ اللهِ الحَرَامِ وزِيَارَةِ الكَعْبَةِ.

لَكِنَّ قُرَيْشاً أَبَتْ عَلَيْهِ ذَلِكَ، وصَدَّتْهُ هُوَ ومَنْ مَعَهُ، واسْتَعَدَّتْ للقِتَالِ،

وتَمَّ صُلْحُ الحُدَيْبِيَةِ، وعَادَ المُسْلِمُوْنَ إِلَى المَدِيْنَةِ.

وفِي العَامِ التَالِي جَاءَ المُسْلِمُوْنَ إِلَى مَكَّةَ زَائِرِيْنَ مُعْتَمِرِيْنَ، ودَخَلُوْهَا بَعْدَ أَنْ خَرَجَتْ قُرَيْشٌ مِنْهَا، ومَكَثَ ﷺ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ هُنَاكَ، حَسْبَمَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ صُلْحُ الحُدَيْبِيَةِ...

ورَأَتْ أُمُّ الفَضْلِ رضي الله عنها حَبِيْبَهَا ورَسُوْلَهَا ونَبِيَّهَا ﷺ بَعْدَ سِنِيْنَ عَدِيْدَةٍ مِنَ الهِجْرَةِ، فَكَحَّلَتْ عَيْنَيْهَا بِرُؤْيَاهُ الشَّرِيْفَةِ، وسَعِدَتْ بِهَذَا اللِقَاءِ أَيَّمَا سَعَادَةٍ، وفَرِحَتْ بِهِ أَيَّمَا فَرَحٍ...

وتَوَّجَتْ كُلَّ ذَلِكَ بِزَوَاجِ أُخْتِهَا «مَيْمُوْنَةَ بِنْتِ الحَارِثِ» مِنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ، وحِيْنَ تَمَّتْ الأَيَّامُ الثَّلَاثَةُ أَصَرَّتْ قُرَيْشٌ عَلَى خُرُوْجِ المُسْلِمِيْنَ مِنْ مَكَّةَ، فَاضْطُرَ ﷺ إِلَى المُغَادَرَةِ...، ولَمَّا كَانَ بِمَكَانٍ يُدْعَى «سَرَفُ» قَرِيْبًا مِنْ مَكَّةَ بَنَى بِمَيْمُوْنَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِيْنَ رضي الله عنها.

وهُنَا ـ عَزِيْزِي القَارِئَ ـ آنَ الأَوَانُ لِهِجْرَةِ بَيْتِ العَبَّاسِ ومَنْ مَعَهُمْ مِنْ مَكَّةَ إِلَى المَدِيْنَةِ، وسَجَّلَ التَّارِيْخُ لِـ«أُمِّ الفَضْلِ» بِالإِضَافَةِ إِلَى سَبْقِ الإِسْلَامِ، الهِجْرَةَ...، فَحَازَتْ الفَضْلَ والشَّرَفَ.

فِي المَدِيْنَةِ

وفِي المَدِيْنَةِ المُنَوَّرَةِ أَقَامَتْ أُمُّ الفَضْلِ مُلَاصِقَةً لِبَيْتِ النُّبُوَّةِ لَا تَغِيْبُ عَنْهُ أَبَدَاً، لِتُعَوِّضَ مَا فَاتَهَا مِنَ البُعْدِ سَابِقَاً، ولِتُطْفِئَ غُلَّةَ ظَمَئِهَا إِلَى النَّبِيِّ الكَرِيْمِ ﷺ.

وكَانَ ﷺ بِالمُقَابِلِ يُبَادِلُ أُمَّ الفَضْلِ هَذَا الشَّوْقَ الشَّدِيْدَ، فَيَأْتِي إِلَيْهَا فِي دَارِهَا ويُقِيْلُ عِنْدَهَا...

ومِمَّا يُؤْثَرُ أَنَّهَا كَانَتْ تُكَحِّلُهُ وتُخَضِّبُهُ وتُرَجِّلُهُ...

وفِي ذَاتِ يَوْمٍ، وبَيْنَمَا هِيَ تُكَحِّلُهُ ﷺ سَقَطَتْ مِنْ عَيْنِهَا دَمْعَةٌ سَاخِنَةٌ عَلَى وَجْهِهِ الشَّرِيْفِ فانْتَبَهَ إِلَيْهَا وسَأَلَهَا عَمَّا بِهَا،فَقَالَتْ:

ـ لَقَدْ نَعَاكَ اللهُ إِلَيْنَا يَا رَسُوْلَ اللهِ...

كَانَتْ رضي الله عنها قَدْ حَجَّتْ مَعَهُ حَجَّةَ الوَدَاعِ، ورَافَقَتْهُ فِي كُلِّ تَحَرُّكَاتِهِ وتَنَقُّلَاتِهِ بَيْنَ مَكَّةَ وعَرَفَةَ وغَيْرِهِمَا مِنَ المَنَاسِكِ، واسْتَمَعَتْ إِلَيْهِ وهُوَ يَخْطُبُ خُطْبَتَهُ المَشْهُوْرَةَ، يَوْمَ الحَجِّ، ولَقَدْ احْتَلَبَتْ لَهُ لَبَناً وأَرْسَلَتْهُ إِلَيْهِ فَشَرِبَهُ...

ثُمَّ سَمِعَتْ قَوْلَ اللهِ تَعَالَى يَتَنَزَّلُ عَلَيْهِ هُنَاكَ:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (ٱلْمَائِدَةُ: 3).

فَحَفِظَتْ القوْلَ ووَعَتْهُ، ثُمَّ طَوَتْهُ بَيْنَ جَوَانِحِهَا، حَتَّى إِذَا كَانَ فِي المَدِيْنَةِ وفِي بَيْتِهَا تُكَحِّلُهُ وتَتَمَلَّى وَجْهَهُ الشَّرِيْفَ، ثَارَتْ نَفْسُهَا وعَاطِفَتُهَا أَلَماً وحُزْناً، فَدَمِعَتْ عَيْنَاهَا، وسَقَطَتْ عَبْرَتُهَا الحَرَّى عَلَى وجْهِهِ الشَّرِيْفِ.

كَافِلَةُ الحُسَيْنِ رضي الله عنه

اِسْتَيْقَظَت أُمُّ الفَضْلِ رضي الله عنها ذَاتَ يَوْم عَلَى رُؤْيَا، فَبَادَرَتْ مِنْ فَوْرِهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تَسْتَفْتِيْهِ فِيْهَا، لِأَنَّهَا تَتَعَلَّقُ بِهِ، قَالَتْ:

ـ يَا رَسُوْلَ اللهِ...رَأَيْتُ رُؤْيَا كَأَنَّ عُضْوَاً مِنْ أَعْضَائِكَ فِي بَيْتِي...

قَالَتْهَا فَزِعَةً مُضْطَرِبَةً، فَتَبَسَّمَ ﷺ فِي وَجْهِهَا يُطَمْئِنُهَا وقَالَ:

ـ خَيْرَاً رَأَيْتِ... تَلِدُ «فَاطِمَةُ» غُلَامَاً تُرْضِعِيْهِ بِلَبَنِ ابْنِكِ «قُثَمَ».

وتَحَقَّقَتْ الرُّؤْيَا، ووَلَدَتْ فَاطِمَةُ رضي الله عنها الحُسَيْنَ رضي الله عنه فَكَفِلَتْهُ أُمُّ الفَضْلِ، وكَأَنَّ ذَلِكَ كَانَ وَصِيَّةً مِنَ المُصْطَفَى ﷺ، حَمَلَتْهُ ـ أَي الحُسَيْنُ ـ مَعَهَا إِلَى دَارِهَا، وأَرْضَعَتْهُ وغَذَّتْهُ بِلَبَنِهَا، وسَقَتْهُ مِنْ مَعِيْنِ عَطْفِهَا وحَنَانِهَا...

أَوْجَعْتِ اِبْنِي يَا أُمَّ الفَضْلِ

وفِي ذَاتِ يَوْمٍ حَمَلَتِ الحُسَيْنَ رضي الله عنه وأَتَتْ بِهِ إِلَى رَسُوْلِ اللهِ ﷺ ووَضَعَتْهُ فِي حِجْرِهِ...، وجَلَسَتْ قَرِيْباً.

بَالَ الصَّبِيُّ فِي حِضْنِ جَدِّهِ ﷺ، فَقَالَ لِأُمِّ الفَضْلِ:

ـ لَقَدْ بَالَ الصَّبِيُّ فِي حِجْرِي...

فَرَفَعَتْهُ أُمُّ الفَضْلِ وقَرَصَتْهُ، وكَأَنَّهَا تُؤَدِّبُهُ، فَتَوَجَّعَ قَلِيْلاً وبَكَى، فَتَأَثَّرَ النَّبِيُّ ﷺ لِذَلِكَ، وقَالَ:

ـ لَقَدْ أَوْجَعْتِ اِبْنِيْ يَا أُمَّ الفَضْلِ.

فَقَالَتْ:

ـ هَاتِ ثَوْبَكَ أَغْسِلُهُ وأُطَهِّرُهُ.

فَقَالَ:

ـ يَكْفِي أَنْ أَمُرَّ بِالمَاءِ عَلَيْهِ مُرُوْرَاً.

الرَّاوِيَةُ المُحَدِّثَةُ

بِالإِضَافَةِ إِلَى مَا كَانَتْ تَتَمَتَّعُ بِهِ أُمُّ الفَضْلِ رضي الله عنها مِنْ حُسْنِ إِسْلَامٍ وصَفَاءٍ وإِيْمَانٍ، وحُبٍّ كَبِيْرٍ للهِ ورَسُوْلِهِ...

وبالإضَافَةِ إِلَى ذَكَائِهَا ونَبَاهَتِهَا وقُوَّةِ شَخْصِيَّتِهَا وحُسْنِ مَشُوْرَتِهَا. فَقَدْ كَانَتْ رضي الله عنها وَاعِيَةً سَامِعَةً، وبِحُكْمِ قُرْبِهَا ـ بَعْدَ الهِجْرَةِ ـ مِنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ ومُلَاصَقَتِهَا لِبَيْتِ النُّبُوَّةِ، فَقَدْ حَفِظَتْ عَنْهُ ﷺ بَعْضَ حَدِيْثِهِ، وفَقِهَتْهُ، ورَوَتْهُ.

ولَوْ أَنَّهَا قُدِّرَ لَهَا أَنْ لَا تَنْقَطِعَ بَعْضَ السِّنِيْنِ فِي مَكَّةَ بَعِيْدَةً لَأَتَاحَتْ لَنَا أَنْ تُفِيْضَ عَلَيْنَا كَثِيْرَاً مِنْ حَدِيْثِهِ الشَّرِيْفِ.

الوَفَاةُ

وقُدِّرَ لِـ أُمِّ الفَضْلِ رضي الله عنها أَنْ تَعِيْشَ طَوِيْلَاً، فَقَدْ عَاشَتْ إِلَى زَمَنِ خِلَافَةِ «عُثْمَانَ بنِ عَفَّانَ» رضي الله عنه.

ولَقَدْ كَانَتْ وَفَاةُ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ أَشَقَّ مَا مَرَّ عَلَى نَفْسِهَا، وأَشَدَّ مَا وَاجَهَتْهُ فِي حَيَاتِهَا مِنْ أَحْدَاثٍ...

كَيْفَ لَا...، وهِيَ التِي دَمِعَتْ عَيْنَاهَا لِنَعْيِهِ ﷺ قَبْلَ الفِرَاقِ.

وعَاشَتْ فِي زَمَنِ خِلَافَةِ الصِّدِّيْقِ وخِلَافَةِ الفَارُوْقِ رضي الله عنهما مُعَزَّزَةً مُكَرَّمَةً، مُحْتَرَمَةَ المَقَامِ والمَكَانَةِ والرَّأْيِ، الكُلُّ يَعْرِفُ قَدْرَهَا وفَضْلَهَا.

ثُمَّ لَحِقَتْ بِالرَّفِيْقِ الأَعْلَى، مُطْمَئِنَّةَ النَّفْسِ قَرِيْرَةَ العَيْنِ.
رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وأَرْضَاهَا، وأَكْرَمَ نُزُلَهَاومَثْوَاهَا.

❊ ❊ ❊

الشَّهِيدَةُ

"أُمُّ وَرَقَةَ" - رَضِيَ اللهُ عَنها

الاِسْتِقْبال العَظِيم

وخرَجَتْ المدِينَةُ المُنَوَّرَهُ عَلى بِكْرَةِ أَبِيْهَا...

وأَمَّا المهَاجِرُونْ فَكَانُوا فِي لَهْفَةٍ وقَلَقٍ، وشَوْقٍ مَا بَعْدَهُ شَوْقٌ...، أَمَّا اليَوْمَ فَقَدْ زَالَ عَنْهُمْ مَا كَانُوْا مِنهُ يَخَافُوْنَ.

كَانُوْا فِي الأَيَّامِ السَّابِقَةِ يَخْرُجُوْنَ إِلَى ضَوَاحِيْ المَدِيْنَةِ يَنْتَظِرُوْنَ...، وتَطُوْلُ بِهِمُ السَّاعَاتُ، ثُمَّ يَعُوْدُوْنَ مَعَ غُرُوْبِ الشَّمْسِ إِلَى المَدِيْنَةِ كَاسِفِيْنَ.

ولَقَدْ وَافَاهُمْ خَبَرُ خُرُوْجِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ مَكَّةَ فِي رِحْلَةِ الإِسْلَامِ الكُبْرَى، مُهَاجِرَاً إِلَى اللهِ...، ولَقَدْ تَأَخَّرَ وُصُوْلُهُ إِلَى المَدِيْنَةِ !!!، فَظَنَّ بَعْضُهُمْ سُوْءَاً، لَكِنَّ عِنَايَةَ اللهِ تَعَالَى أَكْبَرُ وأَعْظَمُ، فَحَفَّهُ بِحِمَايَتِهِ ورِعَايَتِهِ، وكَفَّ أَيْدِيْ الكُفَّارِ عَنْهُ، وبَلَّغَهُ غَايَتَهُ ومُنَاهُ.

وهَا هِيَ طَلْعَتُهُ الشَّرِيْفَةُ تُشْرِقُ عَلَى «يَثْرِبَ» فَتَغْمُرُهَا بِالنُّوْرِ والفَرْحَةِ.

وأَمَّا الأَنْصارُ الذِيْنَ بَايَعُوْهُ عَلَى الحَقِّ، فَكَانُوْا فِي عِزَّةٍ ظَاهِرَةٍ وسَعَادَةٍ

وَافِرَةٍ، يَرْفَعُوْنَ الهَامَاتِ تِيْهَاً وفَخْراً إِذْ أَضْحَوْا مَوْئِلَ الدَّعْوَةِ الجَدِيْدَةِ والدِّيْنِ الحَنِيْفِ دُوْنَ أَهْلِ الجَزِيْرَةِ العَرَبِيَّةِ، وهَذَا عِزُّ الدُّنْيَا والآخِرَةِ جَمِيْعَاً.

وأَمَّا نِسَاؤُهُمْ فَكَانُوْا فِي طَلِيْعَةِ المِهْرَجَانِ العَظِيْمِ، يَحْمِلْنَ الدُّفُوْفَ فِي أَيْدِيْهِنَّ، وتَنْطَلِقُ أَلْسِنَتُهُنَّ بِالأَهَازِيْجِ والأَغَارِيْدِ والزَّغَارِيْدِ...، وتَدُوْرُ رُؤُوْسُهُنَّ بِنَشْوَةِ الفَرْحَةِ الكُبْرَى.

أُمُّ وَرَقَةَ

وهَا هِيَ أُمُّ وَرَقَةَ رضي الله عنها تَقِفُ مَعَ أَخَوَاتٍ لَهَا تُلَوِّحُ بِيَدَيْهَا مُرَحِّبَةً بِالنَّبِيِّ الكَرِيْمِ، قَدِ انْحَبَسَ صَوْتُهَا بِسَبَبِ عَبَرَاتٍ خَنَقَتْهَا ثُمَّ سَالَتْ عَلَى وَجْنَتَيْهَا.

وحِيْنَ اقْتَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ فَوْقَ نَاقَتِهِ مِنَ المَكَانِ الذِيْ تَقِفُ فِيْهِ «أُمُّ وَرَقَةَ» لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُحَدِّقَ فِي الوَجْهِ الشَّرِيْفِ، رُغْمَ مُحَاوَلَاتِهَا، فَأَغْضَتْ حَيَاءً وانْكِسَارَاً، وأَحَسَّتْ كَأَنَّمَا عَشِيَتْ بِسَبَبِ النُّوْرِ البَاهِرِ والضِّيَاءِ الظَّاهِرِ...، ثُمَّ سَرَى فِي كَيَانِهَا إِحْسَاسٌ لَا تَدْرِيْ كُنْهَهُ وسِرَّهُ، غَيْرَ أَنَّهَا شَعَرَتْ كَأَنَّمَا خُلِقَتْ مِنْ جَدِيْدٍ، وبُعِثَ فِيهَا إِنْسَانٌ آخَرُ.

الحَافِظَةُ

أَسْلَمَتْ أُمُّ وَرَقَةَ وبَايَعَتْ، ثُمَّ انْصَرَفَتْ إِلَى كِتَابِ اللهِ تَعَالَى، تَنْهَلُ مِنْ مَعِيْنِهِ الذِيْ لَا يَنْضَبُ، تَحْفَظُ آيَاتِهِ، وتَتَفَقَّهُ فِي مَعَانِيْهَا وأَغْرَاضِهَا، وتُتْقِنُ ذَلِكَ غَايَةَ الإِتْقَانِ.

وتَقُوْمُ اللَّيْلَ عَابِدَةً مُتَبَتِّلَةً، تُصَلِّيْ وتَقْرَأُ، وتَخْشَعُ وتَبْكِيْ، وتَصِلُ نَفْسَهَا وذَاتَهَا بِاللهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى.

الجَامِعَةُ

ولَمْ تَكْتَفِ مِن اهْتِمَامِهَا بِكِتَابِ اللهِ بِهَذَا القَدْرِ، بَلْ عَكَفَتْ عَلَى جَمْعِ آيَاتِهِ مَكْتُوْبَةً عَلَى العَظْمِ والجِلْدِ والرَّقَائِقِ فِي دَارِهَا مُرَتَّبَةً كَمَا كَانَ يَأْمُرُ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ.

لِهَذَا ـ عَزِيْزِي القَارِئَ ـ كَانَ بَيْتُهَا، وكَانَتْ هِيَ رضي الله عنها مَرْجِعاً مِنَ المَرَاجِعِ التِي عَادَ إِلَيْهَا الخَلِيْفَةُ الصِّدِّيْقُ رضي الله عنه، عِنْدَمَا جَمَعَ القُرْآنَ الكَرِيْمَ مِنَ البُيُوْتِ، ومِنْ صُدُوْرِ الحَفَظَةِ.

ولَقَدْ كَانَتْ رضي الله عنها مِنْ نِسَاءِ الأَنْصَارِ اللَّوَاتِي كَانَ يَقْصِدُهُنَّ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ ويَزُوْرُهُنَّ فِي بُيُوْتِهِنَّ، ويَقِيْلُ عِنْدَهُنَّ.

وسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّهُ ﷺ أَدْرَكَ مُنْذُ أَيَّامِهِ الأَوْلَى فِي المَدِيْنَةِ مَكَانَةَ ومَقْدِرَةَ أُمِّ وَرَقَةَ وكَفَاءَتَهَا...، وتَقْوَاهَا وورَعَهَا وعِبَادَتَهَا...، واهْتِمَامَهَا بِالآيِ الكَرِيْمِ...، فَكَانَ يَأْتِيْهَا زَائِرَاً بَيْنَ الحِيْنِ والحِيْنِ مَعَ بَعْضِ أَصْحَابِهِ وإِخْوَانِهِ إِكْرَامَاً لَهَا وإِعْزَازَاً لِمَكَانَتِهَا.

وزِدْنَاهُمْ هُدَى

ولَمْ تَكُنْ هَذِهِ الزِّيَارَاتُ لِتَبْعَثَ فِي نَفْسِ أُمِّ وَرَقَةَ الكِبْرِيَاءَ أَوْ التَّعَالِيَ، بَلْ كَانَتْ تَزْدَادُ تَوَاضُعَاً وقُرْبَاً مِنْ اللهِ ورَسُوْلِهِ، وحَدْبَاً عَلَى المُسْلِمِيْنَ مِنَ الفُقَرَاءِ والضُّعَفَاءِ والمَسَاكِيْنِ، ومُعَايَشَتِهِمْ ومُعَاشَرَتِهِمْ...

كَانَتْ غَنِيَّةً ثَرِيَّةً، عَظِيْمَةَ الثَّرْوَةِ والمَالِ، تَمْلِكُ بَعْضَ الأَرَاضِيْ الزِّرَاعِيَّةِ، لَكِنَّهَا لَمْ يَكُنْ لِيَشْغَلْهَا ذَلِكَ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وعَنِ الصَّلَاةِ، أَوْ يَسْتَهْوِيْهَا فَتَقَعَ فَرِيْسَةً لَهُ...، بَلْ سَخَّرَتْهُ كُلَّهُ لِلْخَيْرِ...

وكَانَ يَخْدُمُهَا فِي بَيْتِهَا جَارِيَةٌ مَمْلُوْكَةٌ... وغُلَامٌ مَمْلُوْكٌ، ورِثَتْهُمَا عَنْ أَهْلِهَا، فَلَمَّا أَسْلَمَتْ وفَقِهَتْ، سَاعَدَتْهُمَا عَلَى اسْتِعَادَةِ حُرِّيَّتِهِمَا، وأَعْتَقَتْهُمَا بِالتَّدْبِيْرِ، (العَبْدُ المُدَبَّرُ هُوَ الذِي يُعْتَقُ بَعْدَ وَفَاةِ صَاحِبِهِ، ويَكُوْنُ وَفَاءُ المَالِ مِنْ ثُلُثِ التَّرِكَةِ)، وظَلَّ وَلَاؤُهُمَا لَهَا، فَلَازَمَاهَا يَخْدُمَانِهَا ويَقُوْمَانِ عَلَى شُؤُوْنِهَا.

المُبَشَّرَةُ بِالشَّهَادَةِ

سَمِعَتْ أُمُّ وَرَقَةَ ذَاتَ يَوْمٍ أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ قَدْ نَدَبَ المُسْلِمِيْنَ مِنَ المُهَاجِرِيْنَ والأَنْصَارِ للخُرُوْجِ مِنَ المَدِيْنَةِ واعْتِرَاضِ قَافِلَةٍ لِقُرَيْشٍ آيِبَةٍ مِنَ الشَّامِ، يَحْرُسُهَا أَبُوْ سُفْيَانَ فِي بِضْعَةِ عَشَرَ نَفَراً...، ثُمَّ الاِسْتِحْوَاذُ عَلَى مَافِي القَافِلَةِ مِنْ عُرُوْضٍ وأَمْوَالٍ لِقُرَيْشٍ، جَزَاءً بِمَا أَسْلَفَتْ مِنْ نَهْبِ أَمْوَالِ المُسْلِمِيْنَ فِي مَكَّةَ.

سَمِعَتْ بِذَلِكَ مِنْ زَائِرَةٍ كَانَتْ عِنْدَهَا فِي بَيْتِهَا، فَاسْتَأْذَنَتْ وقَامَتْ عَلَى جَنَاحِ السُّرْعَةِ إِلَى المَسْجِدِ، حَيْثُ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ، فاسْتَأْذَنَتْهُ وقَالَتْ لَهُ:

ـ يَا رَسُوْلَ اللهِ... اِئْذَنْ لِيْ أَنْ أَخْرُجَ مَعَكُمْ، أُدَاوِيْ جَرْحَاكُمْ، وأُمَرِّضُ مَرْضَاكُمْ لَعَلَّ اللهَ يُهْدِيْ إِلَيَّ الشَّهَادَةَ !!!

فَمَاذَا كَانَ جَوَابُ الرَّسُوْلِ الكَرِيْمِ، ﷺ ؟

لَقَدْ قَالَ:

ـ إِنَّ اللهَ يُهْدِيْ إِلَيْكِ الشَّهَادَةَ...، وقَرِّي فِيْ بَيْتِكِ...، فَإِنَّكِ شَهِيْدَةٌ.

فَسَكَتَتْ وأَطَاعَتْ، وقَرَّتْ فِي بَيْتِهَا.

الإِمَامَةُ

قَرَّتْ أُمُّ وَرَقَةَ فِي بَيْتِهَا، ولَزِمَتْ دَارَهَا، ولَكِنْ أَيُّ اِسْتِكَانَةٍ وأَيُّ اسْتِقْرَارٍ؟

لَقَدْ جَعَلَتْ مِنْ رُكْنٍ فِيْ دَارِهَا مَسْجِداً ومُصَلًّى، وجَعَلَتْ لَهَا مُؤَذِّناً يَرْفَعُ الصَّوْتَ بِالنِّدَاءِ الحَبِيْبِ كُلَّمَا حَانَ وَقْتُ الصَّلَاةِ، وكَانَتْ تَقِفُ فِي أَهْلِ بَيْتِهَا للصَّلَاةِ تَؤُمُّهُمْ ثُمَّ تَعِظُهُمْ وتُوَجِّهُهُمْ، وتَتَدَارَسُ مَعَهُمْ القُرْآنَ الكَرِيْمَ.

وأَصْبَحَ بَيْتُهَا مَدْرَسَةً ومُجْتَمَعاً للرَّاغِبَاتِ مِنَ النِّسَاء فِي التَّفَقُّهِ والتَعَبُّدِ والصَّلَاةِ، والذِّكْرِ والدُّعَاءِ والحَدِيْثِ، وأَصْبَحَتْ هِيَ رضي الله عنها أُسْتَاذَةً وإِمَامَةً يُشَارُ إِلَيْهَا بِالبَنَانِ.

وكَانَ مِنْ شَأْنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَأْتِيَهَا زَائِراً بَيْنَ الحِيْنِ والآخَرِ مُسْتَطْلِعاً أَحْوَالَهَا وشُؤُونَهَا، مُتَفَقِّداً مَسْجِدَهَا ومُصَلَّاهَا، مُزَوِّداً إِيَّاهَا بِكُلِّ جَدِيْدٍ ومُفِيْدٍ، مُرْشِداً ووَاعِظاً ونَاصِحاً لَهَا.

ولَمْ يَكُنْ لِيَأْتِيَهَا وَحْدَهُ، بَلْ مَعَ جُمْلَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ وإِخْوَانِهِ، وكَانَ يَقُوْلُ لَهُمْ:

ـ اِنْطَلِقُوْا بِنَا نَزُوْرُ الشَّهِيْدَةَ.

ويَبْدُوْ أَنَّ اللَّقَبَ الكَرِيْمَ الذِي أَضْفَاهُ ﷺ عَلَى أُمِّ وَرَقَةَ قَدْ غَلَبَ عَلَى اِسْمِهَا، فَاشْتُهِرَتْ بِهِ، وأَضْحَى عَلَمَاً عَلَيْهَا، تُعْرَفُ وتُنَادَى بِهِ.

الشَّهَادَةُ

أَمْضَتْ أُمُّ ورَقَةَ حَيَاتَهَا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ وفِي عَهْدِ الخَلِيْفَةِ الأَوَّلِ الصِّدِّيْقِ رضي الله عنه عَلَى الصُّوْرَةِ والكَيْفِيَّةِ التِي قَدَّمْنَا.

وفِي عَهْدِ الخَلِيْفَةِ الثَّانِي «الفَارُوْقِ» رضي الله عنه دَنَتْ سَاعَةُ رَحِيْلِهَا عَنْ الدُّنْيَا إِلَى الآخِرَةِ التِي كَانَتْ تَتَمَنَّاهَا وتَطْلُبَهَا وتَسْعَى إِلَيْهَا.

وأَيْضَاً عَلَى نَفْسِ الصُّوْرَةِ التِي كَانَتْ تَتَوَخَّاهَا وتَدْأَبُ فِي سَبِيْلِهَا: شَهِيْدَةً...، مَظْلُوْمَةً...، مَغْدُوْرَةً...

فَقَدْ كَانَ فَتَيَاهَا اللَّذَانِ غَذَّتْهُمَا بِإِحْسَانِهَا وفَضْلِهَا وأَغْدَقَتْ عَلَيْهِمَا مِنْ عَطْفِهَا وحَنَانِهَا، وعَظِيْم رِعَايَتِهَا، غَيْرَ جَدِيْرِيْنِ بِمَا أَسْلَفَتْ وقَدَّمَتْ، وتَنْطَبِقُ عَلَيْهِمَا الحِكْمَةُ المَأْثُوْرَةُ: «اِتَّقِ شَرَّ مَنْ أَحْسَنْتَ إِلَيْهِ».

إِذْ عَزَّ عَلَيْهِمَا أَنْ يَرَيَا مُدَّةَ وَلَائِهِمَا لَهَا تَطُوْلُ ، وغَرَّهُمَا بِمَالِهَا وغِنَاهَا الغَرُوْرُ، واِسْتَيْقَظَ فِي نَفْسَيْهِمَا غَدْرُ الشَّيْطَانِ وفُجُوْرُهُ، فَدَبَّرَا ذَاتَ يَوْمٍ جَرِيْمَةَ قَتْلِهَا...

فَمَاتَتْ شَهِيْدَةَ الظُّلْمِ والغَدْرِ، كَمَا تَنَبَّأَ لَهَا رَسُوْلُ اللهِ ﷺ وفَرَّا هَارِبَيْنَ.

لَكِنْ إِلَى أَيْنَ ؟

فَإِنَّ يَدَ العَدَالَةِ قَدْ أَمْسَكَتْ بِهِمَا وأُعِيْدَا إِلَى المَدِيْنَةِ حَيْثُ لَقِيَا جَزَاءَ مَا جَنَتْ أَيْدِيْهِمَا، فَقُتِلَا وصُلِبَا لِيَكُوْنَا عِبْرَةً لِمَنْ يَعْتَبِرُ.

وعَمَّ المَدِيْنَةَ حُزْنٌ شَدِيْدٌ، فَلَمْ تَبْقَ عَيْنٌ إِلَّا ودَمِعَتْ حُزْنَاً وأَسَىً عَلَى «أُمِّ وَرَقَة»، ولَمْ يَبْقَ قَلْبٌ إِلَّا وقَدْ انْفَطَرَ أَلَمَاً عَلَى المُؤْمِنَةِ الصَّادِقَةِ.

ورَثَاهَا سَيِّدُنَا عُمَرَ رضي الله عنه، وكَانَ مِمَّا يَقُوْلُ:

ـ صَدَقَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ حِيْنَ كَانَ يَقُوْلُ: [اِنْطَلِقُوْا بِنَا نَزُوْرُ الشَّهِيْدَةَ].

❊ ❊ ❊